

قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام

تأليف
الدكتور أحمد مختار العبادي
أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة القاهرة وبيروت العربية

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت - ص.ب. ١١-٧٤٩



حقوق الطبع محفوظة

١٩٨٦-١٤٠٦ م



دار النهضة العربية
للطباعة والنشر

* الإدارة : بيروت، شارع مدحت باشا -

بناية كريدية تلفون: ٣١٢٢١٣ -

برقياً: دانضة -

ص.ب.: ٧٤٩-١١ -

تلکس: NAHDA 40290 LE

* التوزيع : شارع البستاني - بناية اسكندراي

رقم ٣ غربي جامعة بيروت

العربية - تلفون: ٣٠٢٨١٦ -

.٣١٦٢٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا كتاب في تاريخ المماليك ، عرضت فيه لقيام دولة المماليك الاولى في مصر والشام . والدراسة التاريخية لمثل هذا الموضوع تحتاج الى النظرة الشاملة التي تستوعب التيارات والحركات منذ نشأتها الى وقت نضجها واستقامة عودها وتأثيرها في مجريات الحوادث . واقتضى ذلك معالجة أصل استخدام المماليك في الدولة الاسلامية عامة في الباب الاول ، مما تطلب شيئاً من الافاضة في الرق وأسبابه ، وأشهر أنواع الرقيق ، ومراكز جلبهم وما يتصل بذلك من الكلام عن صفاتهم وأحوالهم التي مهدت للأتراك والصقالبة منهم سبيل النقلة من الخدمة في القصور الى الخدمة في وظائف الدولة وقيادة الجيوش . ومن ثم تطرق الموضوع الى الدور الخطير الذي لعبه المماليك الاتراك في الحركات الاستقلالية التي قامت في شرق الخلافة العباسية والدويلات التي أقاموها هناك مثل الدولة الغزنوية والدولة الخوارزمية ودولة سلاطين المماليك في الهند . وما يقال عن الترك في المشرق ، يقال أيضاً عن الصقالبة في المغرب والاندلس وما قاموا به من اعمال هامة في ميادين العلم والسياسة والحرب منذ القرن الثالث حتى أواسط القرن الخامس الهجري .

وفي الباب الثاني ، أفردت الكلام عن مماليك مصر الاسلامية قبل قيام دولتهم بها أي حتى نهاية العصر الايوبي . فتنبعت نفوذهم

أيام الطولونيين والأشيديين والفاطميين مشيرا الى اهتمام الفاطميين بتربية صغار مماليتهم وغلمايتهم المعروفين باسم الترابي والصبيان الحجرية . ثم تكلمت عن مماليت الدولة الأيوبية منتبعا نمو نفوذهم الذي جعلهم صلب جيش الدولة وعدتها حتى أصبح بأيديهم إقامة السلاطين وعزلهم في أخريات أيامها . ثم وقفت قليلا عند لفظ « بحرية » الذي سميت به فرقة المماليت الصالحية التي كونها الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فشرحت أصل هذا اللفظ ومدلوله مبينا آراء المؤرخين فيه . واستعرضت أخيرا حملة لويس التاسع على مصر مع العناية بإبراز الدور الذي قام به المماليت البحرية الصالحية في القضاء على تلك الحملة ، وما اقترن بذلك من حوادث أدت الى نهاية الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليت الأولى في مصر .

وشرحت في الباب الثالث العقبات والصعاب التي اعترضت قيام الدولة المملوكية الناشئة ، والوسائل التي تغلب بها السلطان أيك التركماني على تلك الصعاب مما كان له الأثر البالغ في تدعيم أركان تلك الدولة .

وفي الباب الرابع تكلمت في الخطر المغولي على مصر بعد اجتياحهم الأراضي الاسلامية الأخرى ، واتخذت وقعة عين جالوت مادة لبيان ما لتلك الوقعة من أهمية في تدعيم دولة المماليت ، وجعلت أقوال المؤرخين المعاصرين وشهود العيان تفصح عما كان لهزيمة المغول على يد السلطان قطز من أثر قوى في تقوية الدولة المملوكية داخليا وخارجيا في آن واحد .

وفصلت الحديث في الباب الخامس في الدعائم الأخرى التي يرجح الفضل فيها للسلطان الظاهر بيبرس البندقدادي ، وهي الدعائم التي

وطدت أركان الدولة المملوكية نهائيا ، ومثال ذلك : احياء الخلافة العباسية في القاهرة ، والعناية بالجيش والاسطول ، وتحصين الثغور وأطراف الدولة ثم الجهاد ضد الصليبيين والمغول ، وختمت الكتاب عند نهاية عهد هذا السلطان ، لأننى لم أهدف الى كتابة تاريخ مفصل للسلطين الذين تداولوا عرش الدولة المملوكية ، بل أردت أن أبين ما لبعض الأحداث التاريخية المعينة من أثر في قيام هذه الدولة دون التقيد بالعهود وسنواتها •

كذلك حرصت في عنوان هذا الكتاب على تجنب الاسم الشائع الذي اطلقه المؤرخون على هذه الدولة وهو : « دولة المماليك البحرية » ، وذلك لان معظم سلاطين تلك الدولة لا ينتسبون لفرقة المماليك البحرية الصالحية • ولهذا فضلت اختيار تلك التسمية التي سبق أن نادى بها استاذي المرحوم الدكتور محمد مصطفى زيادة وهي : « دولة المماليك الاولى في مصر والشام » على أساس ان هناك عصرا ثانيا وآخر ثالث وهما اللذان اطلق عليهما المؤرخون عصر المماليك البرجية او الشراكسة ، وعصر المماليك العثمانيين أو البكوات •

والله أسأل السداد والتوفيق في الفكر والقول والعمل ، انه نعم الموفق والنصير •

الباب الأول

الممالك الأتراك والصقالية في المجتمع الاسلامى

تعريف المملوك - أصل استخدام الممالك في المجتمع الاسلامى -
الرق في الاسلام وشروطه - أشهر أنواع الرقيق - مراكز جلب الرقيق -
أسواق الرقيق في بعض المدن الاسلامية - أهمية الأتراك في الجيش
العباسى - الممالك والنزعات الاستقلالية في الدولة العباسية - ممالك
الدول الصفارية والسامانية والغزنوية والغورية في الشرق الاسلامى -
سلاطين الممالك في الهند - الصقالبة في المجتمع القرطبى - الدويلات
الصقلبية في شرق الاندلس - صقالبة بنى صالح والاغالبة والفاطميين في
المغرب الاسلامى •

الباب الأول

الماليك الأتراك والصقالبة في المجتمع الاسلامي

المملوك عبد يباع ويشترى ، غير أن التسمية اقتصر في معظم الدول الاسلامية المتأخرة على فئة من الرقيق الأبيض يشتريهم الحكام من أسواق النخاسة البيضاء لتكوين فرق عسكرية خاصة في أيام السلم ، وازافتها الى الجيش العام أيام الحرب . ثم صار المملوك الأداة الحربية الوحيدة في بعض الدول مثل دولة المماليك في مصر والشام التي اتخذنا قيامها موضوعا لهذا الكتاب .

والمعروف أن المعتصم العباسي (٢١٨ - ٢٢٧ هـ = ٨٣٣ - ٨٤٢ م) أول من شكل فرقا عسكرية من الأتراك ، اذ عنى باقتناء أبناء هذا الجنس صفارا ، وعكف على جلبهم من سمرقند وفرغانة والسند وأشروسنة والشاش وغيرها من أقاليم ما وراء النهر حتى بلغت عدة مماليكه بضعة عشر ألفا (١) . وامتلات بغداد بأولئك المسكر الجدد الذين ألبسهم المعتصم أفخر الملابس ، وسمح لهم بركوب الخيل في شوارع بغداد مما أدى الى اصطدامهم بالناس في الطرقات ، واثارة

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٢٢ ، القرمانى : اخبار الدول ص ١٥٧ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٢ ص ٢٣٣ .

سخط أهل العاصمة ، وألجأ الخليفة أخيراً الى الانتقال الى سامرا التي بناها لتكون عاصمة له ومقراً لجيوشه التركية من المماليك والأحرار . هذا مجمل لما يتواتر في الكتب في أصل المماليك ، غير أن البحث التاريخي يتطلب الرجوع الى ما قبل المعتصم ، إذ ليس المعقول أن يكون استخدام المماليك من الترك أجناداً في الجيش العباسي جاء بغتة كما تريد الكتب أن تصوره ، ولا بد أن سبقت ذلك خطوات أدت إليه .

والواقع ان المعتصم استخدم الجنس التركي تخلصاً من النفوذ الفارسي والعربي في الجيش والحكومة سواء ، إذ ألقى منذ أول خلافته أن سياسة الدولة أضحت بسبب المنافسة الشديدة بين هذين الجنسين ، أشبه برجل يركب جوادين في وقت واحد ، فهو على شفا السقوط مهما مهر في الركوب . لهذا لجأ المعتصم الى تملك الأتراك بالشراء ، وتربيتهم واعدادهم للجيش ، اعتقاداً منه خطأ بأنهم مجردون من الطموح الذي اتصف به الفرس ، ومن العصبية التي عرف بها العرب (١) ، ولكن سرعان ما أخذ أولئك الأتراك المماليك في التدخل في شؤون الدولة حتى أمست في أيديهم يفعلون بها ما يشاءون (٢) . ولا بن طباطبا في كتاب الفخرى في الآداب السلطانية عبارة تصف تلك الحال في الدولة العباسية حيث قال ان الأتراك استولوا على الخلافة منذ مقتل المتوكل سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) ، وأنهم استضعفوا الخلفاء فكان « الخليفة في أيديهم كالأسير ، ان شاءوا أبقوه ، وان شاءوا خلعوه ، وان شاءوا قتلوه » (٣) .

(١) راجع (Muir : The Caliphate P. 334)

(٢) ابو شامة : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ج١ ص ٣١

(٣) محمد بن طباطبا (ابن الطقطقى) : الفخرى في الآداب السلطانية

على أن استخدام المماليك في المجتمع الاسلامى يرجع الى ما قبل عهد المعتصم بكثير ، كما يرجع استخدامهم في الوظائف الكبرى بالدولة الى أوائل أيام العباسيين ، وأوضح الأدلة على ذلك ولاية يحيى ابن داود الخرسى امارة مصر (١٦٢ - ١٦٤ هـ) = (٧٧٨ - ٧٨٠ م) من قبل الخليفة أبى جعفر المنصور ، ويحيى هذا مملوك تركى وصفه المنصور وصفا ينبىء بكثير عما وصل اليه بعض المماليك من الترك في صدر الدولة العباسية ، اذ قال « هو رجل يخافنى ولا يخاف الله » (١) . ويذكر الطبرى في حوادث سنة ١٧٠ هـ (٧٨٦ م) أن طرسوس عمرت على يد أبى سليم فرج الخادم التركي (٢) .

ومن هذا وحده يتضح ان علاقة المماليك بمصر أبعد عهدا من قام دولتهم بها ، اذ اتخذ امراء الدولتين الطولونية والاخشيديية جنودا من المماليك ، واتخذ الفواطم من المماليك الذين اشتروهم من الاسواق ، أو أسروهم في الحروب طوائف أسموها « ممالك » . ولكن هؤلاء وأولئك دخلوا الجيش في حدود ضيقة ، فلم يزيدوا عن فرقة الحرس الخاص بالأمير أو الخليفة ، واستمروا في تلك الحدود الضيقة الى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب (٣) .

فلفظ مملوك اذن لم يكن جديدا أو غريبا على مصر حينما قامت دولة المماليك الاولى بها . على ان قيام تلك الدولة بمصر لا يمكن فهمه على وجه صحيح الا بعد معرفة الاصول التاريخية لاستخدام المماليك

(١) الكندي : كتاب الولاة ص ١٢٣

(٢) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ج. ١ ص ٥٠ ، عبد العزيز الدورى :

العصر العباسى الاول ص ٢٧٧

(٣) انظر الباب الثانى من هذا الكتاب

في المجتمع الاسلامى عامة ، ثم استخدامهم في الجيش منذ ايام المعتصم فصاعدا . ولا بد هنا من الرجوع الى الاصول العامة للرق في الدول القديمة بالشرق والغرب حيث يتضح من تاريخ تلك الدول أن الوثنيين القدماء (١) واليهود والنصارى والمسلمين في تملك الرقيق سواء ، وأن الدساتير اليونانية والرومانية القديمة ، والديانات الكتابية لم تحرم وجود الأرقاء . وللق سببان جوهريان هما الحرب والفقر ، والحرب أقوى السببين (٢) . ولما كانت الحروب والفتوح والانتصارات تملأ صدر الاسلام ، فمن الواضح ان اعداد الرقيق من الأسرى أضحت لا تحصى كثرة ، وأن الرقيق صار مختلطا متنوعا تنوع البلاد التي فتحها المسلمون . وإذا كانت تعاليم الاسلام تقضى بأن من استرق في الحرب صار جزءا من الغنيمة شأنه في ذلك شأن الآلات الحربية والخيول والنقود من حيث التملك والبيع والشراء ، فإن امتلاك الرقيق لم يقتصر على الخلفاء والولاة والمحاربين ، بل صار في متناول أيدي الذين يستطيعونه عن طريق الغنى والثروة . ولذا انتشرت تجارة الرقيق في الدولة الاسلامية ، كما انتشرت في غيرها من الدول . وتنوع الأرقاء كذلك فمنهم السود ، ومنهم البيض أو المماليك الذين سماهم منز أرسقراطية العبيد (٣) ، في شرائهم .

والانثراك والصقالبة أشهر الرقيق الابيض في المجتمع الاسلامى ،

(١) راجع (Aristotle : Politics, translated by J. E. Weldon , Book I, chaps . III, IV, V, VI, VII, XII)

(٢) شفيق باشا : الرق في الاسلام ، ترجمة أحمد زكى ص ٧ - ٥٧)

(٣) آدم منز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى - ترجمة

ابو ريده - ص ٢٦٦

غير أنه يبدو أن الصقالبة كانوا موضع التفضيل بدليل قول الخوارزمي (١) في كتاب يتيمة الدهر « ويستخدم التركي عند غيبة الصقلبي » (٢) .
على ان الأرقاء من الأتراك أقدم عهداً بالدولة الإسلامية من الصقالبة ،
اذ وصل المسلمون بلاد تركستان وما وراء نهرى سيحون وجيحون
وفتحوها على يد قتيبة بن مسلم أواخر القرن الهجرى الاول أى القرن
السابع الميلادى . وعندئذ صار للرقيق التركي مكانة ممتازة في البيوت
الإسلامية ، «لوفائهم وشجاعتهم وتماهم قاماتهم وحسن صورهم وظرافة
شمالهم» (٣) . وكثر استخدامهم غلماناً (٤) وخدماء قبل ان يعرف
المسلمون شيئاً عن الصقالبة وبلادهم .

وجاء أغلب أولئك الأرقاء عن طريق الأسر في الحروب أو عن طريق
المسلمون شيئاً عن الصقالبة وبلادهم .

(١) . هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي ويقال له الطبرخزى لأن
أمه من طبرستان وأباه - وهو ابن أخت أبي جعفر بن جرير الطبرى صاحب
التاريخ - من خوارزم . وأبو بكر واحد من الشعراء المجيدين الكبار ، أقام
بالشام مدة وسكن بنواحي حلب ، وله ديوان شعر ورسائل وقد ذكره
الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) في كتابه يتيمة الدهر ، وتوفي
أبو بكر الخوارزمي سنة ٣٨٣ هـ في نيسابور وان كان ابن الأثير يحدد وفاته
في تاريخه سنة ٣٩٣ هـ . راجع (ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١
ص ٦٦٢ - ٦٦٣)

ص ٢٦٨

(٢) الثعالبي : يتيمة الدهر ج ٤ ص ١٨٤ ، متر : نفس المرجع ج ١

(٣) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٤٥٨

(٤) الغلام في اللغة هو الصبي الصغير والملوك ، ثم اطلق بعد ذلك على
من يقوم بتربية الخيل واستعماله هنا بالمعنى الاول . (القلقشندي : صبح
الاعشى ج ٥ ص ٤٧١)

دأب الحكام والقادة على ارسالهم هدايا الى الخليفة أو الوزير حتى صار انقطاع ذلك النوع من الهدايا. علامة من علامات الثورة في الأقاليم التركية . ومن ثم صارت أقاليم ما وراء النهر مصدرا هاما للرقيق الذي أضحت تجارته أعظم مهنة هناك على قول المؤرخين الأوربيين (١) ، وصارت مدينة وختان في أعالي نهر جيحون مركزا لقوافل الرقيق من الترك الآتية من أواسط آسيا (٢) ، وأثرى أهل خوارزم من متاجرتهم بالاتراك الذين يجلبون أو يسرقون من رعاة السهب (الاستبس) ، ويربون تربية اسلامية ثم يصدرون بعد ذلك الى جميع أنحاء العالم الاسلامي (٣) . واشتهرت سمرقند كذلك بأن خير الرقيق من تربيتها ، اذ اتخذ اهلها ذلك صناعة لهم يعيشون منها (٤) . ويقال مثل ذلك بصدد نيسابور ومرو حيث بلغ ثمن الغلام أو الجارية من الترك ثلاثة آلاف دينار (٥) . وعلى بحر قزوين غدت ميناء باب الأبواب أو الدر بند، (٦) عاصمة أذربيجان مركزا هاما لتجارة الرقيق الوارد من الاراضي الشمالية (٧) . وطرق القوافل التي حملت أسراب ذلك الرقيق سواء

(١) انظر (Le Strange : The Lands of the Eastern Caliphate) p. 487.

(٢) ابن حوقل : كتاب صورة الارض ص ٤٧٦ وكذلك (Le Strange : op. cit. P. 437)

(٣) ابن حوقل : المرجع السابق ص ٤٨١ - ٤٨٢ وكذلك (Le Strange: op. cit. P. 459

(٤) ابن حوقل : نفس المرجع ص ٤٩٤

(٥) ابن حوقل : المرجع ص ٥٢ وكذلك (Le Strange : Op. cit. P. 429.)

(٦) الدر بند لفظ فارس معناه مضيق في الجبل . راجع (مفضل بن ابي الفضائل : النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ج١ ص ٤٩٣ حاشية ٣ نشر بلوشية Blochet)

(٧) ابن حوقل : صورة الارض ص ٣٤٠ وكذلك (Le Strange : Op. cit. P. 124)

من آسيا الوسطى أو من تلك الاراضى الشمالية ، هى الطرق التجارية المعروفة في العصور الوسطى (١) .

أما الرقيق من الصقالبة فطريقه الرئيسي الى العالم الاسلامي هو الطريق الذى يتدىء من شرق المانيا الى ايطاليا وفرنسا ومنها الى اسبانيا الاسلامية (٢) . والمقصود بالصقالبة في الكتب العربية ، سكان البلاد المختلفة من بلغاريا العظمى التى امتدت أرضها من بحر قزوين الى البحر الادرياتي (٣) .

واشتغل اليهود بتلك التجارة التى يرجع اليها استقرار جاليات يهودية كبيرة في مدينة مجدبورج بسكسونيا الشرقية . ويبدو أن تلك التجارة عادت على اليهود بأرباح طائلة بدليل الضرائب الكبيرة التى فرضتها كوبلنتز وفالنشتات على كل رأس من الرقيق المار بها . وربما كانت ضخامة تلك الضرائب هى التى أدت بتجارة الرقيق الى طريق آخر يتدىء من شرق أوروبا ويمر بتشكوسلوفاكيا الحالية وبولونيا وروسيا والقسطنطينية . وكانت مدينة براغ في القرن العاشر الميلادى سوقا للرقيق الذهب للبلاد الاسلامية والبيزنطية عن ذلك الطريق . غير أنه يلاحظ أن الرقيق الأوربي لم يجلب كله للشرق الاوسط فحسب ، بل ذهب التجار اليهود من جنوب فرنسا بجزء منه الى الهند عن طريق مصر والبحر الاحمر ، على حين ذهب آخرون من أولئك التجار من جنوب اسبانيا الى سبتة ومنها الى مصر عبر بلاد المغرب ثم الى الشام والعراق

(١) راجع (كرامرز : الجغرافية والتجارة في الجزء الاول من كتاب تراث الاسلام ص ٨٧)

(٢) متز : الحضارة الاسلامية ص ٢٦٨

(٣) ابن حوقل : المرجع السابق ص ١١٠

والخليج الفارسي الى السند (١) .

وتطلب الرقيق المجلوب للعالم الاسلامي أسواقا وخانات بالمدين الكبرى ، وأشهر هذه دار البركة أو بركة الرقيق بالفسطاط (٢) ، ودار الرقيق ببغداد (٣) وقد انتهت في الفتنة بين الأمين والمأمون ، ثم سوق الرقيق بدمشق (٤) ، ثم سوق سامرا وهي سوق واسعة مربعة الشكل فيها الحجر والغرف والحوانيت للرقيق . ويبدو أن وظيفة قيّم الرقيق التي ذكرها صاحب الاغانى (٥) في معرض كلامه عن الشاعر نصيب

(١) متز : الحضارة الاسلامية ص ٢٦٩ - ٢٧٠ وكذلك (Legacy of Islam P. 101)

(٢) هذه السوق كانت في الاصل دارا بناها عمرو بن العاص بجوار المسجد الجامع للخليفة عمر بن الخطاب . فكتب له عمر قائلا : أتى لرجل بالحجاز تكون له دار بمصر ! « وأمره ان يجعلها سوقا فكان يباع فيها الرقيق . راجع (ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والاندلس ص ٩٢)

(٣) كانت تقع في الجانب الغربي لمدينة بغداد وموضعها الحالي في المكان المعروف اليوم بالبحية (البوحية) من شرقي الكاظمية الشمالي . وكان فيها القافلايون وهم كما في انساب السمعاني الذين يشترون السفن الكبار المنحدرة من الموصل ، والمصعدة من البصرة ويكسرونها ويبيعون خشبها وقيرها وقفلها اي حديدتها . فالشط الغربي المنسوب فيه الجسر بين الكاظمية والاعظمية ، كانت أرضه من قطعة الرقيق . راجع (ميخائيل العواد : المآصر في بلاد الروم والاسلام ص ٦٣ تعليق مصطفى جواد : راجع كذلك (ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٥١٩ مادة الرقيق ، ابن الفوطى : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة ص ٤٤٢ حوادث سن ٦٨٣ هـ) .

(٤) ابو شامة : الذيل على الروضتين ص ١٨٢ (نشر عزت العطار الحسينى) .

(٥) أبو الفرج الاصفهاني : كتاب الاغانى ج ٢٠ ص ٢٧

مولى الخليفة المهدي ، وجدت في تلك المدن الكبرى للاشراف على
تجار الرقيق ومعاملاتهم .

على أن بيع الرقيق الجيد في السوق العام كان بمثابة الاهانة
للمبيع لهذا جرت العادة بالتجارة في هذا الصنف من الرقيق في منزل
خاص على يد النخاس بعيدا عن السوق . ولا حاجة الى القول هنا
أن تجارة الرقيق سواء أكانت بالسوق العام أم بعيدا عنه قد أدت على
النخاس أرباحا كثيرة ، غير أن تلك الارباح لم تغير من شأنه في المجتمع
الاسلامى ، بل ظل هذا اللفظ يطلق على بائع الدواب ، ويستخدم في
موضع التشنيع ، ومثال ذلك محمد بن الاشعث صاحب شرطة مصر في
سب أحد القادة الخارجين على الخلافة حين وصفه « بالنخاس
الكذاب » (١) . على أن العبارة نفسها تدل - ان صحت - على انتشار
تجارة الرقيق الى درجة شارك فيها القادة وأرباب الدولة ، كما تدل ضمنا
على كثرة الأرقاء وكثرة استخدامهم في القصور غلمانا وخداما . غير أن
المراجع المعاصرة لا تسعف هنا للتدليل على الظروف التي مكنت للأتراك
أن ينتقلوا من الخدمة في القصور الى الخدمة في وظائف الدولة حتى
صار منهم الوالى على مصر وطرسوس أوائل الدولة العباسية ، ما عدا
أنه جاء في ابن حسنول (٢) المتوفي سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) أن الأتراك

(١) الكندى : كتاب الولاة ص ١٠٩ - ١١٠

(٢) ابن حسول : كتاب تفضيل الأتراك على سائر الاجناد . وابن
حسول هذا من رجال السياسة في دولة آل سبكتكين ، وابن نهضة آل
سلجوق في بلاد الرى حيث تولى رئاسة الديوان ، وقدم رسالته المذكورة
الى السلطان طغرلبيك السلجوقى ، وبين فيها أوصاف الترك وخصائصهم ،
وعرف بالبويعيين وأصلهم وكانت وفاته سنة ٥٠٠ هـ . قد نشر الاستاذ
عباس العزاوى هذه الرسالة في المجلة التركية :

(Turkiye Bulletin, Ankara1940, Tome IV, No 14 - 15)

الذين جاءوا الى المجتمع الاسلامى الاول عن طريق الحرب او الشراء ، كان الواحد منهم لا يرضى « الا أن يساويه سيده في مطعمه ومشربه وملبسه ومركبه ، ولا يسف في خدمة الى ما يسف اليه سواه من الحاصلين في الرق والمجلوبين بالسبى ، ككنس الدار وسياسة الدواب وما اشبه ذلك مما يستخدم فيه سائر الرقيق » ثم يستطرد ابن حنبل في هذه العبارة حتى يصل الى قوله : « وليس يرضى التركي اذا خرج من وثاقه الا بزعامة جيش أو التوسم بحجاجة أو الرياسة على فرقة ، والأمر والنهى على عصابة » ومعنى هذا من باب اطلاق المتأخر على المتقدم أن الأتراك منذ حلولهم بالمجتمع الاسلامى الاول ، لم يرضوا بالعيش الدنىء ولا بالخدمة في الاعمال الدنيئة ، وان ساداتهم اعتقوهم من الرق اذا توسموا فيهم نجابة أو متانة من الخلق أو أية صفة من الصفات الطيبة ، وان كثيرا من أولئك العتقاء دخل خدمة الدولة بدليل استطاعة بعضهم ان يصل الى وظائف الولاية في الولايات الهامة مثل مصر وطرسوس ، كما حدث لاشباههم من الرقيق الابيض في الدولة البيزنطية المعاصرة .

وصفوة القول ان الاتراك صاروا جنسا هاما في المجتمع الاسلامى منذ اوائل العباسيين على الاقل ، وان المعتصم لم يجعل الجيش منهم تخلصا من العرب والفرس فحسب ، بل لانه لمس أهميتهم وأدرك فيهم المقدرة على أن يكونوا جيش الخلافة العباسية .

وكان من الطبيعى ان يزداد نفوذ الترك في الخلافة العباسية بعد ان صار منهم الجيش والقادة . فلما ضعف سلطان الخلافة في الاقاليم ، وجنح عمال الاطراف الى الاستقلال بولاياتهم ، وصار الجيش وقادته من الاتراك وسيلة الخلفاء للقضاء على الحركات الاستقلالية المختلفة ، ازداد الاتراك

أهمية على أهميتهم ، وأضحى منهم الولاة والوزراء وأرباب الدولة • غير ان الحركات الاستقلالية ما لبثت ان أغرت الاتراك أنفسهم حتى صارت معظم الدويلات الاسلامية التي نهضت في جوف الخلافة العباسية منذ اواسط القرن الثالث الهجرى من الترك ، وهؤلاء جعلوا جيوشهم من جنسهم ، بل ان بعض الدويلات الغير التركية جعلت تكوين جيوشها أو حرس ملوكها على الاقل من المماليك الاتراك المجلوين عن طريق الشراء •

سيادة المماليك الاتراك في دول المشرق الاسلامي :

لعل أوضح مثال يدل على قوة نفوذ المماليك في دول المشرق الاسلامي ما يرويهِ المؤرخون من أن عمرو بن الليث الصفار ، ثاني ملوك الدولة الصفارية (١) (٢٥٤-٢٩٠هـ=٨٦٧-٩٠٣م) دأب على شراء المماليك الصفار من الترك، فجعل منهم فرقة لحرسه، وعكف على اهداء الكثيرين من تلك الفرقة لقادته دون ان يقطع رواتبهم من خزائنه ليطالعوه سرا بالاخبار التي لا يستطيع الوصول اليها علنا (٢) • وكذلك كان الحال في

(١) مؤسس الدولة الصفارية هو يعقوب بن الليث الملقب بالصفار ، لانه واخاه عمرو بدءا الحياة في صناعة الصفر أي النحاس بسجستان . واشتملت تلك الدولة على سجستان وفارس وخراسان التي استولت عليها من الطاهريين وطوت بذلك صحيفة آل طاهر من الشرق سنة ٢٥٩ هـ (٨٧٢ م) . وبعد موت يعقوب ، تولى اخوه عمرو بن الليث الصفار الذي قضى عليه السامانيون واستولوا على اراضيه سنة ٢٩٠ هـ (٩٠٣ م) فانقضت بذلك الدولة الصفارية . راجع (ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٣ ص ٢٥٠ - ٢٧٥) وكذلك (Ency. of Islam art. Saffarids)

(٢) ابن الاثير : تاريخ الكامل ج٧ ص ١٩٨ - ١٩٩

الدولة السامانية^(١) (٦١ ٢ - ٣٨٩ هـ = ٨٧٤ - ٩٩٩ م) التي جعلت جيوشها من المماليك الاتراك منذ سنة ٣٠٠ هـ (٩١٢ م) برغم أصلها الفارسي * ومن مماليك السامانيين الاتراك الذين تجلت مواهبهم في الحروب واحتلوا المناصب الهامة في الدولة السامانية ، نذكر الامير البتكين الذي أسس دولة تركية لنفسه سنة ٣٨٤ هـ (٩٩٤ م) وهي الدولة الغزنوية التي ارتبط قيامها بالصراع القائم بين العناصر الفارسية والعناصر التركية من أجل السيطرة على الاطراف الاسلامية في القرن الرابع الهجري^(٢) * .

(١) تنسب الدولة السامانية الفارسية الى سامان خدات أحد اشراف بلخ . ومن سلالة سامان هذا نصر بن أحمد مؤسس تلك الدولة السامانية التي جعلت عاصمتها بخارى . وامتدت حدودها من المفازة الكبرى الى الخليج الفارسي ، ومن حدود الهند الى قرب بغداد . وظلت هذه الدولة مائة وسبعين عاما حتى انتهت على ايدي الغزنويين من جهة ، والترك الخاقانية أو اليخانات تركستان من جهة أخرى ، وذلك في أواخر القرن الرابع الهجري . وقد عاش في كنف السامانيين عدد من كبار العلماء مثل الوزير محمد بن عبدالله البلعمي الذي ترجم تاريخ الطبري الى اللغة الفارسية سنة ٣٥٢ هـ بعد ان حذف منه التفاصيل المملة . وقد اشتهرت ترجمته ، وترجمت بدورها الى لغات اخرى عديدة . ومثل ابي القاسم الفردوسي صاحب الملحمة الشعرية الفارسية المشهورة الشاهنامه (كتاب الملوك) التي يعتبرها الايرانيون اليوم من مفاخرهم الادبية لانها تقص اخبار ملوك الفرس القدماء . وقد انتقل الفردوس بعد ذلك الى خدمة الغزنويين واهدى ملحمته للسلطان محمود الغزنوي الذي منحه ٦٠ الف مثقال من الفضة على عدد ابياتها . راجع (ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج٧ ص ١١٠-١١١) وكذلك (Ency. Isl. art. Samanids)

(٢) انظر : Ency. Isl. art. Ghaznavids & Hitti : History of the :
Arabs P. 465)

على أن الامر الذي يدعو الى الالتفات هنا هو أن السامانيين لم يستخدموا الماليك الاثرالك فحسب ، بل انهم اكثروا منهم كثرة يدل عليها قول نصر الثاني بن أحمد مخاطبا أمراء دولته : « اتخذوا الماليك وأحسنوا تربيتهم ، فهم اولاد يريدون حياة والدهم لان التسلط على الماليك من عجز المقدرة ... وانما يجب الرفق بهم ، والاحسان اليهم ، والتوسعة في نفقتهم ، واطعامهم مما تأكلون ، والنهي عن ضرب الوجه وعن المثلة في العقوبة (١) » .

وإذا قصرت هذه العبارة عن البرهان القاطع باكتثار السامانيين من الماليك ، ففي كتاب سياسة نامه الذي الفه الوزير نظام الملك الطوسي سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) (٢) ، ما يدل دلالة واضحة على تلك الظاهرة ، كما يدل على مبلغ عناية الدولة السامانية بمماليكها ، وعلى مدى اعتمادها عليهم في الجيش والادارة وشئون الدولة عامة ، حتى يخيل للقارئ ان الدولة السامانية لم تكن سوى دولة مملوكية . وهذا نص ما جاء في سياسة نامه (٤) : « ان ممالك السامانيين يرقون تدريجيا بناء على خدماتهم وشجاعتهم ، وليس اعتمادا على المحسوية او الجاه . فالمملوك عند شرائه يخدم عاما على قدميه ، فيسير مرتديا قباء من القطن يسمى زنداجي (١) ، بجوار سيده الممتطي سهوة جواده . وليس من المسموح

(١) الحسن بن عبدالله : آثار الاول في ترتيب الدول ص ١١٥ - ١١٦ .

(٢) انظر (Ency. Isl. art. Nizam - al Mulk)

(٣) Siaset Nameh par Nizam - al - Mulk, traduit par Schefer
P. 138 - 141 .

(٤) زنداجي نسبة الى مدينة زندنه Zandanah شمال بخارى ، واشتهرت في العصور الوسطى بهذه الملابس القطنية التي نسبت اليها .
راجع (Le Strange : op. cit. P. 462)

له ان يركب الخيل اطلاقا في عامه الاول من الخدمة والا عوقب أشد العقاب . فاذا أتم المملوك عامه الاول أخبره عريف الدار بذلك حاجب الحجاب ، فيقدم الحاجب للمملوك حصانا تركيا بعنان دون سرج ، ثم يمنح المملوك في العام الخامس من خدمته سرجا ولجاما مزينا بنجوم من المعدن ، وسروالا من القطن المخلوط بالحرير ، وبعض الاسلحة التي يحلقها في سرج فرسه . وفي العام السادس يمنح المملوك ملابس أفخر من ذي قبل . وفي العام السابع يمنح خباء ذا طنب واحد وستة عشر وتدا ، كما يمنح ثلاثة من الرقيق ليقوموا بخدمته . وعندئذ يستحق المملوك لقب عريف الدار ، ويضع على رأسه طاقية من الجوخ الاسود الموشاة بالفضة ، كما يرتدى قباء كنجويا (١) . ثم يأخذ المملوك بعد ذلك في الترقى ، عاما بعد عام ، وتزداد حاشيته تدريجيا الى ان يصل الى مرتبة صاحب الخيل ، ثم حاجب الحجاب . ولا يأخذ المملوك لقب أمير ، ولا يتولى عملا كبيرا مثل القيام على ولاية من الولايات ، او فرقة من الفرق العسكرية ، الا بعد ان ينضج ، وسن النضوج في العادة هو سن الخامسة والثلاثين (٢) .

ففي هذا السن عهد الى المملوك الساماني البتكين حكم ولاية

(١) نسبة الى مدينة كنجه في اقليم شروان ، واشتهرت بصنع الاقمشة الحريرية الجميلة . راجع (Schefer: Op. cit. P, 140, note 2)

(٢) يشرح الحسن بن عبدالله في كتابه آثار الاول في ترتيب الدول

ص ١١٦ ، أهمية ذلك الترتيب في تنشئة المالك في الدولة السامانية في قوله : « ويجب على الملك الا يعجل على المالك الصغار باسراهم في الملك وندبهم للأمور الجسم بل على التدريج ، فان الغالب على همهم القصور ، وربما بهرتهم الولايات الجسيمة فدهشوا ، وربما غرتهم فبطروا ، فيجب الاحتياط والتأني في ذلك لصغر سنهم وقلة تجربتهم .

خراسان ، فذهب اليها في نحو الالفين والسبعمائة من ممالিকে الاتراك ،
 فيهم مملوكه سبكتكين والد السلطان محمود الغزنوي . ويقال ان
 سبكتكين اشترى من تركستان ، وأنه حضر ذات يوم بين يدي البتكين
 مع حاجبه في عدد من المماليك بسبب وفاة عريف من عرفاء الدار ،
 وضرورة تعيين خلف له في تلك الوظيفة وملحقاتها من ميراث وحاشية .
 فوقع اختيار البتكين على سبكتكين ، وتعجب الحاجب من قرار الامير
 وأخبره ان المختار غلام حديث الشراء ، ولم يخدم عاما واحدا بعد ،
 على حين جرت العادة المتبعة ان تكون الخدمة سبع سنوات قبل الولاية
 على وظيفة من الوظائف . ويقال كذلك ان ألبتكين ندم في قرارة نفسه
 على التسرع في ذلك الاختيار الخارق للنظام المتبع في تربية المماليك ،
 وأنه التمس لنفسه العذر على هذا التجاوز بأن الغلام أصيل عريق
 النسب (١) .

ثم شاءت الاقدار ان تطوح بالبتكين والى خراسان من قبل السامانيين
 الى غزنة (٢) سنة ٣٥١ هـ (٩٦٢ م) في قلب جبال سليمان شمالي الهند
 حيث اقام بفضل ممالিকে الاتراك دولة مستقلة لا شأن لها بالسامانيين الا
 من ناحية التبعية الاسمية . وتوفي البتكين سنة ٣٥٢ هـ (٩٦٣ م) ،
 وآلت الامور في تلك الدولة بعد سنوات قليلة الى زوج ابنته ومملوكه

(١) يقال ان سبكتكين كان من ولد كسرى يزديجرد الثالث آخر ملوك
 الفرس الساسانيين ، وان أهله لجأوا بعد موت يزديجرد الى تركستان ثم
 استقروا في سجستان واتحدوا هناك مع الترك . راجع (Schefer: Siaset
 Namch P. 140 - 141)

(٢) غزنه مدينة وولاية في طرف خراسان وهي الحد بين خراسان
 والهند ، ويلفظها الخاصة غزنين وتسمى أيضا غزنية Ghazni .
 نظر : (Journal asiatique 1934, Jan Feb. P. 141)

سبكتكين (٣٦٦ - ٣٨٧ هـ = ٩٧٦ - ٩٩٧ م) الذي يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة الغزنوية أو السبكتكينية (٢) . وبلغت تلك الدولة أوجها حين ألقى السلطان محمود الغزنوي بن سبكتكين (٣٨٨ - ٤٢١ هـ = ٩٩٨ - ١٠٣٠ م) اسم السامانيين من الخطبة في مملكته ، وخطب للخليفة العباسي القادر بالله الذي أنعم عليه بلقب يمين الدولة وأمين الملة . ثم اضمحلت الدولة الغزنوية بعد وفاة السلطان محمود سنة ٤٢١ هـ لظهور السلاجقة بزعامة طغرل بك ، واستيلائهم على معظم ممتلكات الغزنويين ، فأقتصرت الدولة الغزنوية على بعض الولايات الهندية الشمالية حول مدينة لاهور . على ان موضع الاهتمام هنا من تاريخ الغزنويين هو أنهم اعتمدوا على المماليك الاتراك في الجيش والادارة وشئون الحكم على غرار ما فعل السامانيون ، وأن ألتنتاش Altuntash مملوك سبكتكين نفسه هو بدوره مؤسس الدولة الخوارزمية سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م) (١) . واتبعت الدولة الخوارزمية سنة أسلافها من حيث الاعتماد الكلي على المماليك الاتراك في جميع شئون الدولة .

وفي سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦ م) استولى الغوريون بزعامة شهاب الدين الغوري على لاهور ، فانقضت بذلك الدولة الغزنوية . وتنسب الدولة الغورية (٥٤٣ - ٦١٣ هـ = ١١٤٨ - ١٢١٥ م) الى مكان نشأتها جبال الغور وهي ولاية بين هراة وغزنة . واستطاع الغوريون أن يوسعوا مملكتهم حتى ملكوا ما كان يملكه الغزنويون من بلاد الغور وأفغان والهند الشمالية . فالدولة الغورية هي ثاني دولة اسلامية هندية بعد

(١) راجع (Lane Poole: The Mohammadan Dynasties P. 285)

(٢) حمل التنتاش لقب خوارزمشاه ، واستمر حكم هذه الدولة في

أسرته بعد مماته سنة ٤٢٣ هـ حتى سنة ٤٣٢ هـ (١٠٤٠ م) راجع (Éncy. Isl. art. Altuntash)

الدولة الغزنوية • غير أن سلاطين هذه الدولة الغورية لم يقيموا في الهند دائما ، وإنما كانوا يقيمون في مدينة غزنة عاصمة ملكهم ، وصاروا يحكمون الهند عن طريق مماليكهم الاتراك • وقد أكثر السلطان محمد الغورى من شراء المماليك واعتنى بتربيتهم واعدادهم لمهمة الغزو والجهاد. ويؤثر عنه أنه كان كلما ناقشه أحد عن ضرورة الحاجة الى ابن ذكر يحافظ على ملك أسرته من بعده ، أجابه بأن لديه ألوف من الابناء ، ألا وهم مماليكه الاتراك (١) . وقد ارتفع بعض هؤلاء المماليك الى مناصب الحكم والقيادة ، نذكر منهم : تاج الدين يلدز Yildiz الذي حكم كرمان ، وناصر الدين كوباشا في السند ، وقطب الدين أيك في دلهى وهو أقوى الجميع نفوذا (٢) •

واستطاع محمد الغورى بفضل جهود مماليكه وعلى رأسهم أيك ان يملك جميع البلاد التى فى شمال جبال فندياس Vindhya حتى مصبات نهر الكنج ، فيعمها الاسلام ، وتتحول معابدها الهندوسية الى مساجد ، ويدفع راجاتها الجزية صاغرين •

وكان قطب الدين أيك رجلا مسلما متمسكا بشروط الاسلام ، ويظهر ذلك بوضوح فى عدائه الشديد لنظام الطبقات الذى كان سائدا فى الهند ، ومعاملته للناس على اختلاف طبقاتهم على أساس المساواة التى ينص عليها الاسلام • وينسب لأيك فى دلهى مسجد عظيم أسماه « قوة اسلام » ، وهو ذو منارة ارتفاعها ٢٥٠ قدما ، وهى تعد أطول منارة فى العالم ، ولا تزال قائمة الى اليوم وتعرف باسم « قطب منار » ، وتمتاز

(١) انظر (Wolsey Haig: The Cambridge History of India) Vol. III pp. 1 - 37 & Lane - Poole. Medieval India under Mohammad Rule p. 65)

(٢) أبو الفداء : المختصر فى اخبار البشر ج٣ ص ٢٧ •

بنقوشها وزخارفها ذات الطابع العربي والهندي (١) .

وفي مارس ١٢٠٦ م (٦٠٣ هـ) اغتيل السلطان محمد الفوري على ضفاف السند بيد أحد غلاة الاسماعيليين ، وبموته اختفت غزنة والغور من التاريخ وظهرت مدينة دلهي (١) كعاصمة اسلامية لدولة سلاطين المالك في الهند .

ولم يعيش أيك بعد موت سيده سوى بضع سنوات ، اذ انتهى حكمه كسلطان مستقل على هندستان في نوفمبر سنة ١٢١٠ م (٦٠٨ هـ) وذلك على أثر سقوطه من ظهر جواده أثناء لعبه الكرة أو البولو - جوكان - فتوفي على الأثر (٢) . وسادت الفوضى بعد موت أيك مدة من الزمان تولى فيها الملك ابن غير كفو يدعى أرام شاه ، وانتهى الأمر بأن خلعه أحد

(١) انظر (Lan - Poole : Op. cit. P 68 - 69) ويقال ان السلطان التتمش مملوك أيك وزوج ابنته وخليفته على عرش دلهي هو الذي بنى هذه المنارة عام ١٢٣١ - ١٢٣٢ م تكريما لولى الله قطب الدين بختيار الكمي الذي اقام في غزنة والملتان ثم استقر اخيرا في دلهي حتى وفاته سنة ١٢٣٥ م راجع : (رحلة ابن بطوطة ج٢ ص ١٩) وكذلك (Wolseley Haig: Camb Hist. of India III P. 55)

(٢) تسمى أيضا دلهي ودلي (القلقشندى : صبح الاعشى ج٥ ص ٦٨ - ٦٩) وتقع في قلب سهول نهر الكنج في مكان اهلته الطبيعية ليكون عاصمة للهند الشمالية . ومن يستعرض تاريخ الهند العام يجد أن مدينة دلهي كانت مسرحا لوقائع حربية حاسمة لاهمية موقعها الاستراتيجي . وقد زارها الرحالة الطنجي ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري (١٤ م) ووصفها بقوله : « وهى المدينة العظيمة الشأن ، الضخمة ، الجامعة بين الحسن والحصانة ، وعليها السور الذي لا يعلم له في بلاد الدنيا نظير ، وهى اعظم مدن الهند بل مدن الاسلام كلها بالشرق » . (رحلة ابن بطوطة ج٢ ص ١٦) وكذلك : (H . Dodwell : India, I , P . 25 & Ency . Britannica, art, India)

(٣) انظر (Ency. Isl. art. Aibeg)

ممالك أييه البارزين وزوج ابنته شمس الدين التتمش بمساعدة بقية
الامراء ، واستأثر بعرش دلهي لنفسه عام ١٢١٦ م .

ويعتبر التتمش المؤسس الحقيقي لدولة سلاطين الممالك التي لم
يعش أيك مدة كافية ليدعم أركانها . فينسب الى هذا السلطان تأسيس
مجلس من كبار أمراء الممالك عرف باسم « الاربعين » ، وكان الغرض
منه هو تدعيم سلطان الممالك في الهند . ومن حسنات التتمش أنه اشتد
في رد المظالم وانصاف المظلومين ، فيؤثر عنه أنه أمر أن يلبس كل مظلوم
ثوبا مصبوغا ، وأهل الهند جميعا يلبسون البياض ، فكان إذا قعد للناس
أو ركب فرأى أحدا عليه ثوب مصبوغ ، نظر في قضيته وأنصفه ممن
ظلمه (١) .

ويمتاز عصر هذا السلطان أيضا بظهور المغول وزعيمهم جنكيزخان
الذي هدد العالم الآسيوي بأجمعه . وأول نذير دل على اقتراب هذا الخطر
من الهند ، هو فرار يلدز حاكم غزنه ، بجيوشه الى داخل الهند ، أمام
ضغط الجيوش الخوارزمية المنهزمة بدورها من الجيوش المغولية .

أخذت هذه القوى الثلاث تنحدر جنوبا بسرعة عنيفة عابرة سلاسل
الجبال الشمالية الى داخل الهند . غير أن هذه العاصفة سرعان ما زالت
بنفس السرعة العظيمة التي جاءت بها ، إذ من حسن حظ الهند ان المغول
اتجهت ابصارهم نحو الغرب فترجعوا منسحبين عن الهند . أما الجيوش
الخوارزمية وقائدها جلال الدين منكبرتي آخر شاهات حوارزم ، فانهم
انسحبوا الى فارس بعد أن فشلوا في تأسيس إمارة لهم في البنجاب .

خرج التتمش من هذه المحنة أقوى مما كان ، إذ أحدثت القوات

(١) رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ٢١

المغولية والخوارزمية بقوات منافسية في الشمال أمثال يلدز وكوباشا ،
وصار من السهل عليه بعد ذلك ان يستعيد جميع ممتلكات أستاذه أيبك
في شمال الهند وأن يتخلص من منافسيه (١) .

وبلغ فوز التتمش أقصى مداه حينما اعترف به خليفة بغداد المستنصر
بالله العباسي ، سلطانا على الهند ، وبعث له بالتقليد والخلع والالوية
والبنود في أوائل سنة ١٢٢٩ م (٦٢٦ هـ) ، فأصبح التتمش بذلك أول
ملك في الهند تسلم مثل هذا التقليد . ومنذ ذلك التاريخ ضرب السلطان
التتمش نقودا فضية نقش عليها اسم الخليفة العباسي بجوار اسمه . ويعتبر
هذا العمل شيئا جديدا على نظام العملة الهندية ، اذ كان الحكام المسلمون
قبل ذلك يضربون نقودا معدنية صغيرة على غرار النقود الوطنية ، تنقش
عليها أشكال مألوفة لدى الهنود كثورسينفا مثلا ، كما كانت أسماء الفاتحين
تكتب بحروف هندية في غالب الاحيان . فالتتمش يعتبر أول من ضرب
نقودا فضية عربية خالصة في الهند (٢) .

وتوفي السلطان التتمش سنة ١٢٣٦ م (٦٣٤ هـ) ولم تكن هناك
شخصية قوية صالحة للملك من بعده سوى شخصية ابنته رضية الدين .
كانت هذه السلطانة على حظ كبير من الذكاء ، حفظت القرآن الكريم ،
وألمت بالكثير من التعاليم الاسلامية ، ولهذا فضلها أبوها على اخوتها
الذكور لانغماسهم في الملذات ونادى بها ولىة لعهد . ولما آلت اليها
السلطنة ، دلت على مقدرة عظيمة وعقل وافر وسماها مؤرخو الهند باسم

(١) قتل يلدز حاكم غزنة سنة ١٢١٦ م وغرق كوباشا حاكم السند
اثناء فراره سنة ١٢٢٨ م (ابو الفداء : المختصر في اخبار البشر ج٣
ص ١٢٢ - ١٢٣) وكذلك (F, Pareja: Islamologia' I, P. 254)

(٢) راجع (Lane-Poole : Op. cit. P. 83; Arnold: The caliphate)
P. 86; Éncy. Isl. art Iltutmish)

« ملكة دوران بلقيس جهان » ، أي فتنة العالم (١) .

جلست رضية الدين على عرش دلهى أربع سنوات تقريبا (٦٣٤ - ٦٣٨ هـ = ١٢٣٦ - ١٢٤٠ م) وقد بذلت جهدها لتظهر بمظهر الرجال ، فارتدت أزياءهم ، وخرجت أمام الناس سافرة تقود جيشها على ظهر فيلها . وعلى الرغم من الجهود العظيمة التي بذلتها هذه الملكة في ادارة شئون الدولة ، فقد اصطدمت في النهاية بمجلس أمراء المماليك أو جماعة الاربعين ، الذين كانوا قد استأثروا بالنفوذ والثروة خصوصا بعد موت التتمش ، وتقاسموا المملكة ووظائفها فيما بينهم بعد أن قضوا على جميع الاحرار في مختلف الوظائف .

وأنف هؤلاء المماليك من رؤية امرأة على العرش ولا سيما بعد أن قربت اليها رجلا فارسيا يدعى جمال الدين ياقوت ويشغل وظيفة قائد الفرسان ، فقاموا بثورة حاولت السلطانة رضية الدين قمعها بشجاعة ولكنها هزمت وانتهى الامر بقتلها في ١٣ اكتوبر سنة ١٢٤٠ م (٢) .

في هذا الوقت ظهر المغول في اقليم السند من جديد ، واستولوا على مدينة لاهور في ديسمبر سنة ١٢٣١ م وذبحوا سكانها ، وفر حاكمها

(١) انظر (E . Blochet : Histoire des Sultans Malouks par Moufazzal Ibn abil - Fazail, Vol, I P. 375 note)

(٢) راجع (Wolseley Häig : The Câmbridge History of India Vol. III P. 60 & Éncy. of Islam art. Ridiyya)

ويلاحظ ان موقف هذه السلطانة يشبه تماما موقف السلطانة شجر الدر التي حكمت مصر سنة ١٢٥٠ م والتي أثار حكمها استياء الراى العام الاسلامى ، وانتهى امرها بالقتل ايضا ، راجع : (المقرئى : السلوك جا ص ٣٦٨)

قراقوش الى دلهي ، فأصبح الموقف يستدعى ظهور شخصية قوية تقبض على زمام الحكم بيد من حديد ، وهذا مما ساعد على ظهور الامير بلبان أو بلبن أحد مماليك التتمش ، فاعتلى عرش السلطنة بعد أن تخلص من السلطان القائم فيها من أبناء سيده وتلقب بغيث الدين •

وتضيف الروايات المعاصرة أن بلبان كان ينحدر من أصل عريق ، وأن تحمسه للجهاد ضد المغول هو الذي جعله يرحل من تركستان منذ حداثة تاركا أهله وأصحابه • ثم حدث ان سرق ويبيع في الهند ، فاشتره السلطان التتمش • وتزيد الرواية أن السلطان المذكور رفض شراء بلبان في بادئ الامر لدامته وقصر قامته ، فصاح به بلبان : « ياخوند عالم ! (أي يا سيد العالم) « لمن تشتري هؤلاء المماليك الآخرين ؟ » فأجابه السلطان ضاحكا : « اشترهم لنفسي » فرد عليه بلبان : « اذن فاشترني لله عز وجل » ، فأجابه السلطان الى طلبه ، ثم سرعان ما ظهرت مواهبه فصار يتدرج في الرقي حتى اندمج في جماعة الاربعين مملوكا (١) •

اشتهر بلبان بشخصية عسكرية صارمة عادلة • وأول عمل اهتم به هو الحد من طغيان جماعة المماليك الاربعين ، فأعمل فيهم سياسة العنف والتفرقة حتى قضى على نفوذهم وسطوتهم • كذلك ضرب على أيدي المجرمين وقطاع الطرق الذين انتهزوا فرصة الاضطرابات الاخيرة وانبثوا في المسالك والطرق بين دلهي والبنغال يعيشون فسادا وتخريبا • فأزال بلبان الغابات التي كانت وكرا لتلك العصابات ، وشيد مكانها القلاع وأبراج المراقبة ، وبذلك استتب الامن وعاد الاتصال بين دلهي والبنغال لفترة طويلة من الزمان •

(١) ابن بطوطة : رحلته المعروفة بتحفة النظار ج ٢ ص ٢٣ . وكذلك (Lane - Poole : Medieval India under Moham. Rule P. 18)

كذلك عنى بلبان باقامة ادارة للمخابرات في جميع المدن المختلفة ، ويشرف عليها مخبرون من قبله يعرفون بأصحاب الاخبار أو ملوك البريده

وكان تعيين هؤلاء الاشخاص يتم تحت اشراف السلطان نفسه وبناء على اختياره الشخصي وذلك نظرا لاهمية الاعمال التي يقومون بها في كافة أرجاء الدولة ، اذ عن طريق تقاريرهم كان السلطان يلم بأحوال كل مدينة، وسياسة أولى الامر فيها . ولهذا السبب حرص بلبان على جعل سلطنتهم مستقلة عن سلطة الولاة المحليين ، وخاضعة لسلطانه المباشر . ويروى المؤرخون كيف ان بلبان أمر باعدام احد هؤلاء المخبرين لانه تستر على حادث هام وقع في المدينة المكلف بأخبارها دون أن يخطر به ذلك (١) .

وتجلت مواهب بلبان في انتصاره على قوات المغول التي اقتحمت اقليم السند عام ٦٧٨ هـ (١٢٧٩ م) فاستحق بذلك لقب « الق خان » أي الامير القوي . وترجع انتصارات بلبان على المغول الى الاستعدادات العظيمة التي قام بها هذا السلطان لدفع ذلك الخطر الداهم اذا أعد مخازن هائلة للطعام بحيث يبقى الزرع بها مدة طويلة دون أن يفسد ، ويقول ابن بطوطة في هذا الصدد : « وقد شاهدت الارز يخرج من بعض تلك المخازن

(١) راجع (Wolseley Halg : Op . cit . III P . 74) راجع كذلك رحلة ابن بطوطة ج٢ ص ٢ - ٣) حيث يتكلم ابن بطوطة عن مهمة اصحاب الاخبار خصوصا اذا قدم غريب على الهند « واذا كتب المخبرون الى السلطان بخبر من يصل الى بلاده . . . عرفوه انه ورد رجل صورته كذا ولباسه كذا وكتبوا عدد اصحابه وغلمانه وخدامه ودوابه وترتيب حاله في حركته وسكونه وجميع تصرفاته لا يفادرون من ذلك كله شيئا » . ويضيف ابن بطوطة في نفس المعنى (ص ٩) : « وفي مدينة ملتان قدم علينا ملك البريد واسمه دهنان وهو سمرقندى الاصل وهو الذي يكتب للسلطان بأخبار تلك المدينة وما يحدث بها ومن يصل اليها » .

ولونه قداسود ولكن طعمه طيب وكل ذلك من اختزان السلطان بلبن منذ تسعين سنة » . هذا وقد اهتم بلبان بتحسين الثغور الهندية وتجنيد قبائلها تحت قيادة ابن عمه شيرخان سنقر ، كما أعد جيشا قويا سريعا لصد أي هجوم خاطف يقوم به المغول فجأة - وذلك على حد قوله - حتى لا تتعرض مدينة دهلي لمصير بغداد التعس (١) .

وفقد بلبان ابنه الاكبر الشهيد محمد خان في واقعة ضد المغول في اقليم الملتان وذلك في ٩ مارس سنة ١٢٨٥ م (٦٨٤ هـ) فحزن عليه حزنا شديدا ومات بعده بستين (٢) .

يعتبر السلطان بلبان من أولئك الاشخاص الذين لا يتركون وراءهم خلفاء أقوياء ، اذ أن صرامته وقسوته حالت دون ظهور شخصيات قوية بعده ، فقد قضى على جماعة المماليك الاربعين ونفى كثيرا من ذوى النفوذ والجاه من الاحكام او العلماء (نذكر منهم شاعره أمير خسرو) . وكانت كل آماله مركزة في شخص ابنه الاكبر الذي مات في عهده . ولهذا اضطرت شئون الملكة بعد مماته مما أتاح الفرصة لقيام أسرة جديدة هي أسرة الخالجية (١) التي استولت على عرش دهلي سنة ١٢٩٠ م (٦٨٩ هـ) تحت زعامة جلال الدين فيروز شاه، وبذلك تنتهي دولة المماليك الاتراك في الهند .

قوة نفوذ الصقالبة في الغرب الاسلامي :

لم يقتصر التوسع في استخدام المماليك على الدول التي قامت بالجزء

(١) راجع : (Wolseley Haig : Op. cit. P 76 - 82)

(٢) راجع : (Wolseley Haig: Op. cit. P. 76 - 82)

(٣) أسرة افغانية نسبة لبلدة خالنج بأفغانستان ، وقيل انها تركية الاصل ثم نزلت الى افغانستان حيث أخذت عن أهلها عاداتهم وطرائقهم .
راجع (Wolseley Haig: Op . cit. III P. 76 - 82)

الشرقى من الدولة العباسية ، بل تعداه الى جميع الدول الاسلامية الاخرى
بما في ذلك المغرب والاندلس .

واذا كثرت أنواع الممالك الاثراك على عهد الصفاريين والسامانيين
والغزنويين بالمشرق ، فقد أضاف الامويون بالاندلس نوعا جديدا من
الممالك وهم الصقالبة ، الذين كان طريقهم الرئيسي يتدىء من شرق
المانيا الى ايطاليا وفرنسا ومنها الى اسبانيا الاسلامية او الاندلس عن
طريق نهر الرون وقطلونية حتى ثغر بجانة Pechina على الساحل
الشرقى الاسباني بجوار ألمرية (١) .

وكلمة صقلب esclave فرنسية قديمة ، ومعناها عبد أو رقيق ،
وهى التسمية التي أطلقها الجغرافيون العرب في العصور الوسطى على
الشعوب السلافية عامة ، لأن بعض الجرمان دأبوا على سبى تلك الشعوب
السلافية وبيع رجالها ونسائها الى عرب اسبانيا ، ولذا اطلق العرب عليهم
اسم الصقالبة (٢) . ثم توسع العرب في استعمال هذا الاسم فأطلقوه على
أرقائهم الذين جلبوهم من أية أمة مسيحية ، واستخدموهم في القصر
الخليفي . ويذكر الرحالة ابن حوقل الذي زار اسبانيا في القرن الرابع

(١) راجع كتابنا (الصقالبة في اسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعوبية
ص ٨ ، مدريد ١٩٥٣)

(٢) صقالبة جمع صقلبي ويسمون كذلك بالفتيان والخلفاء (Lévi
Provençal, L'Espagne musulmane aux Xème Siècle P. 54)

واطلق عليهم ابن حيان وابن بسام اسم « المجابيب (ابن بسام :
الذخيرة ، القسم الثالث ، ورقة ٣) واطلق عليهم كذلك اسم العلوج (ابن
عذارى : البيان المغرب ج٣ ص ١٦٢) كما ترد تسميتهم بالخرس لعجمتهم
وبالماليك (المقرئ : نفح الطيب ج١ ص ٣٢٠)

الهجرى (١٠ م) . ان الصقالبة ، كانوا يجلبون أيضا من ساحل البحر الاسود ، ومن لمبارديا وكلابريا في ايطاليا ، ومن قطلونية وجليقية (غاليسيا) في شمال اسبانيا ، وذلك فيما يبدو نتيجة لغارات القراصنة من المغاربة والاندلسيين على الشواطىء الاوروبية للبحر المتوسط (١) .

واستخدم الامويون في اسبانيا كذلك الخصيان من الصقالبة لخدمة الحريم ، واتخذ اليهود في فرنسا من تلك التجارة حرفة يربحون منها ، وصار لهم في مدينة فردان باللورين مصانع مهمة للخصاء Manufactures d'eunuques على حد قول المستشرق الهولندي دوزى (٢) . على أن احتراف تلك الصنعة لم يكن قاصرا على اليهود وحدهم - كما يقول دوزي - بل نرى أن المسلمين أنفسهم قد شاركوا في هذا المضمار ولا سيما في مناطق الثغور المتصلة بفرنسا ، يؤيد ذلك قول المقرئ « ... وقد تعلم الخصاء قوم من المسلمين هناك ، فصاروا يخصون ويستحلون المثلة » (٣) . كذلك يشير المقدسي الى أن الصقالبة كانوا يحملون الى مدينة خلف بجانة أهلها يهود فيخصونهم (٤) .

وجاء أغلب الصقالبة أطفالا الى اسبانيا الاسلامية حيث ربوا تربية اسلامية ، ودربوا على أعمال القصر ، والحرس والجيش ، واستطاع عدد كبير منهم أن يحتل مكانة عالية في المجتمع القرطبي ، فصار منهم الادباء

(١) ابن حوقل : كتاب صورة الارض ص ١١٠

(٢) انظر (R. Dozy : Histoire des musulmans d'Espagne t. II

(P. 154

(٣) المقرئ : نفع الطيب من غصن الاندلس الرطيب ج ١ ص ١٤٠

(٤) المقدسي: احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ٢٤٢ نشردى خويه

(ليدن ١٩٠٦) .

والشعراء وأصحاب المكتبات الكبيرة ، كما استطاع بعضهم أن يكون ثروات طائلة ، ويمتلك العبيد والأراضي الشاسعة . ومن بين الصقالبة الذين وصلوا الى مناصب الرئاسة في الدولة : الدرر الرئيس الاعلى للشرطة ، وأفلح صاحب الخيل سنة ٣١٠ هـ (٩٢٢ م) ، وقند الذي حكم طليطلة سنة ٣٣٦ هـ (٩٤٧ م) ، وطرفة صاحب المطبخ ، وخلف النقي الكبير (١) الذي عين مدير الطراز سنة ٣١٣ هـ (٩٢٥ م) (٢) . ويروى ابن حزم ان المشرف على مكتبة الخليفة الحكم المستنصر الشهيرة ، كان صقلبيا يدعى تليد الخصى (٣) ، وهذا اعتراف واضح على علو شأن هؤلاء الصقالبة وطول باعهم في العلوم والآداب .

وان كانت ثمة حاجة للتدليل على أن الصقالبة من المماليك ، فان أسماءهم التي ذكرناها من قبل تدل على ذلك ، اذ المعروف أن العرب يسمون مماليتهم بأمثال تلك الاسماء ، كما أنه عرف عن المماليك بصفة عامة أنهم يتشكبون التسمية بأسماء الرسل والصحابة ويفضلون الاسماء التركية (٤) .

هذا ، ومن المعروف أن الامويين في الأندلس استخدموا مماليتهم

(١) من الوظائف الرئيسية في القصور والتي كان يشغلها الصقالبة ، وظيفة الفتيين الكبيرين وهما رئيسا الحرس في القصر والمسئولان أمام الخليفة عن النظام العام في القصر ، وكانا يقتسمان رئاسة الحرس الخاص بالامير . راجع (المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٣٦٤) وكذلك (Lévi Provençal : L'Espagne aux Xeme Siècle P. 54)

(٢) انظر (Lévi Provençal : Op. cit. P. 105)

(٣) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٣٦٢ ، ٣٧١ .

(٤) راجع (Poliak : Le dialecte des mamelouks, Revue des Etudes Islâmiques, Cahier III, 1935)

من الصقلية في الادارة والجيش للحد من نفوذ الارستقراطية العربية في الحكم ، واضعاف سيطرة الجند العرب والبربر ، ومثال ذلك تقليد عبد الرحمن الناصر لمملوكه « نجدة » الصقلبي قيادة الحملة الموجهة ضد راميرو الثاني Ramiro II ملك ليون وحلفائه أصحاب ملكة نافارا Navarra ، وهي الحملة التي انتهت بهزيمة المسلمين في وقعة شمنقة Simaneas والخندق Alhandega عام ٣٢٧ هـ (٩٣٩ م) . ويقال ان سبب تلك الهزيمة هو تغير نفوس العرب لتقديم الصقلية عليهم ، اذ أقسموا أن يتركوا الصقلية وحدهم عند نشوب المعركة ، فأدى ذلك الى الهزيمة وقتل القائد « نجدة » ، وفرار عبد الرحمن الثالث بأقل من خمسين فارسا بعد أن نجا بأعجوبة . ويقول صاحب كتاب أخبار مجرعة ان عبد الرحمن الثالث « لم تكن له بعدها غزوة بنفسه » (١) وفي عهد الخليفة الحكم المستنصر قام الصقلية بدور مشابه لدورهم على عهد والده من حيث النفوذ والعظمة (٢) . وعند وفاته ظن الصقلية أنهم أصبحوا سادة الموقف ، ويذكر ابن عذارى ان قصر الحكم الثاني اشتمل على ما يزيد عن الالف خصي ، وأن جيش قرطبة تكون معظمه من الصقلية ، وأن قيادته كانت في يد اثنين من كبار الصقلية وهما : فائق ويقول ابن الابار ان جؤذر كان عالما أديبا يتحقق وجؤذر الحكمي (٣) .
 يعلم العربية والتدقيق لمعانيها (٤) .

(١) أخبار مجموعة مؤلف مجهول ص ١٥٥ - ١٥٦ حيث يرد ان الخليفة عبد الرحمن الناصر سماها غزاة القدرة لاحتفاله بها قبل خروجها احتفالا عظيما .

(٢) المقرئ : نفع الطيب ج١ ص ٣٦٣ ، راجع كذلك وصف الهدية التي قدمها الفتى دري الصقلبي للحكم المستنصر في (ابن حيان : المقتبس في أخبار ملك الاندلس ص ١٠٦ نشر عبد الرحمن حجي .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب في أخبار المغرب ج٢ ص ٢٧٧

(٤) ابن الابار : كتاب التكملة لكتاب الصلة ص ١٠ ، ترجمة رقم ١٧ .

وقد حاول فائق وجؤذر اخفاء خبر موت الحكم الثاني ليحولاً دور
المناداة بورثته للملك ، هشام ، لانه طفل صغير ، وحاولاً ترشيح شاب
كامل الرجولة اسمه المغيرة ، من أحفاد عبد الرحمن الثالث ولكنها وجداً
من يقاومهما في أشخاص الوزراء امثال جعفر بن عثمان المصطفى ،
والمصور بن أبي عامر . وقد استطاع هذا الاخير ان يدبر اغتيال المغيرة
مرشح الحزب الصقلبي ، وبذلك خلا الجو لهشام بن الحكم المستنصر
الذي لقب بهشام المؤيد . واستطاع المنصور بعد ذلك أن يشتت شمل
هؤلاء الصقلابة من القصر الخلافي (١) ، وأن يولى صقلابة غيرهم من
مماليكه عرفوا باسم الفتيان او المماليك العامرية (٢) . وقد وصف
ابن بسام أحد هؤلاء الفتيان وصفاً طريفاً بقوله :

« وكان لابن أبي عامر فتى يسمى فاتنا أوحداً لا نظير له في علم كلام
العرب وكل ما يتعلق بالادب ، ناظر صاعداً (٣) بين يديه ، فظهر عليه ،
وبكته حتى أسكته ، فازداد المنصور به عجباً . وكان فاتن حسن الخط
واسع المعرفة ، فصيح اللسان حاضر الجواب الى عفاف طعمة ونزاهة
نفس وجمال صورة . وكان ممن تباهى الملوك بخدمته ، وتستريح الى
حلمه . وتوفي هذا الفتى فاتن سنة ٤٠٢ هـ (١٠١١ م) ، ويبتع في تركته
قطعة دفاتر أدبية حسنة الضبط دلت على جودة عنايته ، وكان منقاداً لما
نزل به من المثلة ، فلم يتخذ النساء ولا كسفن له عورة . وكان في ذلك
الزمان بقرطبة جملة من الفتيان المجاييب ممن أخذ من الادب بأوفر

(١) ابن بسام : الدخيرة في محاسن اهل الجزيرة ج١ ق٤ ص ٤٤

(٢) ابن الخطيب : كتاب أعمال الاعلام (الخاص بالاندلس)

ص ٢٤٢ ، ٢٦٠

(٣) هو الاديب اللغوي أبو العلاء صاعد بن الحسن البغدادي . راجع

ترجمته في (ابن بسام : نفس المرجع ص ٢ - ٢٢)

• نصيب « (١) »

ويضيف ابن الأبار ان أحد الصقالبة واسمه حبيب ، ويتصف بالفهم والتيقظ ، ألف زمن هشام الثاني (المؤيد) كتابا تعصب فيه لقومه وعنوانه : « الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضائل الصقالبة » (٢) .
وقد ذكر ابن بسام في ذخيرته أنه اطلع على هذا الكتاب ، وأنه يحتوى على جملة من أشعار الصقالبة ونوادير أخبارهم ، منهم عمارة الصقلبي الفتى الكبير ، والصقلبي ميسور ، ونجم الوصيف . ويلاحظ أن ابن بسام قد أضرب عن ذكر تلك النوادر والأشعار معتذرا بقوله : « وشعرهم خارج عن شرطنا وليس من جمعنا » (٣) . وهذا نقص يؤسف له . ومن العجيب ان هذه العبارة تذكرنا بعبارة اخرى مماثلة لابن بسام وفي نفس كتابه ، حينما اثار الى الموشحات بقوله : « وأوزان هذه الموشحات خارجة عن غرض هذا الديوان ، اذ أكثرها على غير أعاريض أشعار العرب » (٤) .

ويدفعنا تجاهل ابن بسام لهذه الأشعار الى التفكير في أحد أمرين :
اما ان اشعار الصقالبة كانت من النوع الشعبي ، على شاكلة الموشحات ، خصوصا وأنه قد عرف عنهم تذوقهم لهذا النوع من أوزان أهل الأندلس ، ولا سيما موشحات الشاعر عبادة بن ماء السماء الذي مدحهم في كثير من شعره (٥) ، ويؤيد هذا أيضا ما قاله المستشرق الأسباني

(١) ابن بسام : الذخيرة ج١ ق٤ ص ٢٢

(٢) ابن الأبار : التكملة ج١ ص ٣٢ (مادة رقم ٨٩) حيث يصف

حبيب الصقلبي بأنه كان من أهل الأدب والاتصاف بالفهم والتيقظ .

(٣) ابن بسام : كتاب الذخيرة ج١ ق٤ ص ٢٢

(٤) ابن بسام : نفس المرجع السابق ج٢ ق١ ص ٢

(٥) ابن بسام : المرجع السابق ج١ ق٢ ص ١ - ١٧ وكذلك

(Julián Ribera: Épicà Andaluza Romànceada, en Disertaciones, y Opusculos P. 137 nota 2 tomo I)

خوليان ريبيره من أن عددا كبيرا من الصقالبة وهم الواردون من جليقية ، كانوا يجيدون لغة الرومانس Romance وهي اللغة الاسبانية الشعبية الدارجة التي كانت سائدة بين المسلمين والمسيحيين في الاندلس ، والتي كان من أثر اندماجها باللغة العربية أن ظهر ذلك الفن الشعبي المعروف بالموشحات زالازجال (١) .

واما أنها كانت أشعارا كلاسيكية من نوع الفخر على العنصر العربي، بحكم كون مؤلفيها ليسوا بعرب . وهذا مما دعا ابن بسام الى تجاهل شعرهم . وأغلب الظن ان الرأي الثاني هو الأرجح ، وذلك لسببين :

السبب الأول : أن ابن بسام كان متعصبا للمدرسة العربية الارستقراطية التي ظهرت في أوائل القرن الخامس الهجري (١١ م) والتي كان يمثلها الشاعر ابو عامر بن شهيد ، والمؤرخ أبو مروان بن حيان ، والفقهاء أبو محمد بن حزم (٢) . فنجد ابن بسام يفردهم التراجم الطوال ويحفظ لنا الشيء الكثير من كتبهم الضائعة مثل كتاب المتين لابن حيان (٣) ، ورسالة التوايع والزوايع لابن شهيد (٤) .

والسبب الثاني : هو عنوان كتاب حبيب الصقلبي نفسه الذي يظهر لنا بوضوح نزعة المؤلف في اظهار فضائل الصقالبة على الادب والشعر

(١) J Ribera: El Cancionero de Abencuzman, en Op. cit. I,)

P 21)

(٢) راجع (E. García Gomez: El Collar de la Paloma de Ibn)

Hazm, (la introduccion) P 6 - 9)

(٣) انظر ، E. García Gomez : A proposito de Ibn Hāyyān ,

Al Andalus 1946 P. 395

(٤) ابن بسام : الذخيرة ج ١ ق ١ ص ٢١٠

العربي ، وتفوقهم على العنصر العربي في هذا المضمار ، وهذا مما دفع بالمستشرق الألماني جولدزيهر الى اعتبار هذا الكتاب « البداية الادبية الاولى نحو الشعوبية في اسبانيا » (١) .

والى جانب هذا الامتياز الادبي ، اختص الصقالبة بألوان من الالحن والرقصات التي نسبت اليهم ، فقبل اللحن الصقلبي ورقص الصقالبة . وقد اعطانا المؤرخ المعاصر ابو بكر الطرطوشي وصفا جميلا لهذه الرقصات يذكرنا بالرقص الاسباني في وقتنا الحاضر ، اذ يقول :

« ثم جعلوا لكل لحن منها اسما مخترعا فقالوا اللحن الصقلبي . فاذا قرؤوا قوله تعالى : « واذا قيل ان وعد الله حق » ، يرقصون في هذه الآيه كرقص الصقالبة بأرجلها وفيها الخلاخيل (أو الجلاجيل) ويصفقون بأيديهم على ايقاع الارجل ، ويرخفون الاصوات بما يشبه تصفيق الايدي ورقص الارجل ، كل ذلك على نغمات متوازنة » (٢) .

على أن هذا الامتياز الادبي والفنى لم يمنع من أن الصقالبة أثناء اختصار الخلافة الاموية بالاندلس ، لعبوا دورا سيئا بوجه عام ، فشاركوا في المؤامرات التي قامت في قرطبة وسائر البلاد ، فأحيانا نراهم منتصرين ، وأحيانا أخرى منهزمين ، ولكنهم كانوا يظهرن دائما روح الاقدام والطموح والاستبداد . وتزعمهم الخصى خيران العامرى رئيس حزب

(١) راجع Goldziher Ignáz: Die Suubijzja unter der Muham-
medanern ie Spanien, Z. D. M. G. 1899, P. 604

(٢) راجع (ابو بكر الطرطوشي) ت. ٥٢٠ - ٥٢٥ هـ) كتاب الحوادث
والبدع ص ٧٨ تحقيق محمد الطالبى (تونس ١٩٥٩)

الصقلية في العاصمة قرطبة ، ومن هذا الحزب تكونت الدويلات الصقلية
في شرق الاندلس :

في طرطوشة ، والمرية ، ومرسية ، ودانية ، وبلنسية ، في عصر ملوك
الطوائف في القرن الخامس الهجرى (١١ م) (١) .

وكانت هذه الدويلات تجمعها رابطة تحالف، وتسمى بالدولة العامرية
الصقلية ، لان أصحابها من المماليك العامريين . وقد امتد سلطان هؤلاء
الصقلية على الشاطئ الشرقي الممتد من نهر ابرو حتى نهر المرية والجزائر
الشرقية (البليار) (٢) .

ففي مدينة ألمرية Almeria نسمع عن خيران الصقلبي السالف
الذكر الذي استقل بها سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) ، وانضم اليه فتيان
المنصور بن ابي عامر ، فحولهم وخصيانهم ، وكان خيران يدعى بالخليفة
وبالفتى الكبير . وقد ازدهرت في عهده العمارة والصناعة ونظام الري ،
ومدحه الشاعر الاندلسي أبو عمر أحمد بن دراج القسطلي سنة ٤٠٧ هـ
بالقصيدة التي مطلعها :

(١) تنبغي الإشارة هنا الى أن بعض ملوك الطوائف أمثال بنى حمود
الادارسة في مالقه ، استخدموا أيضا الصقلية في قصورهم تشبها بخلفاء
قرطبة ، ونذكر على سبيل المثال أبا الحسن على بن حمود الذي انتهت
حياته على ايديهم اذ قتله ثلاثة من صقلبته في الحمام سنة ٤٠٨ هـ
(١٠١٧ م) . راجع (ابن الخطيب : الاحاطة في أخبار غرناطة ورقة ٢٩١ -
٢٩٢ (نسخة الاسكوريال) .

(٢) يوسف أشباح : تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ج١
ص ٤٦ ترجمة عبدالله عنان .

وكذلك (Lévi Provençal: L'Espagne musulmane aux Xeme
Siècle, P. 30

لك. الخير قد أوفى بعهدك خيران وبشراك قد آواك عز وسلطان^(١) .

ولما توفي خيران سنة ٤١٩ هـ (١٠٢٨ م) خلفه أخوه زهير العامري (١٩ هـ - ٤٢٩ هـ = ١٠٢٨ - ١٠٣٨ م) وقد وصفه ابن حيان بأنه كان « . . . فاضلا شهما داهية شديد المذهب مؤثرا للاناة على الهمة ، وله بالمرية آثار جميلة ، وهو الذي بنى المسجد الجامع بها وزاد فيه الزيادات الثلاث ما سوى القبلة ، وكان يشاور الفقهاء^(٢) ويعمل بقولهم ، وامتدت أطناب مملكته من المرية الى قرطبة ونواحيها والى شاطبة وما يليها الى بياسة الى الفج من أول طليطلة »^(٣) .

وتلقب زهير بلقب عميد الدولة^(٤) ، وكان وزيره ابو جعفر بن عباس من أشهر شخصيات ذلك العصر ، وقد قالوا في هذا الوزير انه اختص بأربعة أشياء : الاسلوب والثروة والبخل والكبرياء . وقد أفسد كبرياء ابن عباس العلاقات بين زهير وبين باديس بن حبوس الصنهاجي صاحب غرناطة ، فقامت حروب بينهما انتهت بمصرع زهير ووزيره^(٥) ، وضمت المرية في النهاية الى عبد العزيز بن ابي عامر صاحب بلنسية .

(١) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ٢٤٣ - ٢٤٤ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٣ ص ١٦٦

(٢) انظر دعابته مع قاضي المرية الفقيه ابي الحسن مختار الرعيني ، في (المقرئ : نفع الطيب ج ٣ ص ١٦٦ - ١٦٧)

(٣) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ٢٤٨ ، الاحاطة في اخبار غرناطة ج ١ ص ٣٣٧ - ٣٣٩

(٤) راجع Antonio Prieto Vives : Los Reyes de Taifas P. 34

Gonzalez Palencia:Historia de la España Musulmana P. 72(٥)

وفي مدينة طرطوشة Tortosa تكونت امارة صقلية (٤٢٧ - ٤٥٣ هـ = ١٠٣٥ - ١٠٦١ م) حكمها على التوالي ثلاثة من القتيبان العامرية وهم :

نبيل أو لبيب (١) ، ومقاتل ، ويعلى . واختلفت المصادر في حكم نبيل فبعضها يشير الى أنه حكم قبل مقاتل ، والبعض الآخر يذكره بعد يعلى ، ويرجع الاستاذ Antonio Prieto بناء على دراساته لنقود تلك الفترة ، ان نبيل حكم مرتين وان كلا الرأيين صحيح (٢) . وكيفما كان الامر فقد انتهى امر هذه الامارة الصقلية بانضمامها الى ملك بنى هود في سرقسطة أيام عماد الدولة احمد بن المستعين سنة ٤٥٣ هـ (١٠٦١ م) .

أما مدينة بلنسية Valencia ، فقد استقل بها القائدان الصقليان مبارك ومظفر العامريان (٤٠٧ هـ = ١٠١٦ م) . ويروى ابن حيان أنه كان بين هذين الصقليين ألفة وأخوة ومحبة صادقة ، نزلا معا بقصر الامارة مختلطين تجمعهما في أكثر أوقاتها مائدة واحدة ، ولا يتميز أحدهما عن الآخر في عظيم ما يستعملانه من كسوة وحلية وفرش ومركوب . . . الخ ، ولا ينفردان الا في الحرم خاصة ، على أن جماعة حرهما كن مختلطات في منازل القصر ومستويات في سائر الامر (٢) . وكان التقدم لمبارك في المخاطبات الرسمية لفضل صرامة ونكراء كاتنا فيه يقصر فيهما مظفر بدمائة

(١) تطلق عليه المصادر العربية اسم لبيب (ابن عذارى : البيان المغرب ج٣ ص ٢٦٣) بينما نقش اسمه على النقود على شكل نبيل . . راجع Antonio Prieto Vives: Op' cit' P. 37 nota 2

(٢) ارجع Antonio Prietà y Vives : Op' cit P. 38 -39

(٣) جرت عادة بعض زعماء الصقالبة ان يتخذوا الحرير رغم كونهم خصيان .

خلقه وانحطاطه لصاحبه في سائر أمره على تحليه بكتابة ساذجة وفروسية، فليغا الغاية من اقتناء فاخر الاسلحة والآلات الملوكية ، والخيل المقربات ونفائس الحلى والحل . . . هذا وقد أشادا البناء والقصور ، وحصنا بلنسية بسور أحاط بمدينتها تحت ابواب حصينة ، فارتفع عنها الطمع ، وأقبل الناس اليها من كل قطر بالاموال ، وطمحت لسكناها الآمال . واستوطنها جملة من أهل قرطبة المضطربة ، فألقوا بها عصى التسيار ، فبنوا المنازل والقصور ، واتخذوا البساتين الزاهرة ، والرياض الناضرة ، وأجروا خلالها المياه المتدفقة (١) .

وقد أحاط بهذين الاميرين طائفة من العلماء والادباء والشعراء أمثال التاكرنى ، وابن المهلب ، وابن طالوت ، ومدحهما الشاعر ابن دراج القسطلى بقصيدة مطلعها : —

أنورك أم أوقدت بالليل نورك لباغ قراك أم لباغ جوارك (٢) .

ويشير ابن حيان الى أن هذا الثراء الفاحش كان يقابله فقر مدقع من جانب أكثر الرعية وذلك من كثرة الضرائب ، حتى غدا كثيرا منهم يلبسون الجلود والحصر ، ويأكلون البقل والحشيش ، وفر أكثرهم من قراهم (٣) .

(١) ابن بسام : كتاب الدخيرة ، القسم الثالث ، ورقة ٣ (مخطوط الاكاديمية التاريخية الملكية بمديرية رقم ١٢) ، ابن عذارى : البيان المغرب ج٣ ص ١٥٩ - ١٦١ .

(٢) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ٢٥٦ - ٢٥٨

(٣) ابن بسام : المرجع السابق ورقة ٤٤٣ ، ابن عذارى : المرجع السابق ص ١٦٢

ويقال ان الاهالى اعترضوا مباركا يوما وهو خارج من قصر بلنسية، يشتكون من الضرائب التي فرضها عليهم ، فقال « اللهم ان كنت لا أريد انفاقه فيما يعم المسلمين نفعه ، فلا تؤخر عقوبتي يومى هذا ، وركب اثر ذلك ، فلما اتى القنطرة ، تعثر فرسه فسقط مبارك وسقط الفرس فوقه ففاضت روحه . وقد ثارت العامة بعد ذلك ، وقتلوا زميله مظفرا واتهبوا قصرهما (١) . واستطاع نبيل الصقلبي صاحب طرطوشة أن يضم بلنسية الى ملكه ، ولكن اهلاالى ثاروا عليه وقتلوه لميله الى صاحب برشلونة Conde de Barcelonà . واتتهز عبد العزيز بن ابى عامر هذه الفرصة واحتل بلنسية سنة ٤١٢ هـ (١٠٢١ م) (٢) .

اما مدينة دانية Denia فقد استقل بها سنة ٤٠٠ هـ (١٠١٠ م) قائد صقلبي مشهور هو أبو الجيش مجاهد العامرى . ومجاهد هذا من أولئك الافراد القلائل الذين يمتازون بارادة قوية ، وذهن متقد حاضر ، وأفق علمى واسع ، وتطلع شديد الى المجد والسلطان . وقد أعطانا ابن حيان صورة واضحة لحياة هذا الرجل العلمية فقال : « كان أبو الجيش مجاهد يبين سائر الملوك في زمانه بخلال من الفضل ، من أشفها العلم والمعرفة ، اللذان لم يكن في الاحرار ولا في الموالى أثبت قدما منه فيهما . . . ولا سيما علم العربية ، فانه تحقق به الى ما يتصرف من علم القرآن : قراءته ومعانيه وغريبه وتفسيره ، وقد عنى بطلب ذلك من صباه وابتداء حاله الى اكنهاله ، ولم يشغله عن التزويد عظيم ما مرسه في الحروب برا وبحرا حتى صار في المعرفة نسيج وحده . وجمع من دفاتر العلوم خزائن

(١) ابن بسام : نفس المرجع ورقة ٤ ، ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ٢٥٩
(٢) ابن بسام : نفس المرجع ورقة ٤ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج٣ ص ١٦٣ ، وكذلك Antonio Prieto, Vives Op* cit. P. 37, 164

جمة ، وأتت اليه العلماء من كل صقع ، فاجتمع بفنائمه جملة من مشيختهم ومشهور طبقاتهم كأبي عمرو المقرئ ، وابن عبد البر ، وابن سيده ، فشاع العلم في حضرته حتى فشا في جواريه (١) وغلماؤه ، فكان له من المصنفين عدة يقومون على قراءة القرآن ويشاركون في فنون من العلم ، يجمعونه بها ويشرفون دولته . ومنها التقدم في الفروسية والحدق بمعانيها ، فلم يك في ملوك الزمان فارس يعادله شكلا ولباقة ورواء وهيبة وحسن عمل في السلاح وتقليبا له ، الى حدق بأبواب الثقافة والرماية وتدقيق لمعانيها ، فلا يضم من الفرسان الا الابطال الشجعان . ثم أكثر من التخليط في ذات أمره ، فطورا ناسك متبرئ من الباطل كله ، منقطع الى الجد وأهله ، لا يستريح الا الى جزء يقرؤه ودفتر يطالعه او علم يذاكره ، وقارة لا يأنس بشيء من الجد ولا يعرف غير البطالة واللهو . وكان مذهبه في الجود قصدا ، لم ينهك فيه فيعزى اليه ، ولا كر عنه فيوصف بضده ، فأعطى وحرّم ، وجاد وبخل ، ووضع الاشياء مواضعها فكانه نجا من عهدة الذم . وكان مع أدبه وعلمه أزهد الامراء في الشعر ، وأنكرهم على منشده ، لا يزال يتعقبه بنقده ، كاشفا له عن لفظة أو شبهة أو سرقة أو لحالة ، فأقصر الشعراء عن مدحه (٢) .

ويروى الشنقدي في رسالته أن أبا غالب اللغوي ألف كتابا ، فبذل له مجاهد العامري ألف دينار ومركوبا وكسي ، وطلب منه ان يزيد أنه

(١) نذكر منهن العبادية جارية المعتضد بن عباد باشيلية التي أهداها اليه مجاهد من دانية والتي كانت اديبة كاتبة شاعرة ذاكرة لكثير من اللغة .
راجع (المقرئ : نفع الطيب ج ٦ ص ١٩ ، ٢٠)

(٢) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الثالث ، ورقة ٥ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٣ ص ١٥٥ - ١٥٦ ، ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ٢٥٠ - ٢٥٣

ألفه لابي الجيش مجاهد ، فلم يقبل ذلك ابو غالب قائلا : « كتاب ألفتك لينتفع به الناس وأخلد فيه همتي ، أجعل في صدره اسم غيري وأصرف الفخر له !؟ » ، لا أفعل ذلك » . فلما بلغ هذا مجاهدا استحسن أنفثه وهمته وضاعف له العطاء ، وقال : هو في حل من أن يذكرني فيه ، لا نصده عن غرضه (١) . ويضيف الضبي أن مجاهدا ألف كتابا في العروض يدل على قوته فيه ، ويذكر أيضا أن أبا العلاء صاعدا اللغوي زاره في بلاطه ومدحه بالقصيدة التي آخرها :

مجاهد رخت ابا الشَّموس فأصبح ما لم يكن يصحب (٢) .

ولقد اجتمعت في مجاهد أيضا صفات سياسية وحرية لا تقل عن صفاته العلمية ، ويظهر ذلك في محاولته احياء الخلافة الاموية بمقر ملكه بدائية ، ليقيلها من عثرتها التي لحقتها بقرطبة ، وليجعل لنفسه شيئا من الزعامة والنفوذ الادبي كما يجعل من دولته الناشئة دولة شرعية يجب المحافظة عليها ، فنراه يبايع بالخلافة شريفا قرشيا قرطبيا يمت بصلة قرابة للأمويين ، وهو الفقيه ابو عبدالله بن الوليد المعيطي (٣) ، وسماه المنتصر

(١) المقرئ : نوح الطيب ج٤ ص ١٨٠ ، الحميري : الروض المعطار ص ١٨٢ .

(٢) الضبي : كتاب بغية الملتمس في تاريخ اهل الاندلس ص ٤٥٩ رقم ١٣٧٩ .

(٣) يروي الكندي (كتاب الولاة ص ١٠٠) انه بعد سقوط الدولة الاموية في المشرق سنة ١٣٢ هـ فر من مصر بعض الامويين على ارجلهم الى الاندلس منهم عمرو بن محمد بن عمارة المعيطي . كذلك اورد الحميدى ترجمة لابي مروان القرشي المعيطي في كتابه جسدوة المقتبس ص ٤٠٢ رقم ٩٥٤ . راجع كذلك (Roque Chapas : Mochahid hijo de Yusuf y Ali hijo de Mochahid , en Homenaje a F. Codera P. 416)

بالله ، وأثبت اسمه في سكتته وأعلامه وذلك في جمادى الثاني سنة ٤٠٥ هـ
(ديسمبر ١٠١٤ م) (١) .

كذلك اهتم هذا الامير بتقوية اسطوله وتشييد حصونه وقلاعه التي
ما زالت اطلالها باقية الى اليوم . ولا شك ان الموقع الجغرافي الممتاز
لمدينة دانيه على ساحل البحر المتوسط جنوبي بلنسية ، كان له اثر كبير في
هذا الاهتمام . كذلك يلاحظ ان مدينة دانية كانت محاطة بغابات كثيفة من
شجر الصنوبر الذي تصنع منه السفن فكان هذا الخشب يقطع ويلقى
في مياه الانهار المجاورة مثل نهر شقر Jucar ويحمل الى دانية التي كانت
تضم دار صناعة ضخمة (ترسانة) لصناعة السفن الكبيرة (٢) . ولهذا
كانت دانية مثل المرية قاعدة هامة للاسطول الاندلسي منذ أيام الامويين .
ولقد استغل الامير مجاهد هذا الموقع الاستراتيجي الهام في أعماله
التوسعية وغزواته البحرية على سواحل فرنسا وايطاليا وقطلونية (٣) .
وبدأ مجاهد هذه الاعمال بضم الجزر الشرقية (البليار) الى أملاكه في
رمضان سنة ٤٠٥ هـ (مارس سنة ١٠١٥ م) . ومن قواعد هذه الجزر
أطلق أسطوله للغزو في غرب البحر المتوسط .

ففى ربيع لاول سنة ٤٠٦ هـ (سبتمبر ١٠١٥ م) أي بعد خمسة

(١) نقش على السكة العبارة الآتية : « الامير عبدالله أمير المؤمنين -
مجاهد » . ودار السكة التي ضربت فيها تلك العملة كتبت باسم (الوطه)
ويرجح أنها والوطه التي ذكرها الجغرافي القزويني على انها مدينة هامة في
جزيرة ميورقة . راجع (Codera : Mochehid conquistador de)
Cerdana-Centenario della nascita di Michele Amari, vol. II P. 123,
Palermo 1910)

(٢) الحميري : الروض الممطار ص ١٠٢ والترجمة ص ٩٥

(٣) ارشيبالد لويس : القوي البحرية والتجارية ص ٣١٣ - ٣١٤

أشهر من احتلاله لجزر البليار ، أبحر مجاهد في أسطول كبير مكون من مائة وعشرين مركبا عليها ألف فارس ، متجها نحو جزيرة سردانية مصطحبا معه زوجته المسيحية جود ، وابنه الأكبر عليا وبعض بناته . واستطاع مجاهد أن يحتل جزءا كبيرا من هذه الجزيرة ، وأن يهزم ويقتل قائدا من قوادها يدعى مالوتو ، وأن يفرض الجزية على بعض حكامها ، ويأسر عددا كبيرا من أهلها . وفي ذلك يقول ابن حيان : « وكسد في زمانه السبي وبخست فيه الاثمان . وقد ساعدته الاموال التي غنمها في اختطاط مدينة واسعة شرع في بنائها هناك ، وانتقل اليها بأهله وولده » (١) .

وواضح أن مجاهدا أراد ان يجعل من سردانية رأس جسر يهاجم منه الاماكن التي تليها وهي السواحل الايطالية الغربية . اذ انه قام بعد ذلك بغزو مدينة لوني Luni الايطالية ، واتخذها قاعدة حربية لمهاجمة ما حولها من المناطق الساحلية . وتقع هذه المدينة على ساحل البحر التيراني بين بيزا وجنوة على خليج سبيزيا Spezia في اقليم اتورويا Etruria . وقد امتازت بمركزها التجاري الهام في هذه المنطقة .

ويروى المؤرخ الفرنسي لويس ماس لاترى ان احتلال مجاهد لمدينة لوني ، كان يفرض عليه المرور في مضيق بونيفاتشو Bonifacio الذي يفصل بين سردانية وكورسيكا ، ولهذا رجح ان يكون مجاهد قد احتل ايضا الساحل الجنوبي لجزيرة كورسيكا كى يضمن سيطرته على هذا

(١) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ١٩ ٢٠ ، وكذلك (Codera : Mochehid conquistador de Cerdana , Centenario della nascita di Michele Amari, vol. II P. 115 - 133 (Palermo 1910)

الممر البحري الذي يفصل بينه وبين الشواطئ الإيطالية (١) .

كذلك يشير المؤرخون الى ان غزوات مجاهد لم تقتصر على ساحل ايطاليا الشمالي الغربي ، بل شملت ايضا ساحل اربونة Narbonne الفرنسي ، وساحل برشلونة الاسباني . وكل هذا يدل على أن مجاهدا أراد أن يستعيد نفوذ الاندلسيين في هذه المناطق الساحلية الإيطالية والفرنسية بعد أن انسحبوا منها منذ عهد قريب ، وفقدوا أهم معقل لهم هناك وهو حصن فراكسنتيم Fraxinetum (٢) . غير أنه يؤخذ على مجاهد في هذا الصدد ، أنه لم يقدر ظروف الزمان والمكان عندما قام بهذه المغامرة الغير مأمونة العواقب . ذلك لان الاوضاع الحربية في غربي حوض البحر المتوسط كانت قد تغيرت عما كانت عليه في القرن الرابع الهجري (١٠م) أيام الامويين ، اذ طرأ عليها عامل جديد وهو ظهور بيزا وجنوة وساحل ايطاليا الشمالي الغربي كقوى بحرية ضاربة في البحر منذ بداية القرن الخامس الهجري (١١م) . هذا الى جانب ان أهالي وحكام

(١) انظر (Mas Latrie: Traité de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chrétiens avec les arabes de l'Afrique Septentrionale au moyen age p. 8 (Paris 1866)

وكذلك (كليكي سارنلي : مجاهد العامري قائد الاسطول العربي في غربي البحر المتوسط ص ١٩٨ - ١٩٩)

(٢) هذا الاسم فراكسنتيم اطلقه الكتاب الاوربيون القدماء على معقل اسلامي أسسه المجاهدون الاندلسيون على قمة جبل في خليج سانتروبيز Saint Tropez سنة ٢٧٥ هـ (٨٨٨ م) . وقد اندرس هذا الاسم الآن ، واغلب الظن انه كان في نفس المكان الذي عليه الان قرية جارد فرينه Gard Freine . ويمتاز هذا الموقع المرتفع بانه كان يتحكم في ممرات جبال الالب الموصلة بين ايطاليا وفرنسا ، ويهدد المدن الساحلية الفرنسية والاطالية في هذه المنطقة . راجع كتابنا (دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ص ٣٦٩ وما بعدها) .

تلك المنطقة لم ينسوا ما فعله قراصنة الاندلسيين في بلادهم خلال السنوات الطويلة الماضية ، فأقبلوا على الملاحه اقبالا جديا . ويذهب بعض المؤرخين الى أن تخليص حصن فراكسنتيم من قبضة الاندلسيين سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) على يد وليام حاكم بروفانس ، ربما كان العامل الحاسم في اقبال اهالي تلك المناطق على ركوب البحر (١) .

وكيفما كان الامر ، فان الحملات البحرية التي قام بها مجاهد الصقلي في البحر المتوسط ، قد أفرغت حكام غرب أوروبا ، ودفعتهم الى التكتل ضده بزعامه البابا بندتو الثامن BenedettöVIII ولم تلبث أساطيل بيزا وجنوة وبرشلونة وفرنسا ، ان اتحدت لمحاربتة ، وفي ذلك يقول المؤرخ القرطبي المعاصر ابن حيان :

« وتداعى عليه ملوك الارض الكبيرة واستجاشوا ، وبلغه من أمرهم ما لا يطقه ، فعزم على التحول الى محله ، والقول الى دار ملكة بدانية وميورقة ، فأعجله العدو عن ذلك ، وقطع به فكانت عليه وقية شنيعة وظهور ما سمع بمثله ، فقتل من أصحابه وجنوده عالم لا يحصى ، وملكوا أسطوله واستنقذوه واستولوا على حريمه وفيهن نساؤه وبناته ، وعلى ولده ، وجود أمه النصرانية ، ولم يخلص من اسطوله أجمعه الا خمسة مراكب وأربعة قوارب ، وكانت شحنة الاسطول المفلول من سبى سردانية يوم ظهور العدو عليه ثمانية آلاف فارس (٢) . ويضيف الضبي أن خلافا شديدا وقع بين مجاهد وجنوده أدى الى هذه الكارثة ، كما يشير الى عاصفة شديدة جعلت تقذف بمراكب المسلمين الى الساحل ، والروم

(١) ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٣١٤

(٢) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ١٩ - ٢٢٠

وقوف لا شغل لهم الا الاسر والقتل للمسلمين ، فكلما سقط مركب بين أيديهم ، جعل مجاهد ييكي بأعلا صوته عاجزا عن انقاذه • ثم نجا مجاهد بأعجوبة عائدا الى الجزائر الاندلسية التي كانت في طاعته (١) •

واستطاع مجاهد بعد ذلك أن يفتدى بناته سريعا ، أما زوجته المسيحية فيقال انها ماتت ، ويذهب البعض الى انها رفضت ترك الاراضي المسيحية كى تموت على دين آبائها • أما ابنه علي ، فقد وقع في سهم أحد الامراء الالمان الذي رفض ان يطلق سراحه على سبيل المباهاة والفخر ، ولكن مجاهد بذل في هذا السبيل أموالا طائلة الى أن تمكن من فك أسرہ بعد ثمانية عشر عاما سنة ٤٣٣ هـ (١٠٢٢ م) فجاء الى بلاده مسيحيا يتكلم بلسانهم (الالمانية) ويتزيا بزيمهم ، فاعتنق الاسلام ، واختتن ، وأصابه من ذلك مرض شديد ، ثم شفى منه ، وأقامه والده وليا لعهدہ وقائدا لحيوشه (٢) • أما الخليفة المعيطى ، فيبدو أنه انتهب فرصة غياب مجاهد في سردانية وحاول الاستئثار بملكه ، ولكن شعب ميورقة لم يؤيده، وعلم مجاهد بهذا كله فأمر حين عودته بعزله وارسله الى بجاية (٣) حيث استقر بها معلمها لصبيان البربر (٤) •

وتوفي مجاهد بمدينة دانية سنة ٤٣٦ هـ (١٠٤٥ م) وخلفه ابنه على الملقب باقبال الدولة • ويروى المؤرخون أن هذا الامير الجديد أخذ

(١) الضبى : بغية الملتمس ص ٥٨ ترجمة رقم ١٣٧٩

(٢) احمد مختار العبادى : الصقالبة في اسبانيا ص ٢٦ وكذلك

(Chabas : Op. cit. p. 421)

(٣) بجاية Bougie مدينة بالجزائر من عمل قسنطينة على ساحل

البحر المتوسط .

(٤) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ٢٥٣

يتقرب من دولة الفواطم بمصر وابدى استعدادا للاعتراف بخلافتها في مراسلاته ، كما وجه الى مصر مركبا مملوءا بالغلال والاطعمة عام المجاعة المشهورة سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٤م) أيام الخليفة المستنصر بالله الفاطمي (١) .

وبعد وفاة علي بن مجاهد سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) ضمت مدينة دانية الى بنى هود في سرقسطة ، أما جزر البليار ، فانه نظرا لموقعها الجغرافي المنعزل في البحر ، فقد ظل ملكها في أسرة مجاهد الى ان احتلها المرابطون سنة ٥٠٨ هـ (١١١٤ م) .

من كل ما تقوم نرى ان الولايات الصقلية التي قامت في شرق اسبانيا في اوائل القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس الهجرى) ، لعبت دورا سياسيا وثقافيا هاما في تاريخ اسبانيا الاسلامية .

على أن موضع الاهمية هنا هو أن قيام تلك الدويلات الصقلية ، كان له فضل كبير في قيام حركة الشعوية في اسبانيا : فالى ولايات هؤلاء الصقالبة - كما يقول ابن حيان - « لجأ كثير من موالى المسلمين من أجناس الصقلب والافرنجة والبشكنس عشيرتهم ... وزهدوا (أي الصقالبة) في الاحرار وأبنائهم ممن طرأ منهم عليهم فلم يواسوهم » (٢) . ومن هذه الولايات الصقلية ايضا انبعثت تصريحات شعوية قوية كان لها أثر ملموس في الادب الاندلسي حتى القرن السابع الهجرى (١١٣ م) .

(١) ابن الخطيب : المرجع السابق ص ٥٤ ٢ ، عادت هذه السفينة من مصر محملة بالدخائر والاموال ، وقد استولى عليها المقتدر بن هود عند احتلاله مدينة دانية (الحلل الموشية ص ٧٢)

(٢) ابن بسام : كتاب الدخيرة في محاسن أهل الجزيرة - القسم الثالث - ورقة ١٣

ونعنى بذلك الرسائل العديدة التي تناولت الرد عليها خلال تلك الفترة .
وتمثل حركة الشعوية في اسبانيا رسالة ابي عامر بن غرسية (١) الى الشاعر
أبى عبدالله بن الحداد (٢) ، يفضل فيها العجم على العرب ، وهي الوثيقة
الوحيدة المحفوظة حتى اليوم لحركة الشعوية في اسبانيا .

ومؤلف تلك الرسالة اسباني مولد ، من أصل مسيحي ، وقد اعترف
هو نفسه بذلك في رسالته كما أشارت بذلك أيضا كتابات من رد عليه
وهجاء من الكتاب العرب (٣) . ويخبرنا البلوى أنه كان بشكنسى الاصل
Vasco (من أقصى شمال اسبانيا) وأنه كان يسمى بالشاعر والكتاب،

(١) نشر المستشرق الالماني جولازيهر فقرات من هذه الرسالة في مقاله
السالف الذكر عن الشعوية في اسبانيا ، معتمدا في ذلك على نسخة
الاسكوريال رقم ٥٦٨ لوحات ٢٦ - ٢٩ ذاكرا أنها النسخة الوحيدة المحفوظة
لهذه الرسالة . والواقع ان هناك نسخة اخرى اوردها ابن بسام في القسم
الثالث من ذخيرته لوحات ١٢٠ - ١٢١ . وقد استعنت بهاتين النسختين
عندما نشرت نص هذه الرسالة كاملا في كتابي (الصقالب في اسبانيا) ،
ونظرا لنفاذ طبعة هذا الكتاب ، رايت أن أعيد طبع هذه الرسالة كضميمة
في آخر هذا الكتاب الذي بين أيدينا .

(٢) أبو عبدالله محمد بن احمد بن الحداد ، كان شاعرا في بلاط
المعتصم بن صمادح امير المرية . راجع ترجمته في (ابن بسام : الذخيرة ج٢
ق١ ص ٢٠١)

(٣) تصدى للرد على ابن غرسية وهجائه عدد غير قليل من الكتاب
العرب. نذكر منهم البلوى في كتابه الف باء ج١ ص ٣٥٠ ، والشريف المالمقى
الفرناطى ابا عمرو محمد بن على بن عبد ربه التجيبى الذي قال عنه ابن
الخطيب بأنه رحل الى المشرق وسمع بالاسكندرية وله اختصار في اغانى
الاصهاني ورد جيد على ابن غرسية في رسالة الشعوية (الاحاطة ورقة
١٦٤ نسخة الاسكوريال) .

وهذا معناه أنه كان موظفا بالدولة ، وأن له قلما وأسلوبا عربيا ممتازا • وعلى الرغم من قلة النصوص التي لدينا حول المكان الذي عاش فيه ابن غرسية ، إلا أنه يفهم من كلام ابن الأبار (١) وابن بسام (٢) وابن سعيد المغربي (٣) ، أنه عاش في مدينة دائية في عصر ملوك الطوائف ، وخدم في بلاط مجاهد الصقلبي وابنه علي من بعده ، أي أنه عاش في المنطقة التي كان فيها نفوذ الصقالبة سائدا قويا في الساحل الجنوبي الشرقي الاسباني • وهذا يفسر لنا صراحة العبارة التي هاجم بها ابن غرسية مبدأ السيادة العقلية والسياسية للجنس العربي • كما يفسر أيضا تلك الجرأة المتناهية التي استعملها ضد العنصر العربي والسيادة العربية ، فلو أن ابن غرسية خدم في مكان يسيطر عليه العنصر العربي ، لما استطاع أن يكتب بمثل هذا الأسلوب دون أن يتعرض لعقابهم ونقمتهم ، ويؤيد ذلك أيضا دهشة البلوى - الذي عاش بعد ذلك بقرنين - من سكوت رجال ذلك العصر عن اساءات ابن غرسية فيقول : « والعجب من أهل ذلك الزمن ، كيف استقروا على هذه الفتن ، وأقروا هذا المجترى على هذا الاجترا ، وما جاء به من الافتراء ، أم كيف أبلعوه ريقه ، وأوسعوا له طريقه ، ولم يهلكوا فريقه !؟ » (٤) • غير أن دهشة البلوى هنا قد تكون في غير موضعها طالما كان ابن غرسية يجد حماية وتأييدا من الحكام الصقالبة الذين عاش في كنفهم • ويعضد ذلك ما رواه العذري من أن مولى صقليا يدعى عبدالله بن غالب الأخرس ، لم يجرؤ على سكنى اشبيلية لوجود العرب فيها ،

(١) ابن الأبار : المعجم ص ٢٩٩ ترجمة رقم ٢٨٢

(٢) ابن بسام : الذخيرة - القسم الثالث - ورقة ١٢٠

(٣) Ribera : Épica Andaluza Romanceada, en Disertaciones) (٢) y Opusculos tomo I P. 137 nota 2)

(٤) البلوى : الف باء ج ١ ص ١٠٣ . وكذلك Goldziher : Op.) cit. P. 607 - 608)

فسكن على مقربة منها في شنت طرمين Siete Torres وتعاون مع المولدين فيها ، فتربص له العرب وقتلوه (١)

كل هذه النصوص وأمثالها تدل على أن الصقالبة ناصرُوا حركة الشعوبية في البلاد الخاضعة لهم (٢) ، وقد رأينا من قبل كيف أنهم بذروا لها البذرة الأولى بكتاب حبيب الصقلبي ، وباحتضانهم لكثير من العناصر غير العربية من صقالبة وموال وافرنبجة وبشكنس ، ومن ذلك الجنس الأخير قام ابن غرسية مؤيدا ومحتما بالصقالبة ، فكتب رسالته الجريئة التي نسوقها في آخر هذا الكتاب .

إذا انتقلنا إلى المغرب العربي ، نجد أن استخدام الماليك من الصقالبة قد شاع أيضا بين ملوكه وحكامه منذ القرن الثالث حتى القرن الخامس الهجري . وكانت الأندلس بحكم الجوار مركزا لانتقال هذا الرقيق إلى دول المغرب الأقصى بصفة خاصة ، بينما كانت جزيرة صقلية الإسلامية مركزا لانتشاره في دول المغرب الأدنى .

وحيثما يحدثنا البكري (٣) عن مملكة نكور أو دولة بني صالح التي

(١) العذري : ترصيع الاخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى الممالك ، نشر عبد العزيز الأهواني ، ص ١٠٤

(٢) راجع (J. Ribera: Op. cit. I p. 137)

(٣) البكري : كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، نشر دى سلان ، ص ٩٠ ، ٩٦ ، ٩٩)

قامت بمنطقة الريف في شمال المغرب الاقصى^(١)، يشير الى اعتماد هذه الدولة على الممالك الصقلية ، وانه قد بلغ من كثرتهم أن صارت لهم قلعة خاصة بجوار العاصمة نكور تعرف بقلعة الصقلية أو قرية الصقلية . وقد اشتد نفوذ هؤلاء الصقلية في عهد الملك صالح بن سعيد لدرجة أنهم بعد وفاته (٢٦٢ هـ / ٨٧٥ م) حاولوا فرض مطالبهم على ولده سعيد بن صالح ، فدخلوا عليه يوما وسألوه العتق ، فقال لهم : « اتنم جندنا وعبيدنا ، واتنم كالأحرار ، لا تدخلون في الموارث ، ولا تجرى عليكم المقاسم ، فما طلبكم للعتق ؟ » فألحوا عليه في ذلك ، فأبى ، فناله منهم جفاء وغلظة ، وقدموا أخاه عبيد الله ، وعمه الرضا المكنى بأبي على ، وزحفوا بها الى القصر ، فحاربهم سعيد من أعلى القصر بالفتيان والنساء حتى انهزموا ، وقامت عليهم العامة فأخرجوهم الى قرية فوق المدينة تعرف بقرية الصقلية ، فتحصنوا بها سبعة أيام ، ثم ظفر بهم سعيد بعد حرب شديدة^(٢) . وفي المغرب الادنى اعتمد الاغالبة (١٨٤ - ٢٩٦ هـ = ٨٠٠ - ٩٠٩ م) على الصقلية كذلك ، خصوصا بعد أن غزوا جزيرة صقلية سنة ٢١٣ هـ (٨٢٧ م) بقيادة قاضي القيروان أسد بن الفرات ، وامتدت غارات أساطيلهم الى سواحل دالماسيا ، والى كلابريا ولبارديا في جنوب ايطاليا .

(١) نكور مدينة مندرسة في شمال شرق المملكة المغربية وكان من أعمالها ثغر المزمة الذي حرفه الاسبان الى الوثيماس Alhucemas ثم عربه المسلمون الى الحسيمة الحالية التي تسمى ايضا سان خورخو Villa Sanjurjo وهي خاضعة للنفوذ الاسباني . وكانت مملكة نكور دولة عربية سنية مالكية لعبت دورا كبيرا في نشر الاسلام واللغة العربية بين بربر الريف من غمارة وصنهاجة ، كما أنها قاومت تيار الخوارج والشيعة ولقيت من وراء ذلك عناء كبيرا خفف من حدته تأييد الامويين في الاندلس لها . وعاشت هذه الدولة عصورا طويلة الى ان افتتحها المرابطون وخربوها سنة ٤٧٣ هـ فلم تعمر بعد .

(٢) البكري : المرجع السابق ص ٩٣ - ٩٤ .

ويبدو أن جزيرة صقلية قد صارت بعد ذلك محطة للسبي القادم من تلك البلاد ، اذ يشير ابن حوقل الى حارة للصقالبة هناك ، ويصفها كمدينة عامرة بتواحي مدينة بلرم palermo على الساحل الشمالى لجزيرة صقلية (١) .

ولعل ابلدغ دليل على كثرة استخدام الصقالبة في الدولة الاغلبية ، ما رواه ابن الخطيب في وصف رحيل آخر ملوك الاغلبة زيادة الله الثالث الى مصر عند سقوط دولته على يد الفاطميين ، يقول : « وأخذ في رفع الاموال ونفيس الخلع ، واصطفاء الجوهر واختيار السلاح . . . ثم اتخب من عبيده الصقالبة ألف خادم ، وجعل على وسط كل واحد منهم ألف دينار » (٢) .

ثم قامت الدولة الفاطمية على أنقاض دولة الاغلبة في المغرب ، وورثت عنها اساطيلها وقواعدها البحرية سواء في المغرب او في جزيرة صقلية ، كما سارت على نفس سياستها في اتخاذ المماليك من الصقالبة وغيرهم الى جانب اعتمادها على قوة اهل البلاد من المغاربة . وعلى هذا الاساس افترض المستشرق التشيكوسلوفاكى هربرك Herberk ان القائد الفاطمى المشهور جوهر الصقلى كان صقليا من سببايا سواحل دالماسيا وليس صقليا ، واستند في ذلك الى رواية ليون الافريقى (الحسن الوزان)

(١) راجع (Michele Amari : Bibliotheca arabo - Sicula, tome I P. 120, Lipsia 1856)

(٢) ابن الخطيب : اعمال الاعلام - القسم الثالث الخاص بالمغرب - ص ٤٣ نشر احمد مختار العبادى وابراهيم الكتانى (الدار البيضاء ١٩٦٤) .

ربعض الوثائق اللاتينية (١) . هذا الى جانب أن صقلية كانت في ذلك الوقت جزيرة اسلامية ، وأهلها أهل ذمة لا يخضعون للرق ، وان كان من المرجح - ان صح قول هربوك - ان يكون جوهر قد استقر في صقلية - بعد أسره - فترة من الوقت قبل ذهابه الى المغرب ، ولهذا نسب الى صقلية رغم كونه صقليا .

ومهما يكن من شيء ، فالامر الذي لا شك فيه هو أن العنصر الصقلبي كان في عداد العناصر المملوكية البارزة التي اعتمدت عليها الدولة الفاطمية (٢) سواء خلال قيامها في المغرب كما ذكرنا آنفا ، أو بعد انتقالها الى مصر والشام ، كما هو مبين في الباب التالي الخاص بممالك مصر .

(١) من محاضرة القاها عن « صقلية الفاطميين » في سنة ١٩٦١ بكلية الآداب بجامعة الرباط حيث كنت اعمل وقتئذ استاذاً بها .
(٢) من امثلة اهتمام الفاطميين بالصقلية أنه يؤثر عن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله انه كان يجيد لغتهم الى جانب لغات أخرى .

الباب الثاني

المماليك في مصر

منذ الدولة الطولونية حتى نهاية الدولة الأيوبية
(٢٥٤ - ٦٤٨ هـ = ٨٦٨ - ١٢٥٠ م)

مماليك الطولونيين والاشيدين - استخدام المماليك الاتراك
والصقالبة في الدولة الفاطمية بمصر - الصبيان الحجرية والترابي
في القاهرة - الدولة الايوبية فرع من فروع السلاجقة - التوسع في
استخدام المماليك زمن السلاجقة والايوبيين - مشاركة المماليك الاسدية
في فتح مصر - وفاة أسد الدين شيركوه - معاونة الأسدية في تقليد
صلاح الدين ووزارة الفاطميين - صلاح الدين والخلافة الفاطمية -
اتخاذ المماليك الصلاحية أو الناصرية لنفسه - تكوين أخيه العادل فرقة
المماليك العادلية - اشتراك الأسدية والصلاحية والعادلية في حروب
صلاح الدين - دورها في منازعات البيت الأيوبي بعد وفاة صلاح
الدين - اقتصار الاسدية واندحار الصلاحية - آثار المماليك الأسدية
والصلاحية بالقاهرة - استمرار سلاطين الايوبيين في تكوين الفرق

المملوكية - العزيزية - الأشرفية - الكاملية - تدخل هذه الفرق في
اقامة السلاطين وعزلهم أواخر العهد الأيوبي - الملك الصالح ايوب
ومماليكه البحرية - بناء قلعة الروضة واتخاذها مقرا للماليكه - آثار
المماليك البحرية الصالحية في القاهرة - أصل لفظ البحرية - اطلاقه
على فرقة من المماليك في اليمن - تعريف جوائيز للفظ « بحرية » -
الحملة الصليبية السابعة - دور المماليك البحرية في الدفاع عن مصر -
النزاع بين توران شاه والمماليك البحرية - مقتل تورانشاه وانهاء
الدولة الأيوبية •

الآخري وولاتها ، ومن أولئك أحمد بن طولون .

وكان طولون مملوكا تركيا ممن أرسلهم حاكم بخارى نوح بن أسد الساماني في جملة من الرقيق والهدايا للخليفة المأمون وهوبمرو سنة ٢٠٠ هـ (٨١٥ م) . وتدرج طولون في حياة المماليك بالمجتمع العباسي حتى صار رئيس الحرس الخلفي ، وتمكن من تربية ابنه - أو متبناه (١) - أحمد تربية عسكرية اسلامية أهلته لان يصبح حاكما على مصر سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) (٢) . وطبيعي أن يعتمد ابن طولون على المماليك من أبناء جنسه التركي في ولايته ، غير أنه طمّع الى شيء من الاستقلال بمصر ، ولذا اهتم فيما اهتم بالجيش على وجه خاص (٣) ، ولم يقنع هو وابنه خمارويه بعده بالمماليك الاثراك فحسب ، بل جعل بجيشه فرقا من العرب الاحرار ، فضلا عن فرق من الرقيق الاسود والديلم والروم . ويجمع المؤرخون العرب على ضخامة ذلك الجيش الى درجة اضطرت أحمد بن طولون الى بناء ثكنات لهم وهي القطائع . والروايات العربية تقدر ذلك الجيش تقديرات لا تبدو بعيدة عن الحقيقة ، فالمقرئ يروى في خطه أن ابن طولون استكثر من مشتري المماليك الاثراك حتى بلغت عدتهم أربعة وعشرين ألف مملوك ، وبلغ مشتري العبيد الزنج

(١) انظر (Lane-Foole:Hist. of Egypt in the middle ages. p. 60)

(٢) الواقع ان بعض الولاة في مصر وفي غيرها كانوا من العرب في تلك المرحلة التركية من التاريخ الاسلامي مثل عنبسة بن اسحاق وهو آخر من ولى مصر من العرب سنة ٢٤٢ هـ سنة ٨٥٦ م في عهد الخليفة المتوكل . ومن بعده صارت مصر اقطاعا لطائفة من الولاة الاثراك تعاقبوا عليها دون أن يذهبوا اليها في كثير من الاحيان ، ومن هذه الاحيان كان مجيء احمد بن طولون ليتولى مصر بالنيابة عن بايكباك . راجع (الكندي : الولاة ص ٢٠٢ ، البلدي : سيرة احمد بن طولون ص ٣٣ - ٤٣) .

(٣) انظر (Zaki Hassan : Les Tulunides P. 165)

أربعين ألفا ، كما انه استكثر من العرب حتى بلغت عدتهم سبعة آلاف
حر مرتزق (١) * أما ابن اياس فانه يقتبس من ابن واصف شاه ويقول
بأن ممالك ابن طولون من الديلمة فقط بلغت عدتهم أربعة وعشرين
ألف مملوك (٢) *

غير أنه يجب أن يكون واضحا أن كثيرا ممن دخل الجيوش
الطولونية رقيقا ، قد تحرر فيما بعد ، وذلك ينطبق على الجند والقادة
سواء ، اذ المعروف ان ابن طولون اعتق أعدادا كبيرة من جنده لينشئ
منهم جيشا ممتازا * ولذا يرجح أنه لم يوجد في الجيش الطولوني
ممالك كثيرون في أواخر أيام ابن طولون ، وأن عملية التحرر ظلت
القاعدة في أيام أسرته (٣) *

وسارت الدولة الاخشيدية على سنة أسلافها الطولونيين في اتخاذ
الممالك الاتراك حتى انه يقال ان ممالك محمد الاخشيد بلغ عددهم
ثمانية آلاف مملوك ، وأنهم كانوا يحرسونه بالنوبة عندما ينام كل يوم
ألف مملوك (٤) * ويبدو أن الجيش الاخشيدى اشتمل أيضا على عدد
كبير من العبيد السود بدليل حلول أحدهم وهو كافور محل الاخشيد
في حكم مصر *

(١) المقريري : الخطط ج ١ ص ١٥٢ *

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٣٧

(٣) راجع (Zaki Hassan : Les Tulunides P. 168)

(٤) ابو المحاسن بن تفرى بردى : النجوم الزاهرة في محاسن مصر
والقاهرة ج ٣ ص ٢٥٦

ثم انتهت الدولة الاخشيدية بقيام الدولة الفاطمية في مصر (٣٥٨ هـ - ٥٦٧ هـ = ٩٦٨ - ١١٧١ م) .

وإذا كثرت أنواع المماليك على عهد الطولونيين والاخشيديين ، فقد أضاف الفاطميون بمصر نوعا جديدا جاءوا به من المغرب وهو الصقلية . ويبدو أن الخلافة الفاطمية أكثر من المماليك الاتراك والصقلية منذ قيام المعز أول الخلفاء في مصر بدليل اختيار العزيز وهو الخليفة الثاني لكثير من هؤلاء وأولئك لمناصب الثقة والقيادة والولاية^(١) لان وصولهم الى تلك المناصب معناه أن العزيز ألفاهم قوة في الدولة بحيث صارت المناصب العليا لديهم أهدافا مشروعة . فولى مملوكه بنجوتكين التركي قيادة الجيش كما ولاه الشام ، وولى دنيا الصقلية عكا ، وبشارة الاخشيدى طبرية ، ورباحا السيفى غزة ، وبرجوان الصقلية امارة القصر^(٢) . وليس أدل على اكثر الفاطميين من الصقلية من تسمية أحد الشوارع الفاطمية في القاهرة باسمهم ، وهو الشارع الذي امتد بين حارة زويلة وخان أبو طاقة^(٣) . ولقد أثار تفضيل الفاطميين للترك والصقلية عوامل الحسد والنضال بينهم وبين المغاربة ، ويظهر ذلك جليا أثناء عهد الخليفة الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١ هـ = ٩٩٦ - ١٠٣٠ م) الذي استكثر من العبيد السود (السودان) للحد من نفوذ الفريقين^(٤) . ثم قوى نفوذ الترك مرة أخرى في عهد الخليفة

(١) المقرئزي : الخطط ج ٢ ص ٢٨٤ - ٢٨٥

(٢) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١١٧

(٣) المقرئزي : الخطط ج ٢ ص ٤١ - ٤٢ ، على مبارك : الخطط

التوفيقية ج ٣ ص ٢٨

(٤) المقرئزي : الخطط ج ٣ ص ١٧ - ١٨ ، ج ٤ ص ٦٨

الظاهر بن الحاكم لميله الى الاتراك والمشاركة (١) ، فصارت قيادة الجيوش في يد أبي منصور أنوشتكين ، وهو مملوك تركي الاصل يعرف بالذبري (٢) ، وقد ولاه الظاهر فيما بعد دمشق سنة ٤١٩ هـ (١٠٣٨ م) (٣) ثم جاء الخليفة المستنصر الفاطمي فمال الى عنصر العبيد السود واستكثر من شرائهم لان أمه كان أمة سوداء (٤) ، وظل هذا العنصر منبع القوة في الدولة الى آخر عهد الدولة الفاطمية .

ومن الأدلة التي تبرهن استنتاجا على كثرة المماليك من الاتراك والصقالبة والسود في الدولة الفاطمية اهتمام الداعي « ثقة الامام علم الاسلام » بشأنهم في احدى محاضراته التي ألقاها في مجالس الحكمة ، وأفراده للكلام عنهم عبارة طويلة في سياق محاضراته ، ونص هذه العبارة : « اتتهينا فيما شرطنا ذكره من سنن الدين الى ذكر ما أمر به من الرفق بالمماليك الذين كلفهم الله خدمتكم ووقاكم بكفائتهم ، لانهم بشر لم ينحتوا من الحجر ، ولم يخلقوا من الشجر . فللمملوك على مالكة سبع خصال وهي أن يقوم بكفائته من المطعم والمشرب وستر جيبه من اللبس ، وأن لا يحمله فوق طاقته ، ولا يكلفه من العمل أكثر من استطاعته ، ولا يضربه الا تأديبا ولا تعديا ، ولا يلزمه ما لا يحل ، ولا يمنعه من الصلاة في أوقاتها . ويجب على المملوك مالكة اثنتي عشرة خصلة وهي : أن يعتقد نصيحته ، ويظهر له شفقتة ، ويحفظ ماله ، ويصون حريمه ، ويؤدى له الأمانة ولا يغشه ، ولا يخونه ، ولا يدخر

(١) على مبارك : الخطط التوفيقية. ج ٢ ص ٩

(٢) نسبة الى قائد ديلمى يدعى تزبر بن أرنيم الذي اشتراه بدمشق سنة ٤٠٠ هـ راجع (ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٥٢)

(٣) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٦٨

(٤) ابو المحاسن : المرجع السابق ج ٥ ص ١٧ - ١٩ .

عنه نفسه ، ولا يكتمه صنعة يحسنها ، ويطيعه ولا يخالفه ، ولا يتصرف في شيء من أمواله الا بأمره . قال الله تعالى « وضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ، ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو يشفق منه سرا وجهرا هل يستونون » (١) .

واهتم الفاطميون بتربية صغار ممالئهم ، وهم في الواقع أول من وضع نظاما تربويا للمالئ في مصر . فيروي المقرئ أن الاساطيل الفاطمية حملت الى مصر كثيرا من أسرى الحروب ، وجزت العادة أن يحضر أولئك الأسرى الى مكان يسمى المناخ (٢) (جهة الاسماعيلية بالقاهرة اليوم) ، فتضاف الرجال الى من فيه من الأسرى السابقين ، ويمضي بالتساء والاطفال الى قصر الخليفة بعدما يعطى الوزير منهم طائفة ، ويفرق الباقي لخدمة المنازل . ثم يدفع الصغار من الأسرى الى الاستاذين ، فيربونهم ويعلمونهم الكتابة والرماية ويسمونهم «الترابي» . وقد يرتقى أولئك الصبيان الى رتب الامراء (٣) .

وظلت تلك الطائفة موجودة أيام الدولتين الايوبية والمملوكية ،

(١) المجالس المستنصرية، المجلس الثاني والعشرون ص ١٠١ - ١٠٢ ، نشر وتحقيق الدكتور كامل حسين - سلسلة المخطوطات الفاطمية .

(٢) المناخ المكان الذي تناخ به الجمال ، واطلق الفاطميون هذا الاسم على عدة من المخابز والمطاحن والمخازن المدنية والعسكرية التابعة للدولة . وأغلب الصناع في هذه الامكنة من أسرى الحرب من الفرنج وكانوا يقطنون بها . راجع (المقرئ : المخطوط ج ١ ص ٤٤٤)

(٣) المقرئ : المخطوط ج ٢ ص ١٩٤ .

ويلاحظ أن أصلها أشبه ما يكون بأصل بعض الانكشارية (١) في الدولة العثمانية . غير أن التراجم لم تلعب في حوادث دول الفاطميين والايوبيين والمماليك بمصر دورا ظاهرا مثل الذي قامت به الانكشارية في الدولة العثمانية ، لانها لم تخصص مثل الانكشارية للحياة الحربية وميادين القتال ، بل ظلت طائفة حول البلاط يكون منهم الغلمان وخدام القصر (٢) .

وهناك نظام تربوي آخر وضعه الفاطميون لتربية غلمانهم المعروفين بالصبيان الحجرية ، وهم فرقة من الشبان الذين سموا بهذا الاسم لانهم عاشوا في ثكنات تعرف بالحجر وموقعها بجوار القصر الخلفي بالقاهرة (٣) . وجاء ذكر تلك الطائفة في دائرة المعارف الاسلامية على

(١) الانكشارية Janissaries لفظ حوره الاوربيون من ينى تشرى Yeni - ceri اي الفرقة الجديدة في اللغة التركية . وكان جنود هذه الفرقة يؤخذون اطفالا من العناصر المسيحية الخاضعة للدولة العثمانية (ضريبة الدم) ثم يربون تربية عسكرية اسلامية في مدارس خاصة فيتحولون الى الرعية العثمانية المسلمة مع بقائهم رقيقا للسلطان . وتعتبر هذه الفرقة من المشاة ، من مستحدثات الحرب في ذلك العصر في اشرق والغرب ، ويرجع الفضل في انشائها الى السلطان العثماني أورخان الاول سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٦ م) راجع (Lybyer : The Government of the Ottoman Empire in the time of Suleiman P. 91 - 98 & Ency. Isl. art. Janissaries)

(٢) راجع (محمد مصطفى زيادة : بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك مجلة كلية لاداب بالقاهرة ، المجلد الرابع ، الجزء الاول . مايو سنة ١٩٣٦) .

(٣) انظر (Kay : Yaman, its early medieval history by Qmara) P. 264 note 50)

أنها طائفة من « المماليك » كونها الافضل شاهنشاه (١) وزير الخليفة المستعلى سنة ٤٨٧ هـ كفرقة عسكرية تحت قيادة أمير يحصل لقب « الموفق » لتكون حرسا له ، وبلغ عدد تلك الفرقة ٣٠٠٠ مملوك (٢) . غير أن المرجع الذي استمدت منه دائرة المعارف الاسلامية هذا الوصف ، يقول ان الحجرية كانوا « يختارون من أولاد الاجناد (٣) » ، واذا سلمنا جدلا أن أولئك الأجناد من المماليك الاتراك والصقالبة أو غيرهم مما امتلأت به جيوش الدولة الفاطمية ، فانه لا يمكن تطبيق تلك التسمية على أبنائهم ، فأولئك لم يكونوا مماليك في يوم من الايام ، اذ أن المملوك في المصطلح الرسمي المملوكى لا بد وأن يكون قد مسه الرق أي مسهته يد النخاس . ولعل دائرة المعارف الاسلامية تأثرت في وصفها للحجرية الفاطميين بتكوين طائفة الغلمان الحجرية الذين استخدمهم الخليفة العباسى المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ = ٨٩٢ - ٩٠١ م) ، فهؤلاء كانوا فعلا من المماليك الذين اختارهم الخليفة من بين غيرهم من المماليك الذين يحسنون الركوب والرمى ، ويقومون أيضا في الحجر تحت مراعاة الخدم والاستاذين (٤) .

(١) هو الوزير الافضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى ، وهو من اصل أرمني ، اذ كان والده مملوكا أرمنيا لجمال الدولة بن عمار فعرف بالجمالى ثم ظل يترقى الى ان صار حاكما على الشام . وقد استنجد به الخليفة الفاطمى المستنصر بالله للقضاء على فتن طوائف الجند بمصر ، فأضاف بذلك عنصرا جديدا في الجيش والدولة وهو العنصر الارمنى . وقد خلف الافضل اباه بدر الجمالى في منصب الوزارة (المقرئى : الخطط ج ١ ص ٣٨١)

(٢) راجع (Éncy . Isl. art, Huggrah)

(٣) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٤٤٣

(٤) متر : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى ، ترجمة أبو

ريدة ، ص ٢٤٢

وكيفما كان الامر فانه يتضح مما تقدم ان الدولة الفاطمية استخدمت المماليك من مختلف الاصناف والالوان ، واستطاع عدد كبير منهم أن يصل الى مناصب الولاية والقيادة بغض النظر عن أصلهم أو جنسيتهم •

ثم انتهت الدولة الفاطمية بقيام الدولة الايوبية على يد الناصر صلاح الدين سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) • والدولة الايوبية كما هو معروف كردية الاصل ، ولكنها جاءت عن طريق الدولة السلجوقية التركية ومماليكها ، ونقلت عنها الكثير من عاداتها وأنظمتها التركية المشرقية ، وطبقتها في مصر والشام لأول مرة • ولهذا فانه لا يمكن فهم تاريخ الدولة الايوبية فهما جيدا الا على ضوء دراسة تاريخ السلاجقة وانظمتهم العسكرية •

ولقد اعتمدت الدولة السلجوقية منذ نشأتها الاولى على المماليك من الترك ، وورث هؤلاء سياستها ومراميتها • والقاعدة العامة المعروفة عن السلاجقة في ضوء تاريخهم ، هي أنهم اعتقدوا انه لا يمكن للفرس والعرب ان يخلصوا في خدمة ساداتهم الاتراك ، وانه من الافضل الاعتماد على وفاء المماليك الاتراك الذين ربوا ونشأوا في البلاط على مقربة من سلاطين السلاجقة وأمرائهم (١) • وصار هؤلاء المماليك يجلبون وهم صغار السن من بلاد القفجاق (٢) ، ثم يربون تربية خاصة

(١) انظر (Lane Poole : Saladin; P. 9 - 15)

(٢) بلاد القفجاق او القبجاق او القبشاق اقليم بحوض نهر الفولجا بالجنوب الشرقى من روسيا الحالية وشمال البحر الاسود والقوقاز ، وأهلها من الترك - وكانوا أهل حل وترجال على عادة أهل البدو وفي ضيق من العيش، وبلادهم فرضة عظيمة للتجار ورقيق الترك. راجع (القلقشندي: صبح الاعشى ج١ ص ٥٨) وكذلك (Heyd: Histiore du Commerce du Levant au moyen age' tome.2, P. 559)

على أساس النظام التربوي المملوكى السامانى الذى وصفه الوزير نظام الملك الطوسى وزير آل سلجوق فى كتابه سياسة نامه ارشادا للحكام السلجوقيين^(١) . ويضيف نظام الملك فى ذلك الصدد انه « يجب ألا يثقل على المماليك القائمين على الخدمة الا اذا دعت الحاجة ، ولا ينبغي أن يكونوا عرضة للسهام فى كل حين ، ويجب أن يتعلموا كيف يجتمعون على الفور مثلما ينتشرون على الفور اذا صدر بأحدهما الأمر . وكذلك يجب أن يقال لهم مرة أخرى كيف ينبغي للشيء أن يكون حتى ينتهجوا اليه سبيله . ولا حاجة الى التكلف كل يوم باصدار الامر بمباشرة الخدمة لمن يكون من الغلمان : صاحب الماء ، وصاحب السلاح ، والساقى وأشباه ذلك ، ولمن يكون من الغلمان فى خدمة كبير الحجاب وكبير الامراء ، بل يجب أن يؤمروا بأن يبرز للخدمة فى كل يوم من كل دار عدد معين ، ومن الخواص عدد معين كذلك ، حتى لا يكون فى ذلك مشقة »^(٢) . ويكمل عماد الدين الاصفهانى^(٣) الذى عاش بدمشق زمن الملك العادل نور الدين زنكى ، تصوير ممالك السلاجقة فى عبارة موجزة حيث يقول : « وكان للسلطان ممالك صغار كأنهم أقمار ، وكان عليهم من الخصيان الخواص رقباء ، وعلى طوائفهم من جنسهم نقباء »^(٤) .

(١) انظر ما سبق أن قلناه فى هذا الصدد بالباب الاول .

(٢) راجع (Schefer : Siaset Nameh par Nizam - oul - Mulk) (P. 138 - 141)

(٣) ولد بأصبهان سنة ٥١٩ هـ وقدم بغداد وولى واسط والبصرة ثم انتقل الى دمشق أيام سلطانها الملك نور الدين زنكى ، وعرفه الامير نجم الدين ايوب والصلاح الدين وتوفى بدمشق سنة ٥٩٧ هـ .

(٤) الاصفهانى : دولة آل سلجوق ص ١١٣

وكان نظام الملك أشد الناس تمسكا بما جاء في كتابه ، اذ حاطه جيش كبير من المماليك عرفوا بالمماليك النظامية نسبة لاسمه ، فقوى بهم نفوذه الى حد كبير^(١) ، حتى ان السلطان ملكشاه السلجوقي كتب اليه ذات مرة كتابا يقول فيه : « انك استوليت على ملكي وقسمت ممالكي على أولادك وأصهارك ومماليكك ، كأنك شريك في الملك ، أتريد أن أمر برفع دواة الوزارة من بين يديك ؟ » * فرد عليه الوزير نظام الملك : « كأنك عرفت اليوم اني مساهمك وفي الدولة مقاسمك ، فاعلم أن دواتي مقرونة بتاجك متى رفعتها رفع ، ومتى سلبتها سلب » * فكأنما نطق بما به القدر سبق ، فلم يكن بين مقتل الوزير (٤٨٥ هـ) ووفاة السلطان غير شهر واحد^(٢) * وزاد نفوذ المماليك النظامية بعد موت السلطان ملكشاه الى درجة مكنت لهم من عزل ابنه محمود وتولية ابنه الآخر بركياروق^(٣) * .

ويقال ان نظام الملك أول من أقطع الاقطاعات للمماليك الاتراك ، فبعد أن كان عطاء الجندي يدفع نقدا ، صار يعطى اقطعا^(٤) ، لان تسليم الارض الى المقطعين يضمن عمارتها ، وعناية مقطعيها بأمرها ، وفي ذلك ما يحفظ للدولة السلجوقية قوتها وثروتها * ولذا سار سلاطين السلاجقة على ذلك النظام ، فمنحوا القلاع والمدن والولايات اقطعا

(١) ابو شامة : كتاب الروضتين في اخبار الدولتين ج ١ ص ٢٦

(٢) صدر الدين ابو الحسن : اخبار الدولة السلجوقية ، نشر محمد اقبال بجامعة البنجاب ص ٦٩

(٣) الاصفهاني : دولة آل سلجوق ص ٧٦

(٤) صدر الدين ابو الحسن : اخبار الدولة السلجوقية ص ٦٨ ، الاصفهاني : دولة آل سلجوق ص ٥٥

للقادة من مماليتهم الذين سموا الأتابكة ، وذلك مقابل الخدمات العسكرية التي يؤدونها لهم وقت الحرب . والأتابك لفظ تركي معناه « الاب الامير » (١) ومعناه المربي لابن السلطان ، ثم أصبح لقباً تشريفياً يمنح لكبار القواد بمعنى قائد الجيوش ونائب السلطنة (٢) . والوزير نظام الملك أول من تلقب بلقب أتابك ، وقد منحه إياه السلطان ملكشاه حينما فوض إليه تدبير أمور المملكة سنة ٤٦٥ هـ (٣) .

وعلى هذا الاساس صار معظم أراضي فارس والجزيرة والشام ، مقسماً الى اقطاعات عسكرية يحكمها مماليك السلاجقة بتفويض من السلطان . وهؤلاء جعلوا لأنفسهم جيوشاً من المماليك في مختلف الولايات ، حتى اذا دعت الحاجة الى حضورهم للخدمة في الحروب ، جاء الوالى السلجوقي بمماليكه وعدته وسلاحه للمشاركة في القتال . وكانت الطريقة المتبعة في استدعاء تلك الفرق العسكرية هي اطلاق أسهم من معسكر الى معسكر ، أو من قرية الى قرية ، اشارة الى التجمع والاستعداد للحرب ، حتى اذا انتهت الحرب عاد الولاة ومماليتهم الى اقطاعاتهم ، وصار ذلك عادة في فصل الشتاء على ان يعودوا في الربيع اذا تطلب الأمر (٤) .

وعلى الرغم من غلبة الطابع العسكري على الدولة السلجوقية وولاتها من المماليك ، فان ذلك لم يمنعهم من تذوق الفن والادب

(١) القلقشندى : صبح الاعشى ج٤ ص ١٨ ، كرد على : خطط

الشام ج١ ص ٢٧١

(٢) انظر (Ency. of Islam, art Atabeg)

(٣) القلقشندى : صبح الاعشى ج٤ ص ١٨ .

(٤) راجع (Lane - poole : Saladin, p. 15 - 21)

وتشجيع العلم والعلماء وبناء المدارس ، وسادت تلك الروح الأدبية بين الولاة السلاجقة حتى بعد اضمحلال الدولة السلجوقية .

وهكذا نرى مما تقدم أن السلاجقة في أيام قوتهم اتخذوا اشخاصا من كبار مماليتهم اطلق عليهم الأتابكة ليكونوا مرين لأولادهم القصر ، ومنحوهم الاقطاعات الكبيرة مقابل قيامهم على شئون هؤلاء الابناء وتأديتهم الخدمة الحربية وقت الحرب . ولكن سرعان ما صار هؤلاء الأتابكة اصحاب النفوذ الفعلى في تلك الاقطاعات ، وابتهزوا ضعف الدولة السلجوقية وتفككها واستقلوا بولاياتهم شيئا فشيئا حتى اقتسموا المملكة السلجوقية فيما بينهم ما عدا الفرع الرومى في آسيا الصغرى فانه ظل في حوزة السلاجقة أنفسهم حتى أتى العثمانيون الى تلك البلاد أواخر القرن السابع الهجرى (١٣ م) (١) .

والدول الاتابكية كثيرة العدد ، وبيوتها شتى لا تنتهى الى نسب واحد ، الا انها يجمعها صفة المملوكية والاتصال بالبيت السلجوقى والنظام الاقطاعى الاسلامى . ومن المماليك السلاجقة الذين حكموا وصاروا ملوكا ، بنو أرتق نسبة لجدهم أرتق التركمانى أحد مماليك ملكشاه وهم الذين حكموا حصن كيفا (٤٩٥ - ٦٢٩ هـ = ١١٠١ - ١٢٣١ م) ، وماردين (٥٠٢ - ٨١١ هـ = ١١٠٨ - ١٤٠٨ م) (٢) . ثم هناك اتابكة دمشق (٤٩٧ - ٥٤٩ هـ = ١١٠٣ - ١١٥٤ م) وأول ملوكها طغتكين وأصله مملوك للملك تشش ابن ألب أرسلان أول سلاجقة الشام ، ثم صار لولده دقاق ، وبعد موت دقاق صار ملك دمشق لطغتكين

(١) راجع (Lane - poole: The Muhammedan Dinasties p. 159 - 160)

(٢) انظر (Lane - poole : Muham. Dynas. p. 168)

واستمر في عقبه ٥٢ سنة (١) . ثم هناك شهادات خوارزم (٤٧٠ - ٦٢٨ هـ = ١٠٧٧ - ١٢٣١ م) وينسبون الى انوشتكين وهو مملوك تركي لأحد أمراء السلاجقة ، عينه السلطان ملكشاه حاكما على خوارزم (خيوة) ، ورسخت أقدام هذا البيت واتسعت املاكه ، وعلى أيدي ملوكه اتسز ، وتكش ، وعلاء الدين ، انقضت دولة السلاجقة بخراسان وما اليها من بلاد الري والجبل وما وراء النهر (٢) . ويروي ابو شامة أن علاء الدين كان يمتلك «عشرة آلاف مملوك مثل الملوكة» (٣) ، وقد انتهت هذه الامبراطورية الخوارزمية في عهد جلال الدين خوارزمشاه على أيدي المغول سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١ م) ومن فلولها كانت بعض البذور التي نبتت منها الدولة المماليكية الاولى في مصر (٤) .

ومن مشاهير الاتابكة في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي، الامير عماد الدين زنكى مؤسس أتابكية الموصل والشام وديار ربيعة ومضر ، وهو ابن قسيم الدولة آق سنقر الحاجب الذى بدأ حياته مملوكا للسلطان ملكشاه (٥) . وعن طريق زنكى وابنه نور الدين كان ظهور صلاح الدين الايوبى الذى تأثر بالنظم السلجوقية ، واليه يرجع الفضل في انتقال تلك النظم الى مصر حيث بقيت عدة قرون زمن الايوبيين والمماليك .

ومن أمثلة هذه المؤثرات نذكر استخدام الجاليس في مقدمة

(١) صدر الدين ابو الحسن: اخبار الدولة السلجوقية ص ١٩٦ - ١٩٧

(٢) ابن الاثير: تاريخ الكامل ج١٢ ص ٢٠٥ - ٢٠٧ .

(٣) ابو شامة: الدليل على الروضتين ص ١٢٢

(٤) انظر () poliak : Le dialecte des Mamelouks, R. É. I. 1935,

Cahier III)

(٥) أبو شامة: كتاب الروضتين في اخبار الدولتين ج١ ص ٢٤ - ٢٧

الجيش • والجاليش عبارة عن خصلة من الشعر كانت ترفع في أعلى الراية أمام الجيش ثم صارت تطلق على مقدمة الجيش أو طلائعه^(١) .
فهذه العادة جاء بها السلاجقة من المشرق ، ثم انتقلت الى مصر على يد الايوبيين • ومن الطريف أنها انتقلت كذلك الى بلاد المغرب والاندلس مع فرقة الغز التي قادها المملوك قراقوش التقوى^(٢) أيام صلاح الدين •
فابن الخطيب حينما يصف هجوما قام به الجيش المغربي في عهد الدولة المرينية يقول : « فزحفت راياتهم على شأن غز المشاركة من المزمار والطبل وحمل جمعة الشعر في إعلان سنان الراية »^(٣) •

كذلك جلب السلاجقة مع العادات الفارسية والتركية الأخرى نظما جديدة في البلاط والمواكب الرسمية لم تستعمل من قبل أيام الأمويين والعباسيين والفاطميين • مثال ذلك حمل العاشية بين يدي السلطان في الأماكن والمناسبات الحافلة كالميادين والاعياد ونحوها كشعار للسلطنة • والعاشية سرج من أديم مخروزة بالذهب حتى يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب ، يحملها ركاب الدار بين يدي السلطان ويلفتها يميناً وشمالاً • وقد انتقلت هذه العادة الى مصر والشام على يد صلاح الدين وخلفائه ، واستمرت بعد ذلك في أيام سلاطين المماليك • ويروي أبو عمرو النابلسي

(١) يقول أبو شامة في هذا المعنى (الروضتين ج ٢ ص ٧٧) وفي موقعة حطين سنة ٥٨٣ هـ تقدمت الجاليشية تحرق بنيران النصال أهل النار •

(٢) نسبة الى الامير الايوبي تقى الدين عمر ابن اخي صلاح الدين •
(٣) راجع (ابن الخطيب : نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ص ٣٣٩ ، نشر مختار العبادي) •

في « كتابه تاريخ الفيوم » (١) ، نادرة تدل على قيمة الغاشية كرمز ملكي، فيقول ان شيخا مصريا اسمه شهاب الدين الطوسي أمر ركاب داره بأن يرفع الغاشية على اطراف أصابعه كما يصنع بين يدي الملوك . فلما تحدث اليه البعض في ذلك قال : « أنا ملك العلماء كما أن الملوك ملوك الرعايا ! » (٢) .

كذلك استحدثت السلاجقة نظام المدارس ، وهي منشآت علمية سنوية لمحاربة المذهب الاسماعيلي الشيعي . وسار على هذه السياسة نور الدين محمود زنكي في الشام ثم صلاح الدين الايوبي في مصر للقضاء على الدعوة الفاطمية . على انه يلاحظ في هذا الصدد ان مدينة الاسكندرية عرفت نظام المدارس السنوية في اواخر أيام الفاطميين وقبل مجيء صلاح الدين . فأول مدرسة انشئت فيها هي المدرسة الحافظية التي أسسها رضوان بن ولخشى وزير الخليفة الحافظ الفاطمي سنة ٥٣٣ هـ وأسند التدريس فيها الى الفقيه المالكي ابي الطاهر بن عوف الذي سبق ان قرأ المذهب المالكي على زوج خالته ابي بكر الطرطوشي (٣) .

(١) عثمان ابراهيم النابلسي (ت ٦٥٦ هـ) : كتاب لمع القوانين المعنية في دواوين الديار المصرية . نشر في مجلة (Bulletin D'Études Orientales, Damas 1861 - 1960 , XVI) وقد ألف هذا الكتاب برسم خزانة السلطان الصالح نجم الدين ايوب .

(٢) عثمان النابلسي : المرجع السابق ، وكذلك (C.H. Becker : Le Ghaṣhiya comme embleme de la Royauté en Centenario della nascita di Michele Amari volume II p. 148 (palermo 1910)

(٣) راجع (السبكي : طبقات الشافعية ج٤ ص ٤٢ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ج١ ص ٨٧ (طبعة محيي الدين عبد الحميد) ، جمال الدين الشيال : اعلام الاسكندرية ص ١٢٩) .

وبعد عشر سنوات اي في سنة ٥٤٤ هـ بنى العادل بن السلار وزير الخليفة الظافر الفاطمي مدرسة سنوية أخرى بالاسكندرية وأسند التدريس بها الى الفقيه الشافعي ابي الطاهر احمد السلفي (١) . غير أن انتشار المذهب السني في ذلك الوقت كان في حدود ضيقة ، وقاصرا على مدينة الاسكندرية دوناً عن بقية المدن المصرية ، وذلك بحكم وضعها الجغرافي واتصالها الشديد بالمغرب السني . ولهذا فانه يمكن القول بأن الايوبيين هم الذين اهتموا في الواقع ببناء المدارس في انحاء مصر والشام .

كذلك سار الايوبيون على سنة السلاجقة وأتابكتهم بالاكثر من الممالك الاثراك واستخدمهم في الجيش ، غير انه يلاحظ ان الايوبيين كانوا أكرادا أحرارا لم يمسسهم رق . وقد نفى صاحب مرآة الزمان القول بأن شادى جد صلاح الدين بدأ حياته مملوكا لبهروز الخادم الذي ولاه السلطان مسعود غياث الدين محمد بن ملكشاه السلجوقي شحنة العراق ، اذ قال : « ما كان شادى مملوكا قط ، ولا جرى على أحد من بنى أيوب رق ، وانما شادى خدم بهروز الخادم فاستنابه بقلعة تكريت » (٢) .

وخلف شادى في حكم قلعة تكريت ابنه نجم الدين أيوب الذي أتاحت له الظروف أن يؤدي خدمة للامير عماد الدين زنكى صاحب الموصل وحلب ، فعينه هذا الامير حاكما من قبله على بعلبك بعد الاستيلاء عليها . ويقال انه في نفس الليلة التي غادر فيها نجم الدين أيوب قلعة تكريت ، ولد له يوسف صلاح الدين الايوبي سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٨ م) . ومنذ ذلك

(١) ابن خلكان : نفس المرجع ج١ ص ٨٧ ، السبكي : المرجع السابق

ج٤ ص ٤٢

(٢) راجع (ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣ - ٤) حيث

ترد هذه العبارة نقلا عن مرآة الزمان لسبط بن الجوزي .

الوقت ارتبط الايوبيون بأسرة عماد الدين زنكى ارتباطا وثيقا لدرجة انه بعد وفاته (١١٤٦ م) كان نجم الدين ايوب وأخوه اسد الدين شيركوه (١) من أكبر أمراء ولده الملك العادل نور الدين محمود زنكى صاحب حلب ودمشق .

وحيثما عزم نور الدين على ارسال حملة الى مصر لتطويق مملكة بيت المقدس الصليبية من الجنوب - بعد فشل الفاطميين في مقاومتها - اختار لقيادة هذه الحملة القائد الايوبي اسد الدين شيركوه الذي صحب معه ابن أخيه صلاح الدين .

وشعر الصليبيون بخطورة هذه الحركة ، فبادروا بالتدخل في شؤون مصر واحباط هذه الخطة . وهنا حدث تسابق نحو الديار المصرية بين الصليبيين بقيادة عموري Amalric ملك بيت المقدس ، وبين جيوش نور الدين بقيادة شيركوه . ثم حدثت معارك بين الفريقين انتهت باتفاقهما على الانسحاب سويا من مصر . غير ان هذه الحملات لم تلبث ان عادت وتكررت من الجانبين ثلاث مرات ، وانتهى السباق بانتصار شيركوه وبقيائه في مصر كوزير للخليفة العاضد الفاطمي ، بينما انسحب عموري منهزما الى بيت المقدس .

وتجدر الاشارة هنا الى أن ذلك الجيش الذي قاده أسد الدين شيركوه الى مصر كان يتكون في معظمه من المماليك والامراء النورية (٢) مضافا اليهم فئة من المماليك الاسدية بلغت عدتهم عند وفاته نحو الخمسمائة

(١) كلمة شيركوه معناها اسد الغابة (المقريري : السلوك ج١ ق١ ص ٤١ لاشية)

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين في اخبار الدولتين ج١ ص ١٥٥

مملوك^(١) . ولا حاجة هنا الى تكرار قصة تولية صلاح الدين الوزارة الفاطمية بعد عمه شيركوه ، وما كان للمماليك الاسدية من فضل في ذلك سنة ٥٦٥ هـ (١١٦٩ م) .

ثم توفي الخليفة العاضد في ١٠ المحرم سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) اي في يوم عاشوراء ، وبموته زالت الدولة الفاطمية الشيعية ، فكأنها انقضت في اليوم الذي استشهد فيه الحسين .

وأخذ صلاح الدين يعمل بعد ذلك على محو آثار الدولة الفاطمية بمختلف الوسائل الحربية والمدنية والثقافية ، فأزال مثلاً جنود الفاطميين من العبيد السود والارمن وغيرهم^(٢) ، وأخذ في تكوين جيش قوامه المماليك الاسدية القدماء ، وسأثره من الاحرار الاكراد الذين اجتذبتهم نعمته الى الدخول في خدمته ، فضلاً عن المماليك الاثراك الذين اشتراهم لنفسه ، وسماهم الصلاحية نسبة الى اسمه ، او الناصرية^(٣) نسبة الى اللقب الذي أضفاه عليه الخليفة العاضد حين ولاه الوزارة . ومن الواضح والمعقول ان أولئك الصلاحية صاروا الحرس الخاص صلاح الدين^(٤) ، كما صار العادلية الذين كونهم أخوه العادل فيما بعد بطاقة خاصة لهذا الامير الكبير .

ويبدو ان المنافسة بين الاسدية القدماء ، والصلاحية المحدثين لم تلبث

(١) أبو شامة : نفس المرجع ج١ ص ١٧٣

(٢) المقريزي : الخطط ج١ ص ٩٤

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج٢ ص ٢٩

(٤) راجع (Lane Poole : A .History of Egypt in the middle

agesp. 242).

ان وضحت أيام صلاح الدين نفسه ، ففي سنة ٥٦٨ هـ (١١٧٢ م) خرجت طائفة من المماليك الاسدية بقيادة قراقوش (١) مملوك تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب الى المغرب لعلها تجد منتجها خارج مصر ، فاستولت على طرابلس ، وأنشأت جالية مملوكية تركية يبدو انها أصل العلاقات المضطربة بين مصر والمغرب أيام الايوبيين والمماليك (٢) .

وكان من حسن طالع صلاح الدين أن سيده الاعلى نور الدين محمود مات بعد ذلك بقليل (٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م) تاركا وراءه في الحكم طفلا في الحادية عشرة من عمره وهو الملك الصالح اسماعيل . كذلك مات في نفس السنة عموري ملك بيت المقدس تاركا وراءه ابنا عاجزا في الحكم وهو بولدوين الابرص (الرابع) . وقد ترتب على ذلك ان دبت الانقسامات الداخلية في كل من مملكتي نور الدين والصليبيين .

ولقد كان في مقدور صلاح الدين بفضل امكانياته الكثيرة في مصر ان ينازل الصليبيين مباشرة في فلسطين ، ولكنه فضل ان يبدأ بجمع كلمة المسلمين وتوحيد مملكة سيده نور الدين التي تفككت بين الامراء الطامعين .

وقضى صلاح الدين خمسة عشر عاما يعمل على جمع الشمل وتوحيد

(١) مملوك آخر غير بهاء الدين قراقوش الاسدي ، وانما هو مملوك تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أخى صلاح الدين ، وصاحب حماة (٥٧٤ هـ - ٥٨٧ هـ) وجد المؤرخ ابي الفداء اسماعيل صاحب كتاب المختصر في اخبار البشر .

راجع (المقرئزي : السلوك ج١ ص ٣١٨)

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٤٢ ، دائرة المعارف الاسلامية مادة « الترك » .

الاجزاء المنفرقة ، واستطاع أخيرا ان يكون جبهة عربية متحدة تمتد من برقة غربا الى الفرات شرقا ، ومن الموصل وحلب شمالا الى النوبة واليمن جنوبا . وقد شرح صلاح الدين سياسته هذه في خطاب أرسله الى الخليفة العباس المستضيء يقول فيه : « ولو أن أمور الحرب تصلحها الشركة لما عز علينا ان يكون هناك كثير من المشاركين ، ولا أساءنا ان تكون الدنيا كثيرة المالكين ، وانما أمور الحرب لا تحتمل في التدبير الا الوحدة ، فاذا صح التدبير لم يحتمل في اللقاء الا العدة (١) » .

وكانت الخطوة المنطقية التالية لهذه الوحدة هي أن يقوم صلاح الدين بهجوم اسلامي عام على مملكة الصليبيين في بيت المقدس . فاتجه بجيوشه الى قلعة طبرية جنوبي القدس (٢) ، فحاصرها وسيطر على آبار المياه المجاورة ، وجعل نهر الاردن وراءه ، وكان هدفه من ذلك هو استدراج الجيوش الصليبية من ساحل الشام الى المكان الذي حدده هو للمعركة ، وهو تل صخري مجاور لا مياه فيه وهو تل حطين . ففي هذا المكان انزل صلاح الدين بالصليبيين هزيمة فادحة في يوليو سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) ، وقتل وأسر منهم عددا كبيرا حتى قال المؤرخ المعاصر ابن الاثير : « وكان من يرى القتلى يحسب أن ليس هناك أسرى ، ومن كان يرى الاسرى يحسب ان ليس هناك قتلى (٣) !! » .

وقد فتح هذا النصر الطريق الى بقية الممتلكات الصليبية ، فاستولى

-
- (١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج٢ ص ٤٨ ، عبد المنعم ماجد :
الناصر صلاح الدين الايوبي ص ٩٦ .
(٢) المقرئزي : السلوك ج١ ق١ ص ٩٥ ، أبو شامة : المرجع السابق
ج٢ ص ٧٦
(٣) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٢٢٤

على عكا - الميناء الرئيسي لبيت المقدس - والجبل Biblos ، وبيروت ، واستعصت عليه صور لانها محاطة بالبحر من معظم نواحيها (١) ، ثم احتل بيت المقدس في اكتوبر من نفس العام ١١٨٧ م (رجب ٥٨٣ هـ) .

وكان لسقوط بيت المقدس في أيدي المسلمين ، وضياع معظم الممتلكات الصليبية ، رد فعل عظيم في غرب أوروبا ، فأخذت البابوية تبشر بحملة صليبية جديدة استجاب لها كل من فردريك بربدوسا امبراطور المانيا ، وريتشارد قلب الاسد ملك انجلترا ، وفيليب الثاني ملك فرنسا ، وهم أعظم حكام غرب أوروبا في هذه الفترة (٢) .

ونجح الصليبيون بفضل قوتهم البحرية احتلال عكا سنة ١١٩١ م ومعظم المدن الساحلية ، وحاول ريتشارد قلب الاسد ان يسترجع بيت المقدس ولكنه فشل تماما ، واضطر ان يعقد صلحا مع صلاح الدين في ٢ نوفمبر سنة ١١٩٢ م ، وأهم شروطه ان يحتفظ الصليبيون بالمدن الساحلية التي تمتد من عكا الى يافا ، وتبقى بيت المقدس تحت الحكم الاسلامي على أن يسمح للحجاج المسيحيين بالحج اليها (٣) .

ولقد اشتركت طوائف المماليك الاسدية والصلاحية والعادلية مع الاكراد والعرب في كل هذه العمليات الحربية التي خاضها صلاح الدين ضد ملوك الشام (٤) و ضد الصليبيين ، فيصف ابن واصل بلاء هؤلاء المماليك أثناء حصار الموصل (٥) سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦ م) وفي محاربة

(١) يصفها ابو شامة بقوله وصور مدينة حصينة معظمها في البحر
كانها سفينة (ج٢ ص ١١٩ الروضتين) .

(٢) ، (٣) عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ص ٢٠١-٢٠٤

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٧٠

(٥) ابن واصل : نفس المرجع ص ٧٨

الصليبيين عند مدينة صور^(١) سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩ م) ، وفي الوقائع المتعددة التي حاول فيها صلاح الدين فك الحصار الصليبي عن عكا سنة ٥٨٥ هـ - ٥٨٦ هـ (١١٩٠ م)^(٢) . ثم في المناوشات التي حدثت مع الصليبيين بالقرب من القدس^(٣) سنة ٥٨٨ هـ (١١٩٢ م) كما يذكر ابن واصل أسماء من استشهد من المماليك في تلك الوقائع . ولم تمنع قوة صلاح الدين وشدة هيبته من معارضة مماليكه ومخالفته في الرأي في بعض الاحيان . ومثال ذلك انكارهم عزمه على التحصن ببيت المقدس انتظارا لمجيء ريتشارد قلب الاسد لحصارها سنة ٥٨٨ هـ (١١٩٢ م) ، اذ بعث المماليك الاتراك رسالة الى صلاح الدين يقولون فيها : « لا مصلحة في ذلك ، فانا نحصر ويجري علينا ما جرى على أهل عكا ، وعند ذلك تؤخذ بلاد الاسلام أجمع . والرأي أننا نضرب مع العدو مصافا ، فان قدر الله تعالى لنا ان نهزمهم ، ملكنا بلادهم ، وان تكن الاخرى ، سلم العسكر ومضى القدس ، وقد انحفظت بلاد الاسلام وعساكرها بمضي القدس . . . انك ان أردتنا نقيم في القدس ، فتكون معنا أو بعض أهلك حتى نجتمع عنده ، والا فلاكراد لا يدينون الاتراك ، والاتراك لا يدينون الاكراد »^(٤) . ونزل صلاح الدين على ارادة المماليك لاهنية القدس عنده ، واضطر ان يقيم من أهله معهم الامير الامجد صاحب بعلبك ، فتمكن بذلك من الاحتفاظ بالقدس في يد المسلمين^(٥) .

على أن موضع الاهنية في هذا الاقتباس السالف الذكر ، هو أن

(١) ابن واصل : نفس المرجع ص ٨٩

(٢) ابن واصل : نفس المرجع ص ٩٠-٩١ ، ٩٦ ، ١٠١-١٠٢

(٣) ابن واصل : المرجع السابق ص ١٢٦

(٤) ابن واصل : المرجع السابق ص ١٣٠ - ١٣١

(٥) ابن واصل : نفس المرجع ص ١٣١

المماليك بلغوا من القوة والكثرة فيما يبدو مما جعل صلاح الدين يستنهم لشورتهم فضلا عن نزوله على ارادتهم وفي ذلك بلاغ لبيان مدى اعتماد الدولة الايوبية منذ أيامها الاولى على فئات المماليك من الاتراك .

وتملأ حوادث الخلف والمنازعات الداخلية بين ابناء البيت الايوبي معظم تاريخ الدولة الايوبية بعد وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣م) . ويرجع ذلك الى تطبيق مبدأ اعتبار المملكة ارثا خاصا يقسم أنصبة متساوية وغير متساوية بين أبناء البيت المالك ، وهو ما جرى عليه العرف في دول الشرق والغرب اوائل العصور الوسطى . كما يرجع الى حرص صلاح الدين ان تكون أهم اقاليم المملكة لابنائهم دون غيرهم مثل أخيه ، وأقدر القادرين على امتلاك ناصية الدولة بعده ، وهو العادل الذي عينه صلاح الدين على أطراف مبعثرة مثل الكرك والشوبك ، ومثل أبناء العادل كذلك . على أن عوامل الانقسام ما لبثت أن دبت بين أبناء صلاح الدين أنفسهم مما جعل للعادل بينهم مدخلا سهلا . ولم يمض على وفاة صلاح الدين سوى سبع سنوات حتى طوى العادل معظم أولئك الابناء ، فحل محلهم على رأس دولة موحدة . وتظهر لنا سياسته الميكافيلية بوضوح في تصريحه الخطير الذي القاه على من حوله من أمراء الدولة الايوبية بصبر مبررا خلعه الملك المنصور بن العزيز بن صلاح الدين : « انه قبيح بي أن اكون أتابك صبي مع الشيخوخة والتقدم ، والملك ليس هو بالارث ، وانما هو لمن غلب » (١)

وقامت طوائف المماليك الصلاحية والاسدية بدور كبير في تلك

(١) القريري : السلوك ج١ ص ١٥٥

الحوادث^(١) ، اذ ناصرت الصلاحية العزيز بن صلاح الدين ، وابنه الملك المنصور ، وشاربت العادل وأطماعه . وكان مقدم الصلاحية الامير فخر الدين جهاركس^(٢) مملوك صلاح الدين . اما الاسدية وكبيرهم سيف الدين يازكوج^(٣) مملوك شيركوه أصلا ، فان العادل استغل ما بينهم وبين الصلاحية من تحاسد وتنافس ، واستطاع في مكر ودهاء ووعود خلافة ان يستميلهم اليه ما عدا الامير بهاء الدين قراقوش^(٤) الاسدى الذي بقى نائبا مخلصا للملك العزيز في القاهرة^(٥) . وظل النزاع بين هاتين الطائفتين

(١) المقرئزي : السلوك ج ١ ص ٢١٤ - ١٢٥ ، ابو المحاسن : النجوم

الزاهرة ج ٦ ص ١٢٣
(٢) يروى المقرئزي (الخطط ج ٢ ص ٨٧ - ٨٩) وابن خلكان (وفيات الاعيان ج ١ ص ٢١٣) ان جهاركس كلمة فارسية معناها أربعة أنفس ، على حين يروى ابو شامة (الذيل على الروضتين ص ٧٩) ان لفظ جهاركس معناه ان اشترى بأربعمائة دينار ، غير ان العمري (التعريف بالمصطلح الشريف ص ٤٣) يقول ان جهاركس وجركس وشركس طائفة من طوائف الشمال كالروس من مملكة توران . راجع كذلك :

(E. Herzfeld : Damascus, Studies in Architecture III, ars Islamica, Vols XI — XII p. 50).

(٣) كان على رأس المماليك الاسدية بمصر ايام صلاح الدين وابنه العزيز . ومات سنة ٥٩٩ هـ (١٢٠٢ م) ودفن بالمعظم . (المقرئزي : الخطط ج ٢ ص ٣٦٨)

(٤) قراقوش اسم تركي معناه العقاب الطائر . كان مملوكا لاسد الدين شيركوه ثم انتقل الى خدمة صلاح الدين وصار نائبا عنه في القاهرة اثناء غيابه . وتنسب اليه احكام عجيبة اثناء ولايته والظاهر انها موضوعة اذ تثبت النصوص عدله وكفايته . وهو الذي بنى السور الذي احاط بالقاهرة ومصر وما بينهما كما بنى قلعة الجبل (اي جبل المقطم) وتوفي سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠٠ م) انظر (ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١ ص ١٨٣ ، المقرئزي : الخطط ج ٢ ص ٩٣) .

(٥) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٢٩

قائما ما ظل الخلاف بين الملوك الايوبيين ، حتى تغلب العادل ووحيد كلمة بنى أيوب ، فكان ذلك نصرا للاسدية . وقد خلع عليهم الملك العادل ورد اليهم اقطاعاتهم بمصر (١) . أما طائفة المماليك الصلاحية ، فانها آلت الى ما آل اليه أبناء صلاح الدين وأحفاده من الضعف . وزادها ضعفا وفاة بعض زعمائها أمثال جهاركس في ٢٠ رجب سنة ٦٠٨ هـ (ديسمبر ١٢١١ م) (٢) ، وعزالدين أسامة ، فضلا عن اضطهاد العادل لمن بقى من أولئك الزعماء باستيلائه على حصونهم واقطاعاتهم (٣) .

وللمماليك الاسدية والصلاحية خانات ودروب وحمامات وأسواق ومدارس ظل بعضها يحمل أسماءهم مدة من الزمان ، مثل درب الجاولي الكبير بجوار الجامع الأزهر نسبة الى الامير عزالدين الجاولي الاسدي (٤) ، ودرب الوشاقى بحارة زويلة نسبة الى حسام الدين سنقر الوشاقى الصلاحى (٥) ، وحمام كتبغا الاسدي بخط ما بين القصرين (٦) ، وحمام

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ١٢٨

(٢) دفن جهاركس بجبل الصالحية عند جبل قاسيون في شمال غرب دمشق ، ونقش على تربته المعروفة بقباب شركس العبارة التالية : هذه التربة المباركة للامير الكبير الغازى المجاهد فخر الدين ، حافظ ثغور المسلمين ، قاتل الكفرة المشركين ، اياز جهاركس الناصري . توفي عقب عودة الغزاة في العشرين من رجب سنة ثمان وستمائة ، رحمة الله عليه وعلى جميع الاموات المسلمين ، آمين . راجع

(H. Sauvaire : Description de Damas, Journal asiatique, tomé IV, 1894, p. 249 — 251, hote 32).

(٣) كانت بانياس وشقيف أرنون للامير جهاركس بينما كانت قلاع كوكب وعجلون ملكا للامير عزالدين أسامة . (ابو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ١٢٠ ، المقرئى : السلوك ج ١ ص ١٧٥) .

(٤) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٣٨

(٥) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٤١

(٦) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٨٣ والمقصود بالقصرين : القصر



تتر بناحية دار الوزارة الكبرى ، وكان تتر هذا أحد ممالك أسد الدين شيركوه ، وظل اسمه يطلق على تلك الجهة حتى خربت وسميت خرائب تتر وان كانت العامة حرفت اللفظ فقالوا خرائب التتر (١) . ثم حمام كرجي نسبة الى علم الدين كرجي الاسدي وهي بنواحي خرائب تتر (٢) ، وهناك قيسارية جهاركس (عمارة كبيرة بها حوانيت) التي بناها الامير فخر الدين جهاركس بالقاهرة سنة ٥١٢ هـ (١١٩٦ م) وبنى في أعلاها مسجدا كبيرا . وقد بلغت من العظمة مبلغا جعل جماعة من التجار الذين شهدوها يقولون بأنهم لم يروا في البلاد مثلها في حسنها وعظمتها واحكام بنائها (٣) . ولجهاركس أيضا مدرسته المعروفة باسم « المدرسة الجهاركسية » (٤) ، وكانت ملاصقة لتربته بدمشق ، ودرس بها عدد من كبار العلماء نذكر منهم القاضي تقي الدين محمد بن عبد اللطيف السبكي الشافعي المتوفي (٦) سنة ٧٤٤ هـ (١٣٤٤ م) . وهناك المدرسة الازكشية التي بناها بالقاهرة الامير أيازكوج الاسدي (٦) ، والمدرسة المسرورية التي بناها الخواص مسرور مقدم حلقة صلاح الدين (٧) . وهناك خان



الشرقي الكبير والقصر الغربي على عهد خلفاء الفاطميين ويقابلها الان خان الخليلي ومسجد الحسين وسوق النحاسين بالقاهرة .

(٢) ، (٣) المقريري : الخطط ج ٢ ص ٨٠

(٤) المقريري : الخطط ج ٢ ص ٨٧ - ٨٨ ، ابن خلكان : وفيات

الاعيان ج ١ ص ١٢٠ .

(٥) (Herzefeld : Madrasa al Charkasiya, ars Islamica vols. (٥)

XI — XII p. II).

(٦) هو والد تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي صاحب

طبقات الشافعية الكبرى (ت سنة ٧٧١ هـ) .

(٧) المقريري : الخطط ج ٢ ص ٣٦٧

(٨) المقريري : الخطط ج ٢ ص ٣٧٨

السبيل الذي بناه بهاء الدين قراقوش الاسدي للمسافرين خارج باب الفتوح بالقاهرة^(١) ، وسويقة البلشون نسبة الى الامير سنقر البلشون الصلاحي^(٢) ، الى غير ذلك من المنشآت المختلفة التي ان دلت على شيء فانما تدا، علك مقدار ما بلغه ممالك الايوبيين الاوائل من نفوذ وكثرة *

وكان طبيعي ان تزداد اعداد الممالك الاثراك مدة النزاع بين أبناء صلاح الدين وعمهم العادل ، وان يستمر سلاطين الايوبيين وملوكهم على استجلاب الممالك لتغذية جيوشهم ، ولذا يطفح تاريخ الايوبيين بأسماء الممالك العزيزية نسبة الى العزيز بن صلاح الدين ، والعاولية نسبة الى العادل ، والاشرفية نسبة الى الاشرف موسى بن العادل^(٣) ، والكاملية نسبة الى الكامل بن العادل ، والصالحية نسبة الى الصالح أيوب بن الكامل ، وهكذا . وقد تدخلت هذه الفئات المملوكية في اقامة السلاطين الايوبيين وعزلهم ، فلما توفي العادل سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) كرهت العاولية تولية ابنه الكامل ، وأرادت أخاه المعظم ، فقبض الكامل بعد سلطنته على كثير من أمرائهم وصادر أموالهم^(٤) . ثم توفي الكامل سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٨ م) وخلفه على عرش مصر ابنه الاصغر ، وهو العادل الثاني ، وبقي ابنه الاكبر وهو الصالح أيوب على ولايته بالبلاد الفراتية لان أم العادل ارادت ان يكون ابنها سلطانا ، فكان لها ما أرادت^(٥) . غير أن الممالك الكاملية لم يرضوا عما تم ، فحالفوا الاشرفية

(١) المقريري : الخطط ج٢ ص ٩٣

(٢) المقريري : الخطط ج٢ ص ١٠٣

(٣) ولى الجزيرة سنة ٦٠٧ هـ ثم حمص سنة ٦١٧ هـ ثم دمشق سنة ٦٢٦ هـ وتوفي سنة ٦٣٥ هـ .

(٤) المقريري : السلوك ج١ ص ٢٢٣

(٥) ذكر المقريري (السلوك ج١ ص ٢٣٨) أن ام العادل أرسلت الى



ومقدمهم عزالدين أيبك الاسمر ، وما زالوا حتى انتهزوا فرصة خروج العادل الصغير لمحاربة قريبه صاحب الكرك ، فقبضوا عليه في بليس ، وخلعوه سنة ٦٣٧ هـ (١٢٤٠ م) . ولم يتحرك لنصرة العادل الصغير الا الاكراد الذين سرعان ما انهزموا على يد المماليك الكاملية والاشرفية من الاتراك (١) .

ومن هذه الحادثة يتبين مدى تفوق القوة المملوكية التركية على القوة الكردية في دولة بنى أيوب .

ولم تكن اصعب الصالح أيوب صاحب الحق في العرش ، بعيدة عن تلك الحوادث ، غير ان الكاملية والاشرفية الذين اتفقوا على خلع العادل الصغير اختلفوا فيما بينهم حول خلفه ، ومال الاشرفية الى سلطنة اسماعيل ابن العادل الاول صاحب دمشق وعم الصالح أيوب ، على حين مال الكاملية ، وهم أقوى شوكة ، الى الصالح أيوب ، فلم يسع الاشرفية الا موافقتهم ، واستدعى الصالح أيوب أخيرا لتولى السلطنة في مصر ، فدخلها سنة ٦٣٨ هـ (١٢٤٠ م) (٢) .

وكيفما كان الامر ، فالمهم هنا هو ان المماليك بلغوا من القوة في الدولة الايوبية ما جعلهم يخلعون سلطانا ويقيمون آخر .



الملك الكامل حينما كان بالرقه سنة ٦٢٧ هـ تخبره بان ابنه الصالح ايوب عزم على الاستيلاء على الملك وطردها هي وابنها العادل منها فتغير الكامل على ابنه الصالح ايوب وخلعه من ولاية العهد وعهد الى ابنه العادل .

(١) المقرئزي : السلوك ج١ ص ٢٩٤ - ٢٩٥

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٣٣٧ ، المقرئزي : السلوك

ج١ ص ٢٩٦

وعنى الصالح أيوب منذ تبوئه عرش مصر بالاكثار من شراء المماليك الاتراك الى درجة لم يبلغها غيره من أهل بيته حتى صار معظم جيشه منهم (١) ، بعد ان ظل عنصر الاكراد الاحرار عدة الدولة الايوبية منذ نشأتها . والسبب في ذلك يرجع الى خوف الصالح أيوب من اجتماع الملوك الايوبيين ضده بزعامه عمه اسماعيل ، وخشية من انقلاب الكاملية والاشرفية عليه اذا رجحت لديهم كفة اعدائه (٢) . هذا ، ويبدو ان الصالح أيوب لم يستكثر من المماليك فحسب ، بل انه أباح لهم الحرية دون غيرهم من الطوائف الاخرى حتى ضج الاهلون من عبثهم واعتداءاتهم على النفس والمال (٣) . عندئذ رأى الصالح أيوب ان يبعدهم عن العاصمة ، فابتنى لهم سنة ٦٣٨ هـ (١٢٤١ م) قلعة خاصة بجزيرة الروضة قرب المقياس ، وأسكنهم بها ، كما اتخذها مقرا لملكه ، وزودها بكثير من الاسلحة والات الحربية وما يحتاج اليه من الغلال والمؤن . وعرف هؤلاء المماليك الجدد باسم المماليك البحرية الصالحية (٤) . والمماليك البحرية مثل غيرهم من المماليك السابقين واللاحقين ابعدهم عن الخجل من أصلهم او فصلهم او نشأتهم ، بل طالما افتخروا بأنهم مماليك ، لان علاقة

-
- (١) ابو الفداء : المختصر في اخبار البشر ج٣ ص ١٨٨ ، ابن اياس : بدائع الزهور ج١ ص ٧٠ ، المقرئزي : السلوك ج١ ص ٣٣٩ - ٣٤٠ .
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٣٣٩ - ٣٤٠ .
(٣) قال في ذلك احد الشعراء المعاصرين (ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣١٩) :
الصالح أيوب اكثر من ترك بدولته يا شر مجلوب
قد أخذ الله أيوبا بفعلته فالناس قد أصبحوا في ضر أيوب
والضر هنا إشارة الى قوله تعالى : وأيوب اذ نادى ربه انى مسنى
الضر وانت أرحم الراحمين . (سورة الانبياء)
(٤) المقرئزي : الخطط ج٢ ص ١١٦ ، ٢١٧ .

المملوك بسيد. في الشرق عامة علاقة عائلية أكثر منها علاقة عبودية ، ولم يحل ذلك الاصل دون تربيتهم تربية طيبة ، واعدادهم أحسن اعداد لوظائف الحكومة والادارة والجيش . غير ان المراجع المعاصرة لا تشرح طرق التربية التي سار عليها الايوبيون في تنشئة المماليك ، بل ليس لدينا في ذلك الصدد سوى ما كتبه المقرئ في وصف ما جرت عليه الدولة المملوكية نفسها في تربية مماليكها بعد ذلك . على أن الاعتماد هنا على مبدأ تطبيق المتأخر على المتقدم يدعو الى الاطمئنان ، اذ المعروف ان الدولة المملوكية وليدة الايوبيين ، ونظمها من نظمهم ، ولا محل للتردد في القول بان الصورة التي اوردها المقرئ في شرح تربية المماليك على عهد الدولة المملوكية لا يمكن ان تخرج عن الصورة التي درج عليها الايوبيون في تربية مماليكهم ، ما عدا ما يكون هناك من التعديلات التفصيلية التي أدخلها سلاطين المماليك أنفسهم ، « فاذا قدم بالمملوك تاجره ، عرضه على السلطان فيشتريه ويجعله في طبقة جنسه ، ويسلمه الى المختص برسم الكتابة ، فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج اليه من القرآن الكريم . ولكل طائفة فقيه يأنيها كل يوم ، يأخذ في تعليمها القرآن ، ومعرفة الخط والتمرين بأداب الشريعة الاسلامية ، وملازمة الصلوات والاذكار . وصار الرسم اذ ذاك الا تجلب التجار الا المماليك الصغار ، فاذا شب الواحد من المماليك ، علمه الفقيه شيئاً من الفقه ، وأقرأه فيه مقدمة ، فاذا صار الى سن البلوغ ، أخذ في تعليمه فنون الحرب من رمى السهام ولعب الرمح ونحو ذلك ، فيتسلم كل طائفة معلم حتى يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج اليه . واذا ركبوا الى لعب الرمح او رمى الشباب ، لا يجسر جندي ولا أمير ان يحدثهم او يدنو منهم ، عند ذلك ينقل الى الخدمة ، ويتنقل في أطوارها رتبة بعد رتبة الى أن يصير من الامراء ، فلا يبلغ هذه الا وقد تهذبت أخلاقه ، وكثرت آدابه ، وامتزج تعظيم الاسلام وأهله بقلبه ، واشتد ساعده في رماية الشباب ،

وحسن لعبه بالرمح ، ومرن على ركوب الخيل . وقد كان لهم خداما وأكابر من النواب يفحصون الواحد منهم فحصا شافيا ويؤاخذونه أشد المؤاخذة ، ويناقشونه على حركاته وسكناته ، فان عشر أحد مؤدبية الذي يعلمه القرآن ، او رأس النوبة الذي هو حاكم عليه ، على أنه اقترف ذنبا ، أو أخل برسم ، او ترك أدبا من آداب الدين أو الدنيا ، قابله على ذلك بعقوبة شديدة بقدر جرمه . فلذلك كانوا سادة يدبرون الممالك ، وقادة يجاهدون في سبيل الله ، وأهل سياسة يبالغون في اظهار الجميل ويردعون من جار أو تعدى (١) » .

وللمماليك الصالحية النجمية بالقاهرة خانات ودروب وحمامات ومدارس على غرار منشآت المماليك الاسدية والصلاحية ، نذكر منها المدرسة الغزنوية التي بناها حسام الدين قايماز الصالحي النجمي (٢) ، والخانقاه البندقدارية التي بناها الامير علاء الدين البندقداري الصالحي النجمي (٣) ، ومطبخ سكر الامير فارس الدين أقطاي الصالحي النجمي (٤) ، وحمام الرومي بجوار حارة برجوان نسبة الى الامير سنقر الرومي الصالحي النجمي (٥) . . . الخ . وكل هذا يدل على ان الدولة الايوبية استخدمت المماليك الاثراك استخداما واسعا بدليل كثرة المباني والعمائر التي شيدها هؤلاء المماليك .

بقيت مسألة تستحق التصحيح في موضوع المماليك البحرية وهي

(١) المقريري : الخطط ج ٢ ص ٢١٣ - ٢١٤

(٢) المقريري : الخطط ج ٢ ص ٣٩٠

(٣) المقريري : نفس المرجع ج ٢ ص ٤٢٠

(٤) ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الامصار ج ٤ ص ٤٤

(٥) المقريري : الخطط ج ٢ ص ٨٣

أن معظم المؤرخين السابقين والمحدثين أجمعوا على أن السلطان الصالح نجم الدين أيوب هو أول من رتب الممالك البحرية ، وأول من سماهم بذلك الاسم نسبة الى بحر النيل الذي احاط بشكناهم في جزيرة الروضة، غير ان هذا الرأي لا يستند الى أساس علمي صحيح^(١) للأسباب الآتية :-

أولا : المؤرخون المعاصرون للصالح أيوب أمثال ابن واصل و ابي شامة لم يشيروا الى بحر النيل كأصل لكلمة بحرية . هذه النسبة أوردتها بعض المؤرخين المتأخرين أمثال المقرئزي و ابي المحاسن .

ثانيا : من المعروف ان الفاطميين من قبل ، كانت لهم طائفة من الجند تعرف « بالغز البحرية »^(٢) ، كذلك كان للسلطان العادل الاول ، جد الصالح أيوب ، فرقة من الممالك أسماها « البحرية العادلية »^(٣) ، وهذا يدل على أن الملك الصالح أيوب لم يكن أول من اخترع هذا اللفظ .

ثالثا : يروى الخزرجى ان سلطان اليمن نور الدين عمر بن رسول (ت ٦٤٧ هـ) الذي كان معاصرا للصالح أيوب في مصر ، « استكثر من الممالك البحرية حتى بلغت عدتهم ألف فارس ، وكانوا يحسنون من الفروسية والرمى ما لا يحسنه ممالك مصر ، وكان معه من الممالك الصغار قريب منهم في العدد خارجا عن حلقته وعساكر أمرائه »^(٤) .

(١) أول من شك في هذه النسبة هو استاذى المرحوم الدكتور محمد مصطفى زيادة في بحثه القيم (بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة الممالك ، مجلة كلية آداب القاهرة ، المجلد الرابع ١٩٣٦) وقد اتاحت لى قراءاتي أن أضيف بعض النصوص التي تؤيد رأيه رحمه الله .

(٢) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٤ ص ٩٠

(٣) زيادة : المرجع السابق

(٤) راجع (الخزرجى : العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية

ج١ ص ٨٢)

هذا النص يدل على أن لفظ بحرية استخدم في بلاد اسلامية بعيدة كل البعد عن بحر النيل .

رابعا : أطلق المؤرخون العرب المعاصرون على بعض الفرق المسيحية العسكرية التي جاءت من أوروبا الى الشام أثناء الحروب الصليبية ، اسم « الفرنج الغرب البحرية » ، فيروى أبو شامة « انه في سنة ٥٩٣ هـ فتح الملك العادل يافا . . . ومن عجب ما بلغنى أنه كان في قلعتها أربعون فارسا من « الفرنج الغرب البحرية » ، فلما تحققوا نقب القلعة وأخذها ، دخلوا كنيستها ، وأغلقوا عليهم بابها ، وتجالدوا بسيوفهم بعضهم لبعض الى أن هلكوا جميعا . وكسر المسلمون الباب وهم يرون ان الفرنج ممتنعون ، فالفوهم قتلى عن آخرهم ، فتعجبوا عن حالهم » (١) .

فلفظ بحرية اذن لم يكن جديدا على مصر حينما أنشأ الملك الصالح أيوب فرقته البحرية ، بل كان لفظا عاما اطلق على المسلمين والمسيحيين سواء ، كما استخدم في مصر وفي خارج مصر قبل عهد الصالح ايوب ، وهذا يؤيد القول بأن نسبة هذا اللفظ الى بحر النيل أمر مشكوك في صحته . على أن المشكلة الاخيرة في هذا الصدد هي لماذا سميت هذه الفرق بالبحرية ؟ للإجابة على هذا السؤال يجب اولاً ان نشير الى ما قلناه آنفاً عن خطأ الفكرة الشائعة بأن لفظ بحرية يرجع الى بحر النيل الذي احاط بشكناات فرقة البحرية الصالحية بجزيرة الروضة ، فهذه النسبة لم يذكرها

(١) أبو شامة : الدليل على الروضتين ، نشره عزت العطار الحسينى تحت عنوان : (تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجرى) ص ١٠ - ١١ ، ٥٢ ، ١٥١ - هذا ويلاحظ ان كلمة « الغرب البحرية » قد تقرا ايضا « العزب البحرية » اي أنهم كانوا غير متزوجين .

المؤرخون المعاصرون بتاتا ، فضلا عن أن وجود هذا الاسم منذ العهد الفاطمي في مصر ينفي هذا الزعم أيضا •

وأغلب الظن انهم سموا بحرية لانهم جاءوا من وراء البحار ، اذ جاء في جوائفيل أنهم « يسمون بحرية أو رجال ما وراء البحر (١) » • وجوائفيل الذي حارب الممالك البحرية الصالجية في حملة لويس التاسع، وأسر عندهم وتحدث اليهم ، روايته لها قيمتها بصفته رجل معاصر وشاهد عيان • واذا علمنا ان الممالك البحرية زمن الايوبيين والممالك عبارة عن فئة من الغرباء الذين جلبوا من أسواق النخاسة بالقوقاز وآسيا الصغرى وشواطئ البحر الاسود ، وأن الطريق العادى الذي سلكوه من بلادهم الى مصر هو عبر البحر الاسود ثم بحر القرم الى خليج القسطنطينية ومنه الى البحر الابيض المتوسط حيث يسرون فيه الى ميناء الاسكندرية أو دمياط (٢) ، تأيدت لدينا عبارة جوائفيل •

غير ان فضل جوائفيل لا يقتصر على تفسيره لفظ بحرية التى لصقت بدولة الممالك الاولى ، بل يتعداه الى تسجيله حوادث الحملة الصليبية التى جاء على رأسها لويس التاسع ملك فرنسا للاستيلاء على مصر • ففي تلك الحملة وضحت قيمة الممالك البحرية ، وحوادثها هي التى مهدت لهم ولدولتهم في مصر والشام • ذلك أنه بينما تستقر الامور للصالح ايوب في مصر والشام ، اذا بالانباء تصله بأن حملة صليبية في طريقها الى مصر ،

(١) انظر (Joinville : History of St. Louis, tr. Joan Evans p. 84).

وكذلك (Joinville : Saint Louis King of France tr. James Hutton, p. 74).

(٢) الفلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٦٩

وأن قائدها الفرنسيين نفسه (أي ملك فرنسا المعروف بالقدّيس لويس) ، ويقول ابن واصل والمقرّبي أن أخبار تلك الحملة بلغت السلطان الصالح أيوب عن طريق الامبراطور فردريك الثاني هو هشتاوفن امبراطور المانيا وصقلية ، وأن رسوله تنكر في زي تاجر قصد الى حضرة السلطان الصالح أيوب فوجده مريضا بدمشق (١) .

وإذا كان سقوط بيت المقدس في أيام صلاح الدين سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) هو الذي بعث على قيام الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة ، فإن سقوطها للمرة الثانية سنة ٦٤٣ هـ (١٢٤٤ م) في يد الملك الصالح أيوب وحلفائه الخوارزمية (٢) كان السبب الذي أدى الى الحملة الصليبية المعروفة بالسابعة بقيادة لويس التاسع على مصر (٣) . إذ أن أبناء الهزائم التي منى بها الصليبيون عند غزة ، وتسليمهم بيت المقدس ، والفظائع التي ارتكبتها الخوارزميون ، وصلت أوروبا في كثير من المبالغة المعهودة ، فكان لا بد لتلك الأنباء أن تثير الروح الصليبية في قلب لويس التاسع .

غير أن تلك الحملة تختلف عن الحملة الثالثة وغيرها من الحملات الصليبية عموما في أنها لم تكن شاملة لمختلف الأوربيين ، بل فرنسية اغلبها

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٢١ ، المقرّبي : السلوك ج١ ص ٣٣١ حاشية ٢ . وكذلك :

(King : The knights Hospital'ers in the Holy Land p. 240) .

(٢) ، (٣) راجع (King : Op. cit. p. 24) ويلاحظ أن الجنود الخوارزمية

هنا هم في الاصل جنود جلال الدين خوارزمشاه سلطان الدولة الخوارزمية التي قضى عليها جنكيزخان المغولي وشرّد جنودها فصاروا مناسر حربية تحاول الدخول في طاعة من يريد استخدامها . وقد صاهر الصالح أيوب زعيما من زعماء تلك المناسر واسمه بركة خان إذ زوجه اخته من أمه واستعان به ضد الصليبيين واسترداد القدس .

من الفرنسيين ، لانصراف المانيا وايطاليا وقتذاك الى النزاع الامبراطوري البابوي ، وفشل لويس التاسع في ازالة الخلف بين البابا انوسنت الرابع والامبراطور فردريك الثاني . ففي مجمع ليون الديني وهو المجمع الذي عقد سنة ١٢٤٨ م (٦٤٦ هـ) للنظر فيما وصل الى البابوية من أخبار الشرق ، واعلنت فيه الحملة بقيادة لويس التاسع ، دعا البابا الى حملة سماها صليبية ضد فردريك الثاني باعتباره خارجا على الكنيسة مقطوعا من رحمتها (١) .

وكانت الفكرة السائدة في أوروبا المسيحية منذ أواسط القرن الثاني عشر الميلادي أنه ما دامت مصر باقية على ما هي عليه من القوة والبأس ، فإن مشاريع الصليبيين في الشام فاشلة لا محالة ، ولا بد من حرمان الجبهة الاسلامية من تلك القاعدة الحربية الهامة (٢) . وأصل تلك الفكرة عموري الاول صاحب الحملات المشهورة التي مهدت للدولة الايوبية في مصر ، واتخذها حنا بريين Jean de Brienne ملك بيت المقدس محورا لسياسته وحملته الفاشلة التي دهمت الشواطئ المصرية سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) زمن السلطان الكامل ، كما جعلها لويس التاسع وسيلة لتحقيق غاياته واحلامه الصليبية . ولم تخف تلك الحقيقة على المؤرخ ابن واصل حينما قال « . . . ان ملك فرنسا ريدافرانس حدثه نفسه بأن يستعيد البيت المقدس الى الفرنج . . . وعلم ان ذلك لا يتم الا بملك الديار المصرية (٣) » .

ثم أبحر الاسطول الفرنسي من ميناء مرسيليا في خريف سنة ١٢٤٨ م

(١) انظر «King : Op. cit. p. 242»

(٢) راجع «Lane Poole: A History Egypt in the middle ages p. 218»

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٣٥١ ، المقرئبي : السلوك

ج١ ص ٣٣٤ حاشية ٢

الى جزيرة قبرص التي كانت تحت حكم آل لوزجنان Lusignan وهم مسيحيون لاتينيون . وهناك أقام لويس التاسع مدة الشتاء ، أجرى خلالها بضعة اتصالات مع المغول بغية تحويلهم الى المسيحية والاستفادة من جهودهم في تطويق العالم الاسلامي في الشرق الادنى (١) . وأخيرا ابجرت الحملة من قبرص في مايو سنة ١٢٤٩ م متجهة الى مصر بعد أن بلغ عدد رجالها حوالي الخمسين ألف محارب (٢) ، وصحب الملك أخوه شارل دي أنجو «Anjou» وروبرت دي أرتوا «Artois» .

وعلم الصالح أيوب أن مدينة دمياط سوف تكون مجاز الصليبيين المفضل لغزو مصر ، فعسكر بجيوشه جنوبها في بلدة اشموم طنح وهي اشسون الرمان بمرکز دكرنس في العصر الحاضر ، وأمر بتحسين دمياط وتزويدها بالذخائر والاسلحة ، ووضع فيها حامية من عرب بنى كنانة ، كما أرسل جيشا اليها بقيادة الامير فخر الدين يوسف ، وأمره ان ينزل بساحلها الغربي ليحول دون نزول العدو الى الشاطئ ، فنزل هناك تجاه المدينة وأصبح النيل بينه وبينها (٣) .

ثم وصل الاسطول الصليبي الى المياه المصرية قبالة دمياط بتاريخ ٤ يونيو سنة ١٢٤٩ م . وفي اليوم التالي نزل الصليبيون الى البر الغربي للنيل حيث وقعت بينهم وبين المسلمين مناوشات ، انسحب بعدها الامير

(١) لم ينفذ الخان المغولي هذه الخطة حتى ان الملك لويس التاسع ندم فيما بعد على حسن معاملته لرسله . انظر :

«Wedgewood : Memoirs of Jounville p. 64 mote to chaps. V»

King : Op. Cit. p. 242 (٢)

(٣) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٢٣١ - ٢٣٢ .

فخر الدين بجيشه وبغاية المدينة الى المعسكر السلطاني باشموم طنح • وجفل أهل دمياط على أثر ذلك خائفين مذعورين ، وتركوا جسر السفن الذي يصل بين البر الغربي ودمياط قائما ، فعبر عليه الصليبيون واحتلوا المدينة بسهولة • واستشاط السلطان الصالح ايوب غضبا لما وقع ، فأمر بشنق الكنائيين الذين ارتدوا عن دمياط دون قتال ، كما تغير على الامير فخر الدين واشتد في تأنيبه لدرجة ان بعض الامراء هموا بقتل السلطان لولا نصيحة فخر الدين لهم بالتريث لان السلطان مريض بمرض خطير وصائر لاجله عن قريب (١) •

ويعلل المؤرخ الفرنسي المعاصر جوانفيل ، ذلك الانسحاب بأن الامير فخر الدين راسل السلطان ثلاث مرات بالحمام الزاجل يخبره بنزول الفرنج الى الساحل ولكنه لم يتلق ردا فظن أنه مات وآثر الرجيل بسرعة (٢) • ويفهم من كلام ابن واصل والمقريزي ان الامير فخر الدين كان يطمع في سلطنة مصر لنفسه « وأن همته كانت تترقى الى الملك » (٣) ، فلعل انسحابه كان سبيلا لتحقيق أمانيه اعتقادا منه بأن السلطان قد مات • وكيفما كان الامر ، فان السلطان اضطر أمام هذه الاحداث الى الارتداد بمعسكره الى مدينة المنصورة حيث نزل بالقصر السلطاني على ساحل النيل ، ورابطت السفن الحربية في النيل تجاه المدينة ، كما اخذت جموع العربان والجنود المطوعة تفد الى تلك القاعدة الجديدة لمواجهة الخطر الداهم •

(١) المقريزي : السلوك ج١ ص ٣٣٦

(٢) راجع «Joinville: History of Saint Louis, tr. by Evans p. 52»

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٣٦٤ - ٣٦٦ ، المقريزي :

السلوك ج١ ص ٣٤٥

وصارت العمليات الحربية في تلك الاثناء مجرد غارات يشنها
الفدائيون المسلمون على معسكرات الصليبيين واختطاف كل من تصل
أيديهم اليه ، فاذا شعر بهم الفرنج ، ألقوا بأنفسهم في الماء وسبحوا الى
ان يصيروا في بر المسلمين . وكانوا يتحيلون في اختطاف الفرنج بكافة
الطرق التي تثير الدهشة والاعجاب مثال ذلك ان مجاهدا من المسلمين قور
بطيخة خضراء وأدخل رأسه فيها ثم غطس في الماء الى أن قرب من الفرنج .
فظنه بعضهم بطيخة سائبة في الماء ، ولما نزل لاخذها خطفه ذلك الفدائي
وأتى به أسيرا الى معسكر المسلمين (١) .

واستمر الحال على ذلك المنوال ستة اشهر من يونيو الى نوفمبر
سنة ١٢٤٩ م ، ولويس التاسع ينتظر في دمياط قدوم أخيه الثالث كونت
دي بواتيه «Poitiers» فلما وصل هذا الاخ ، عقد الملك مجلسا للتشاور
في أحسن طريق تسلكه الحملة . فأشار البعض بالذهاب الى الاسكندرية (٢)
لأنها مرفأ طيب يمكن ان تأوى اليه السفن ، ويكون التموين فيه سهلا ،
ولكن الكونت دى أرتوا عارض ذلك الرأي قائلا بضرورة الذهاب الى
أهم مدينة بالقطر المصري وهي القاهرة : « فمن يريد قتل الثعبان فليحطم
رأسه اولاً » ، ووافق لويس التاسع على رأي أخيه (٣) .

وبينما يستقر الرأي على الزحف صوب القاهرة ، توفي الملك

(١) المقريري : السلوك ج١ ص ٣٤٨ ، جوزيف نسيم : العدوان
الصليبي على مصر ص ١٥٣

(٢) انظر

«Oman: Histry of art of war in the middle ages, vol. 1. p. 54»

(٣) انظر «Joinville : History of St. Lous tr. by Évans p. 54»

الصالح أيوب ، فقامت زوجته شجرة الدر ^(١) بتدبير شؤون الدولة بعد أن أخفت خبر موته خوفا من حدوث فتنة بين صفوف المسلمين . وفي الوقت نفسه أرسلت الى ابن زوجها وولى عهده تورانشاه تحته على الرحيل من ولايته في حصن كيفا بأطراف العراق والقدوم الى مصر ليعتلى السلطنة بعد أبيه .

ثم علم الفرنج بوفاة الصالح أيوب ، فانتهزوا الفرصة وتركوا دمياط زاحفين. جنوبا على شاطئ النيل الشرقي لفرع دمياط ، وسفهم تسيير حذاهم في النيل . وبعد عدة وقفات في فارسكور ، وشارمساح ، وفارامون ، وصلوا الى بحر أو قناة اشمووم ^(٢) طنح في ١٩ ديسمبر سنة ١٢٤٩ م ، فصار على يمينهم فرع النيل ، وأمامهم قناة اشمووم التي تفصلهم عن معسكرات المسلمين القائمة عند مدينة المنصورة ^(٣) . ولمواصلة التقدم جنوبا ، تعين على الفرنسيين ان يعبروا اما فرع دمياط او قناة اشمووم ، فاختر لويس التاسع القناة . وما زال حتى دله بعض الخونة على مخائضها مقابل مبلغ من المال . فعبرت الخيالة الصليبية دون ان تلقى

(١) المصادر المعاصرة وشبه المعاصرة تذكر الاسم كما ورد هنا في المتن: شجرة الدر ، اما المراجع المتأخرة فتذكره بصيغة شجرة الدر ، ومن الواضح ان تسمية المعاصرين واشباههم هي الاصح ، وقد أيد المؤرخون الاوربيون صحة تسميتها بشجرة الدر امثال دائرة المعارف الاسلامية ، ولين بول ، وجاستون فييت ، وكنج ، وغيرهم .

(٢) هو المعروف اليوم باسم البحر الصغير أحد فروع الري الشهيرة بمديرية الدقهلية وكان يسمى بحر اشمووم نسبة الى مدينة اشمووم طنح الواقعة عليه . راجع : (ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٢٣١ - ٢٣٢ حاشية رقم ٥)

(٣) حول تعيين من دل الفرنج على هذه المخائض واختلاف الاقوال فيه ، راجع (المقرئزي : السلوك ج١ ص ٣٤٩ حاشية رقم ١) .

مقاومة أثناء عبورها (١) ، ولم يشعر المسلمون الا والفرنج معهم في المعسكر ، فانتشر الذعر بين الجند ، وخرج الامير فخر الدين يوسف قائد الجيوش المصرية من الحمام ، وامتنطى صهوة جواده دون ان يلبس درعه، وحاوّل ان يلم شمل الجنود الفارين بالهجوم هو وبعض مماليكه على العدو المتقدم ، ولكن السيوف اعتورته من كل جانب ، فسقط قتيلًا بعد أن تفرق عنه فرسانه (٢) . واقتحم الصليبيون بقيادة روبرت أرتوا ، أحد أبواب المنصورة ، وواصلوا هجومهم في فصائل صغيرة مبشرة الى داخل المدينة يقتلون المصريين يمينا وشمالا حتى وصلت طلائعهم الى أبواب قصر السلطان نفسه ، وانتشرت جنودهم في أزقة المنصورة حيث أخذ السكان يرمونهم بالاحجار والطوب والسهام . وبينما الكل على ذلك ، جمعت فرقة المماليك البحرية الصالحية قواها خارج المدينة ، ثم اطبقت على الفرنج بقيادة الامير بيبرس البندقدارى ، فانقلب نصر الصليبيين الى هزيمة ، وأوسعهم المماليك قتلًا حتى اهلكوهم عن آخرهم تقريبا بما في ذلك الكونت أرتوا نفسه الذي لقي بذلك جزاء تهوره واندفاعه (٣) .

وبعد ذلك بقليل وصل ملك فرنسا الى ميدان القتال ، ونجح في اقامة جسر على بحر اشموم لتعبر عليه الرجالة ، غير ان الروح المعنوية الجديدة التي أثارها موقعة المنصورة (٨ فبراير سنة ١٢٥٠ م) في صفوف المسلمين قد طغت على هذا النجاح المؤقت الذي أحرزه الفرنسيون .

وفي اليوم التالي عقد قائد الجيش الامير فارس الدين اقطاي

(١) المقرزي : السلوك ج١ ص ٣٤٩ .

(٢) بلغ عدد قتلى الفرنسيين في تلك الموقعة حوالى ١٥٠٠ فارس

«Oman : Op. cit. 1, p. 350 - 352»

الصالحى مجلس حرب عرض فيه على المسلمين كزاغند (١) الكونت أرتوا قائلاً بأنها سترة الملك نفسه ، وأن شعباً بدون ملك ، جسم بلا رأس ، لا يخشى منه خطر ، وعلى ذلك سوف نهاجم الفرنسيين في يوم الجمعة اذا طاب لكم ذلك . وفي فجر يوم الجمعة ، وهو الموافق ١١ فبراير ١٢٥٠ م ، أمر أقطاي أربعة آلاف من فرسانه بالتقدم حتى حاطوا معسكر الفرنج ، وهذا خلاف فرق الاحتياطي الرابضة عن كئيب مستعدة للطوارئ . وبعد ان انتهى اقطاي من ترتيب جيوشه ، تقدم بمفرده راكبا فرسا ليشهد صفوف الصليبيين ، ومراكز القوة والضعف فيها حتى يحرك قواته على أساسها . وشغلت هذه العمليات وقت أقطاي حتى منتصف النهار ، ثم أمر بقرع النقارات (٢) ، ومن ثم بدأ الخيالة والمشاة في الهجوم من جميع النواحي كما لو كانوا يلعبون الشطرنج على حد قول جوانفيل (٣) . واستخدم المماليك النار الاغريقية في هجومهم ، ولكن الملك لويس تمكن من الثبات واعادة خط القتال الى ما كان عليه بعد أن تكبد خسائر فادحة . وبذلك تنتهى موقعة المنصورة الثانية ، التي أيقن الصليبيون بعدها أنهم

(١) الكزاغند ، المعطف القصير ، يلبس فوق الزردية ، ويلاحظ هنا ان المسلمين اختلط عليهم الامر حينما وجدوا على المعطف الشعار الملكى الفرنسى وهو زهرة الزنبق Fleur de Lis فظنوه معطف الملك نفسه وان الذي قتل هو لويس التاسع .

(٢) النقارات هي من الآلات الخاصة بمواكب السلطنة منذ عهد الفاطميين ، تحمل في ركاب السلاطين الى ساحة الحرب ، فتستخدم في اصدار الاوامر وفي الايدان ببدء القتال وكانت تحمل على عشرين بغلا ، على كل بغل ثلاث منها مثنى . راجع (القلقشندي : صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٧٥)

(٣) لعل جوانفيل يقصد بلعبة الشطرنج ان فرسان المسلمين كانوا على

شكل درج «en échelon»

لا يستطيعون البقاء في مراكزهم ، وان عليهم الانسحاب الى دمياط قبل فوات الفرصة (١) .

ثم لم تمض أيام على هذه الواقعة حتى قدم تورانشاه السى مصر (٢٧ فبراير سنة ١٢٥٠ م) فأعلنت وفاة الصالح أيوب ، وسلمته شجر الدر مقاليد الامور ، وما لبث السلطان الجديد حتى تولى قيادة الجيوش بنفسه ، وأخذ في تدبير خطة لاجبار الملك لويس التاسع على التسليم ، وخلصتها ان يقطع خط الرجعة على الفرنسيين . لذا أمر تورانشاه بنقل عدة سفن مفصلة أجزاء على ظهور الجمال ، وانزالها في النيل وراء الخطوط الفرنسية (٢) . وبهذه الوسيلة تمكنت أساطيل المصريين من مهاجمة كثير من السفن الفرنسية المحملة بالموثون والاقوات ، والاستيلاء عليها وأسر من فيها . ونتج عن ذلك حلول المجاعة بالمعسكر الفرنسي وتفشى الامراض والابوثة بين الجنود ، فساء حالهم ، واضطر الملك الى طلب الهدنة وتسليم دمياط على أن يأخذ الصليبيون بيت المقدس وبعض بلاد الساحل ، لكن المصريين رفضوا هذه الشروط علما منهم بسوء حالة الفرنج . فعول الملك على الانسحاب تحت جنح الظلام ، وأمر بازالة الجسر الذي على قناة اشمووم ، غير أن الصليبيين تعجلوا أمرهم ، فسهوا عن قطع الجسر ، فعبره المصريون في الحال ، وركبوا أعناق الصليبيين ، وبذلوا فيهم سيوفهم ، واستمرت المطاردة حتى فارسكور حيث أحرقوا بالصليبيين من كل جانب،

(١) انظر «Joinvill : Op. cit. P. 79-80; King : Op. cit. p. 247»

(٢) هذه الخطة اتبعها من قبل جده السلطان الكامل ضد حملته جان دي بريين على مصر سنة ١٢١٨ م ، وكذلك أوصاه بها ابوه الصالح أيوب في وصيته التي تركها له قبيل وفاته ، والتي اوردها النويرى في كتابه نهاية الارب في فنون الادب (ج ٢٧ لوحة ٨٩ - ٩٣) مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ ، معارف عامة .

فقتلوا وأسروا منهم عددا كبيرا (١) ، وغنموا معظم خيولهم وعتادهم وأموالهم . وأبلى المماليك البحرية الصالحية ، ولا سيما أقطاي وبيبرس البندقداري ، في فارسكور بلاء حسنا ، حتى أطلق ابن واصل عليهم اسم « داوية الاسلام (٢) » ، اشارة الى ما صار لهم من قوة تشبه فرسان الداوية (٣) عند الصليبيين .

ولم يشأ لويس التاسع ان ينجو بنفسه رغم الحاح الدونسطاريا عليه، بل قرر الاقامة مع المؤخرة كى « يحمى أصحابه » على قول ابى المحاسن (٤) . وبذلك تمكن المسلمون من أسره وأسر من معه من الاشراف والفرسان في قرية منية ابى عبدالله (٥) ، شمالي المنصورة بيضعة

(١) يقال ان عدد القتلى في موقعة فارسكور بلغ ثلاثين الفا . وقد كتب تورانشاه نفسه هذا العدد في خطابه الى جمال الدين يغمور نائبه في دمشق . وان كان يبدو ان هذا التقدير مبالغ فيه . ولو افترضنا ان عدد القتلى بلغ نصف هذا العدد ، فانه يبدو كبيرا حقا . راجع (المقريري : السلوك ج١ ق٢ ص ٣٥٧)

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٣٧٠

(٣) فرسان الداوية او المعبد The Templars من أشهر جماعات الفرسان الدينية ابان الحروب الصليبية التي جمعت بين مبادئ الرهبنة ومبادئ الفروسية . وهذه الطائفة مشهورة ببسالتها وشدة بلائها في الحروب فلا غرو ان شبه بها ابن واصل فرقة المماليك البحرية الصالحية . راجع (فيليب حتى : تاريخ العرب ج٣ ص ١٩٤ حاشية ٢ ترجمة مبروك نافع)

(٤) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣٦٥

(٥) منية ابى عبدالله قرية لا تزال موجودة الى اليوم على الشاطئ الشرقي لفرع دمياط ، وهي التي تعرف باسم ميت الخولى عبدالله ، احدى قرى مركز فارسكور بمديرية الدقهلية . راجع (ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣٦٠)

أميال • ثم سيق لويس التاسع الى مدينة المنصورة حيث سجن بدار القاضي فخر الدين ابراهيم بن لقمان (١) •

وهكذا وصلت الحملة الصليبية المعروفة بالسابعة الى نهايتها الفاشلة بفضل المماليك البحرية ، ولم يبق الا المفاوضات من أجل الصلح •

ولا شك أن فشل هذه الحملة الصليبية يدل دلالة واضحة على جهل الصليبيين بجغرافية البلاد المصرية ، فقد كان الاجدر بهم اتباع طريق الصالحية - بليس الذي سار فيه أكثر غزاة مصر مثل قمبيز ، والاسكندر ، وعمرو بن العاص ، وسليم الاول ، بدلا من هذا الطريق المعقد الذي قادهم الى وسط الدلتا حيث كان عليهم عبور النيل بفروعه وقنواته المتعددة •

على أن الشيء الذي يؤسف له حقا هو أن شعور اسلمين بزوال خطر الفرنج ، قد حول بأسهم فيما بينهم بعد أن كان على عدوهم ، فاضطرت المنازعات الداخلية ، وحيكت المؤامرات السياسية التي أدت الى زوال دولة وقيام أخرى • ذلك ان تورنشااه كره المماليك البحرية لامر لم تشرحه المراجع شرحا وافيا ما عدا ان تورانشاه كان فتى عنيف الاهواء، ورث عن أبيه الكآبة والكبرياء مما نفر منه أمراء المماليك ، وأنه ارتاب في المماليك البحرية الصالحية ، وتوجس خيفة من نفوذهم ، فأعرض عنهم ،

(١) قال الشاعر المعاصر جمال الدين يحيى بن مطروح محذرا الفرنسيين بعد هذا الفشل :

وقل لهم ان اضمروا عودة لاخذ ثار أو لقصد صحيح
دار بن لقمان على حالها والقيد باق والطواشي صبيح
انظر (ديوان ابن مطروح ص ١٨١ - ١٨٢ هذا ولا تزال دار ابن لقمان
معروفة بالمنصورة بجوار جامع الشيخ الموفى •

وقرب اليه مماليكه وحاشيته الذين جاءوا معه من الشرق ، وأحلهم محل البحرية الذين صاروا موضع اضطهاده ووعيده * فكان اذا سكر بالليل : جمع أمامه الشموع وضرب رؤوسها بالسيف حتى تنقطع ويقول : « هكذا أفعل بالبحرية » ويسمى كل واحد منهم باسمه * ولذا نقموا عليه وأضمرُوا له السوء (١) *

ثم وعد تورانشاه الاتابك أقطاي بولاية الاسكندرية (٢) ، ولكنه لم يف بالوعد ، بل قيل انه عزم على ارساله بشيرا بالنصر الى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، وأنه أراد بذلك ان يقبض عليه بدر الدين ويعتقله في بعض القلاع (٣) ، فتنكر أقطاي لتورانشاه، وصار يتربص به الدوائر ، وقيل كذلك ان السلطان أراد ان يرسل جماعة من المماليك بأخبار النصر الى ملوك البلاد المجاورة ليعدهم عن القاهرة ، ففطنت المماليك إلى حيلته، وعلموا انه يريد التخلص منهم (٤) *

ولم يقتصر تورانشاه على مناوأة أمراء جيشه وكبار رجال دولته ، بل تنكر لشجر الدر التي يدين لها بعرشه ، فبعث اليها يتهددها ويطلبها بمال أبيه ، فكانت تجيبه بأن الاموال صرفت كلها في شئون الحرب وشئون البلاد العامة * ويقال انها داخلها منه خوف شديد فمضت الى القدس (٥) حيناً من الزمن مخافة غدره ، كما كتبت الى البحرية تشكو لهم من مسلكه الخشن نحوها رغم الخدمات الجليلة التي أدتها له وقت غيابه عن مصر *

(١) المقرئزي : السلوك ج١ ص ٣٥٨ - ٣٥٩ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣٧٠

(٢) انظر « Davis : Invasion of Egypt by Louis IX, p. 60 »

(٣)،(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٣٧٠ - ٣٧١

(٥) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣٧١

وكان المماليك البحرية الصالحية يخلصون لشجر الدر لأنها من حريم استاذهم الذي اشتراهم ، وبحكم الزمالة التي تربطها واياهم وهى المعبر عنها في المراجع المعاصرة بلفظ الخشداشية ، وهى من أقوى الروابط التى كان لها أثر في تطورات التاريخ المملوكي (١) .

كل هذه الامور جعلت المماليك يحنقون على السلطان تورانشاه ويجمعون على قتله والتخلص منه قبل ان يبطش بهم . وقام بتنفيذ هذه المؤامرة أربعة من الامراء ، منهم فارس الدين اقطاي وبيبرس البندقدارى . وفي صباح يوم الاثنين الموافق ٢ مايو سنة ١٢٥٠ م (٢٧ محرم سنة ٦٤٨هـ) ، بعد فراغ تورانشاه من طعام افطاره في خيمته بفارسكور ، تقدم اليه بيبرس البندقدارى وضربه بسيفه ضربة تلقاها بيده فقطعت أصابعه . والتجأ تورانشاه الى البرج الخشبي الذي أقامه على النيل ليمضي فيه بعض وقته اثناء اقامته بفارسكور ، واحتسى بأعلاه ، وأغلق على نفسه الباب ، فتبعه بيبرس وأقطاي وغيرهما من زعماء البحرية ، وقالوا : « بعد جرح الحية لا ينبغي الا قتلها (٢) » ، وأحاطوا بالبرج ، وأضرموا النار فيه ، فنزل منه تورانشاه وهو يصيح مستنجدا : « خذوا ملككم ودعوني أعود الى حصن كيفا » ، فلم يفتئه أحد ، فأخذ يركض نحو النيل ونبال المماليك تأخذه من كل جانب حتى ألقى بنفسه في الماء على أمل أن يسبح الى احدى سفنه الراسية ليعتصم بها ، ولكن سرعان ما لحق به أقطاي فقتله (٣) .

(١) زيادة : بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك ، مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٣٦
(٢) أبو شامة : الذيل على الروضتين ص ١٨٠
(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٧١ ، عبدالله أيبك : كنز الدر ج ٨ قسم ١ ورقة ٢٢ ، ابو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ١٩٠ ، ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٨٨ .

ومما يدعو الى الالتفات هنا أن مقتل تورانشاه وقع أمام رجال الجيش دون أن يحرك منهم أحد ساكنا لانتقاده ، مما يدل على امتلاك المماليك زمام الموقف . وكان ابو عز الدين رسول الخليفة العباس موجودا في المعسكر فعارض في مقتل السلطان ، ويقال ان تورانشاه أخذ يستغيث به من أعلا البرج ويقول : « يا أبا عز الدين ادركنى ! » وتكرر ذلك ، فركب أبو عز الدين في أمره وكلمهم فيه ، فقبض عليه المماليك البحرية وهددوه بالمقتل اذا تدخل في الامر . ويروى أبو شامة أن المماليك هددوه باخراق حرمة الخلافة (١) ، ولا ندرى ماذا يعنى أبو شامة من وراء هذه العبارة ، ولعله يعنى اخراج مصر عن دائرة النفوذ الدينى لخليفة بغداد ، والدعاء لخلافة اخرى غير الخلافة العباسية كخلافة الموحدين مثلا في المغرب .

ثم انتشلت جثة السلطان من النيل ، وتركت على شاطئه ثلاثة أيام حتى تقرر دفنها في مكانها (٢) . وبموت تورانشاه ينتهى عصر دولة الايوبيين في مصر .

(١) أبو شامة : الذيل على الروضتين ص ١٨٥
(٢) يروى أبو شامة نقلا عن كلام والى القاهرة ، انه بعد مقتل السلطان تورانشاه رمى في جرف على حافة البحر (النيل) . وردم عليه التراب ، فبقى هناك ثلاثة أيام ، ثم كشفه الماء فنقل من ثم الى الجانب الآخر من النيل ، وكانت طريقة نقله عجيبة حقا اذ انه جر في الماء بصنارة ، وكان الجار له راكبا في مركب والصنارة بيده كأنه حوت الى أن وصل الى الشاطئ الآخر فدفنه هناك .

(الذيل على الروضتين ص ١٨٥)

الباب الثالث

انتقال السلطنة الى المماليك البحرية الصالحية

الوضع السياسي في مصر بعد مقتل تورانشاه - اقامة شجر الدر في السلطنة - تعيين أيك في منصب الاتابكية - مفاوضات شجر الدر ولويس التاسع - جلاء الملك لويس التاسع عن دمياط الى - عدم الرضاء على السلطنة الجديدة - تزويجها من الاتابك أيك وتنازلها عن السلطنة لزوجها - عدم اعتراف الايوبيين بالموقف الجديد - الناصر يوسف الايوبي ملك حلب يستولى على دمشق ويحذف نحو مصر - جهود أيك في هدم المقاومة الايوبية - واقعه الصالحية وانتصار المماليك - تحالف أيك مع لويس التاسع - ظهور الخطر المغولي في الشرق وسفارة البادراني الى أيك والناصر - ثورة العرب بقيادة حصن الدين بن ثعلب على السلطنة الجديدة - تغلب أيك على الثورة بفضل أقطاي - ازدياد نفوذ اقطاي وتطلعه الى السلطنة - تأسيس المماليك المعزية وظهور قطز - اخراج البحرية من قلعة الروضة - عزل السلطان الايوبي الطفل وانفراد أيك بالسلطنة - تخلص أيك من أقطاي بقتله - هرب البحرية الى الشام - مفاوضات أيك مع بدر الدين لؤلؤ وتقريره الزواج من ابنته - غيرة شجر الدر - اغتيال أيك - ثور المماليك المعزية على شجر الدر - مقتل شجر الدر - اقامة على بن أيك في السلطنة - اقتراب الخطر المغولي *

الباب الثالث

انتقال السلطنة الى الممالك البحرية الصالحة

يروى جوائفل قصة غريبة خلاصتها ان أمراء الممالك بعد أن قتلوا سلطانهم تورانشاه ، اقترحوا في مجلس المشورة ان يمنح الملك لويس التاسع سلطنة مصر ، وأنه لولا علمهم بتعصبه للديانة المسيحية وخوفهم من اجباره لهم على اعتناقها ، نفذوا هذا الاقتراح ولوجدوا قبولاً من الملك نفسه (١) . ومن الواضح ان هذه القصة مختلقة من أساسها ، ولعلها مستوحاة من الاضطراب الذي حل بالمعسكر الاسلامي ، وحيرة أمراء الممالك فيمن عساه يكون سلطاناً بعد أن قتل تورانشاه في سرعة مفاجئة . وكان من الطبيعي ان يطمع كل أمير منهم في سلطنة مصر . ثم هناك أيضاً ملوك الايوبيين بالشام وعلى رأسهم الناصر يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازي بن صلاح الدين الايوبي ، وقد تولى مملكة حلب بعد وفاة أبيه سنة ١٢٣٧ م (٦٣٤ هـ) . اذ أضحى من الصعب على أولئك الملوك الايوبيين ان يقبلوا استئثار ممالك آباءهم بمصر بعد قتلهم سلطانها الشرعي ، ومن الطبيعي ان يرى كل منهم في نفسه الشرعية الكافية لان يلي السلطنة فيها بعد تورانشاه .

وكيفما كان الامر فيبدو ان الممالك قرروا حل العقدة التي نجمت

(١) انظر (Joinville : History of St. Louis, tr. by Evans, p. 109)

عن شغور العرش المصري في فجأة باقامة شجر الدر أم خليل بن الصالح أيوب في السلطنة ، مبالغة منهم في احترام الاسرة المالكة الذاهبة ، وحرصا على عدم الظهور بمظهر الخارج عليها . ثم عرضوا الاتابكية او نيابة السلطنة على عدد من الامراء (١) ، ولم يرد اسم الاتابك السابق فارس الدين أقطاي من بين أسماء المرشحين ، ولعل مرجع ذلك انه اصبح من المغضوب عليهم ، او أن المماليك خشوا قوته وشوكته واستثارته بأمر السلطنة اذا قام في الاتابكية الى جانب شجر الدر . وانجلى الموقف بتعيين أيك التركمانى (٢) أحد أمراء البحرية الصالحية لمنصب الاتابكية ، وادى ذلك بطبيعة الحال الى عداء بين أقطاي وأييك سوف تظهر نتيجته فيما بعد .

وأخذت البيعة للسلطنة الجديدة في مايو سنة ١٢٥٠ م (١٠ صفر سنة ٦٤٨ هـ) باعتبارها أم ولد هو خليل شجرشاه (٣) الذي توفي في حياة أبيه . وحرصت شجر الدر على اظهار ذلك في علامتها على الامور والمراسيم ، فكتبت « والدة خليل » ، وجعلت بخصيعة الدعاء على المنابر : « احفظ اللهم الجهة الصالحية ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، أم خليل ، المستعصمية ، صاحبة الملك الصالح » . كذلك نقش اسمها على

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٣٧٣

(٢) لفظ أيك يتركب من كلمتين تركيتين هما آي ومعناها القمر ، وبك ومعناها الامير . فمعنى الاسم « الامير القمر » (ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٧ ص ١٩) وأييك كان في الاصل مملوكا لاولاد التركمانى وهم بنو رسول الذين استقلوا باليمن ، ولهذا عرف بأيك التركمانى ثم انتقل الى خدمة الملك الصالح أيوب . وبنو رسول غسانية اتوا من بلاد التركمان الى بغداد في خلافة المستنجد (ت ٥٦٦ هـ) فنسبهم من يعرفهم الى غسان ، ونسبهم من لا يعرفهم الى التركمان . راجع (الخزرجى : العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ج١ ص ٢٧ - ٢٨)

(٣) ابو شامة : الذيل على الروضتين ص ١٩٦

السكة بالعبارة الآتية : « المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والسدة خليل أمير المؤمنين » (١) .

ويروى المؤرخ الانجليزي لين بول في كتابه تاريخ مصر في العصور الوسطى أن كلمة المستعصمية السالفة الذكر ، تدل على أن شجر الدر بدأت جارية للخليفة العباسي المستعصم (١٢٤٢ - ١٢٥٨ م) قبل أن يشتريها الملك الصالح أيوب (٢) . غير أن صمت المراجع العربية من هذه المسألة يحمل على الاعتقاد ان شجر الدر ربما أقرت هذه النسبة في سكتها وخطبتها ترضية للخليفة العباسي كي يعترف بشرعية حكمها . وثمة مسألة أخرى تدعو الى الانتباه في هذا الصدد ، وهي أنه كانت توجد بالعراق جارية تركية أخرى تسمى شجرة الدر ، كانت جارية للخليفة العباسي الناصر لدين الله (١١٨٠ - ١٢٢٥ م) ، مقربة اليه ، وكانت تكتب خطا جيدا وتقرأ له المطالعات الواردة عليه لما تغير نظره ، ويملى عليها الاجوبة ، وتوفيت سنة ١٢٣٦ م (٦٣٤ هـ) ، ودفنت في تربة الخلاطية (٣) ببغداد . فلعل المؤرخ لين بول قد التبس عليه الامر بين شجر الدر المصرية وشجرة الدر العراقية .

ومهما يكن من شيء فقد قبضت شجر الدر على زمام الامور في مصر بيد من حديد ، ولم يكن ابن اياس مغاليا حين وصفها بأنها امرأة صعبة

(١) توجد بالمتحف البريطاني عملة ذهبية ضربت في القاهرة على عهد شجر الدر بتاريخ ٦٤٨ هـ ، وهذه القطعة تحمل القاب الملكة التي ذكرناها. انظر (Lame poole : Op. cit. p 225) راجع كذلك (المقريري: السلوك ج١ ص٣٦٢ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣٧٤)

(٢) انظر

(Lanc poole : History of Egypt in the middle ages p. 255)

(٣) راجع (ابن الفوطى : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ص ٩٧)

الخلق ، شديدة الغيرة ، قوية البأس ، ذات شهامة زائدة ، وحرمة وافرة ، سكرانة من خمرة التية والعجب » (١) . وحق لها أن تكون ذلك كله فهي صاحبة الفضل في اخفاق حملة صليبية كبيرة على مصر ، وهي قد آتت الى العرش اعترافا من المعاصرين بذلك الفضل . واذا استثنينا رضية الدين سلطنة دلهي (١٢٣٦ - ١٢٤٠ م) (٢) ، تعتبر شجر الدر اول ملكة مسلمة جلست على عرش مملكة اسلامية . والواقع ان ابن اياس اعتبرها جزءا من الدولة الايوبية (٣) ، ولكن مما لا شك فيه ان الدولة الايوبية انتهت بمقتل تورانشاه ولو كان هناك أي رغبة في الابقاء على الايوبيين ، لما تعسر على المماليك أن يجدوا من رجال البيت الايوبي بالشام من يصلح للقيام بالسلطنة في القاهرة .

وأول عمل اهتمت به شجر الدر هو تصفية الموقف مع الفرنج ، وانهاء المفاوضات التي بدأت معهم على عهد تورانشاه لترحيلهم عن البلاد المصرية . فلم يلبث المفاوض المصري وهو الامير حسام الدين ابو على الهذباني (٤) ، ان اتفق مع الملك لويس التاسع على تسليم دمياط ، واخلاء سبيله وسبيل من معه من كبار الاسرى لقاء فدية قدرها ثمانمائة الف دينار يدفع نصفها قبل رحيله ، ويدفع النصف الآخر بعد وصوله عكا . وقامت ملكة فرنسا مرجريت دي بروفانس Margret de Provence التي رافقت زوجها في تلك الحملة ، وبقيت بدمياط مدة وجود الصليبيين بالديار

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٨٩

(٢) راجع ما قلناه عن هذه السلطنة في الباب الاول .

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٨٩

(٤) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٣٦٢ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة

ج ٦ ص ٣٧٤

المصرية ، بجمع المبلغ المطلوب لدفع نصف الفدية • ثم أبحرت الى عكا ومعها ابنتها الذي ولدته في دمياط وأسمته جان تريستان اي وليد الاحزان (١) • ويروى جوائفل ان مدينة دمياط سلمت للمصريين في ٦ مايو سنة ١٢٥٠ وان بعض المماليك قاموا بأعمال السلب والنهب في معسكر الفرنج مما حمل لويس التاسع على أن يرسل راهبا اسمه راؤول الى الامير أقطاي يحتج لديه عما ارتكبه المماليك من فظائع ، وان أقطاي أجابه قائلا « أيها الاخ راؤول ، قل للملك انني لا يمكنني اصلاح ما فسد ، وان قلبى لمفعم بالأسى ، وحذره بالنيابة عن نفس بالأى يدي أي تدمر عما يجيش في نفسه ما دام في أيدينا والا كان مصيره الموت » (٢) • وهذه العبارة تدل على أن أقطاي لم يكن راضيا عما تطور اليه الموقف من سلطنة شجر الدر وأتابكية أيك ، ثم انه لم يكن مبالغا فيما قال ، لان حزبا من الامراء وعلى رأسه الامير حسام الدين ابو على الهذباني ، رأي منذ البداية ان من المصلحة للمسلمين أن تحتفظ مصر بالملك لويس وألا تطلق سراحه نظرا لاطلاعه على عورات المسلمين ، ولمركزه الديني العظيم في النصرانية ، ولان دمياط قد صارت فعلا في ايدي المسلمين • ولكن شجر الدر وبعض قادة الجيش اقنعوا ذلك الحزب المعارض بضرورة احترام العهد الذي أخذوه على انفسهم (٣) •

ثم ابحر لويس التاسع وأتباعه الى عكا في ٧ مايو سنة ١٢٥٠ م (صفر سنة ٦٤٨ هـ) ، وبذلك انتهت الحملة الصليبية التي اقترنت حوادثها بنهاية الدولة الايوبية وقيام دولة المماليك الاولى في مصر •

(١) انظر (King : The knights Hospitallers P. 284 .)

(٢) راجع (Joinville : Op. cit. P. 110 - 120 .)

(٣) ابو المحاسن : نفس المرجع ج-٦ ص ٣٦٨

أخذت شجر الدر تتقرب الى الخاصة والعامة ، وتعمل على ارضائهم
بشتى الوسائل ، ولا سيما المماليك البحرية الذين أغدقت عليهم الاموال
الطائلة والاقطاعات الواسعة والرتب العالية (١) . ولكن على الرغم من
ذلك ، فان المصريين عموما انفوا من قيام امرأة في السلطنة ، وقاموا
بمظاهرات واضطرابات عديدة في القاهرة حتى اضطرت الحكومة الى غلق
ابواب المدينة منعا لتسرب أنباء الاضطرابات الى بقية البلاد (٢) . ويبدو
أن رجال الدين كانوا من وراء هذه الحركة المعارضة بدليل ما رواه
السيوطى من أن الشيخ عزالدين بن عبد السلام وهو أكبر زعيم دينى في
ذلك الوقت كتب كتابا حول ما قد يتلى به المسلمون بولاية امرأة (٣) .
واتتهز الملك الناصر يوسف ضاحك حلب وحفيد صلاح الدين ،

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ج١ ص ٨٩
(٢) عبدالله بن ابيك : كنز الدرر ، القسم الاول من الجزء الثامن

لوحة ١٢

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة ص ٣٤ .
والشيخ عزالدين بن عبد السلام الشافعي ولد سنة ٥٧٧ هـ ودرس بدمشق
على أئمة عصره مثل ابن عساكر ، وولى الخطابة والامامة بالجامع الاموي
بدمشق ، وتلمذ له أبو شامة وظل بدمشق الى أن استعان صاحبها الملك
الصالح اسماعيل بالفرننج فانكر عليه الشيخ عزالدين هذا الفعل وتوجه
الى مصر سنة ٦٣٩ هـ فتلقاه سلطانها الملك الصالح أيوب وولاه خطابة جامع
عمرو بن العاص . ولما بنى الصالح أيوب مدرسته بين القصرين بالقاهرة ،
فوض اليه تدريس المذهب الشافعي بها ، وظل متمتعا بالمنزلة الرفيعة حتى
وفاته بمصر سنة ٦٦٠ هـ وقيل انه لما مرت جنازته تحت القلعة وشاهد
السلطان الظاهر بيبرس كثرة الخلق الذين معها قال لبعض خواصه :
« اليوم استقر أمرى في الملك لان هذا الشيخ لو كان يقول للناس اخرجوا
عليه لانتزع الملك منى . راجع (تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية
الكبرى ج٥ ص ٨٠ - ١٠٧ ، ابو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج٣
ص ٢٢٤ ، السيوطى : حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة ص ٣٤)

هذه الفرصة السانحة وزحف بجيوشه نحو دمشق فاستولى عليها وعلى غيرها من المدن الشامية بدون حرب ثم واصل زحفه جنوبا نحو مصر .
وخاف المماليك على دولتهم الناشئة من منافسة الايوبيين فكتبوا الى الخليفة العباسى المستعصم يطلبون منه تأييد سلطنة شجر الدر ، وكان غرضهم من وراء ذلك تدعيم سلطانهم بسياج من التأييد الشرعى . غير ان الخليفة عاب عليهم اقامة امرأة في السلطنة ، وكتب اليهم قائلا : « ان كانت الرجال قد عدت عندكم فاعلمونا حتى نسير اليكم رجلا » (١) . ولما وصل خطاب المستعصم الى القاهرة ، اقتنع امراء المماليك بخطأ تصرفهم وقالوا « لا يمكننا حفظ البلاد والملك لامرأة ، ولا بد من اقامة رجل للمملكة تجتمع الكلمة عليه » (٢) . فأشاروا على شجر الدر بان تزوج الاتابك أيبك التركمانى ، وتتنازل له عن العرش ، فقبلت ذلك وخلصت نفسها من السلطنة في يوليو سنة ١٢٥٠ م بعد أن حكمت ثمانين يوما .

والواقع ان سلطنة شجر الدر على مصر كان وليدة للظروف التي احاطت بمصر في ذلك الوقت ، ونتيجة لموافقة جماعة من زملائها أو خشداشيتها المماليك ، وليست نتيجة لموافقة الشعب او رجال الدين او الخلافة العباسية ، هذا فضلا عن أنها كانت مسألة لا يقرها الشرع ولا تستسيغها التقاليد الاسلامية .

تولى عرش مصر السلطان أيبك التركمانى وتلقب باللقب السلطاني « الملك المعز » . ولم يكن أيبك في الواقع أكبر أمراء المماليك سنا ، أو أقدمهم خدمة ، أو أقواهم مكانة ونفوذا ، اذ كان يوجد من هم أكبر وأقدم وأقدر منه مثل فارس الدين أقطاي والظاهر بيبرس . وهذه الحالة

(١) المقرئزي : السلوك ج١ ص ٣٦٨ - ٣٦٩ .
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٣٧٦ .

الاستثنائية في نظام التدرج المملوكي جعلت بعض المؤرخين مثل أبي المحاسن في كتابه النجوم الزاهرة ، يتهم أيك بضعف النفوذ والشوكة ، وأن الامراء لم ينتخبوه الا لكي يتمكنوا من عزله متى شاءوا (١) . كذلك يذهب المستشرق بلوشيه Blochet الى ان أيك ظل يحكم رغم اعتزال شجر الدر ، بصفة زوج الملكة مع أنه صار سلطانا يحكم عن نفسه (٢) . غير ان الحوادث دلت على أن أيك رجل ممتاز بصفات السياسة والحزم والشجاعة ، ولم يكن ضعيف الشخصية كما يصوره بعض المؤرخين . ويبدو ان أبا المحاسن نفسه قد شعر بالخطأ الذي وقع فيه حينما وصف أيك بالضعف في كتابه النجوم الزاهرة ، اذ أنه عاد واستدرك ذلك في كتابه الآخر : « المنهل الصافي » ، فمدح أيك فيه ، ووصفه بالديانة والسياسة والعقل والسياسة ، وأنه انقذ دولة المماليك من خطر محقق (٣) .

وإذا تناولنا المشاكل والصعاب التي واجهت السلطان أيك ، نجد أنها تتمثل في تهديدات الايوبيين والصليبيين في الخارج ، وفي ثورات الاعراب في الداخل ، ثم في خطر زملائه المماليك في داخل البلاد وخارجها .

١ - الخطر الايوبي والصليبي :

كان الخطر الايوبي ممثلا في الشام وفي الامراء الايوبيين هناك وعلى رأسهم الملك الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق . وحاول أيك

(١) ابو المحاسن بن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج٧ ص ٤

(٢) (Blochet : Moufazzal Ibn abil Fazail : Histoire des Sultans Mamelauks, vol. I P. 374) .

(٣) ابو المحاسن : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ج١ لوحة ٢ (مخطوط بدار الكتب المصرية)

هدم هذه المعارضة الايوبية باقامة أمير من ذرية بنى أيوب الى جانبه ، واستقر الرأي على تولية المدعو الاشرف موسى (١) ، وهو طفل في نحو السادسة ، ليكون شريكا لايبك في السلطنة ، فصار يخطب باسمهما على منابر مصر وأعمالها ، وضربت لهما السكة على الدنانير والدرهم (٢) . غير أن هذه الحيلة لم تدخل على الايوبيين لانهم يعلمون تماما ان الاشرف موسى لم يكن له غير الاسم ، على حين كانت الامور جميعها بيد أيبك (٣) . عندئذ أعلن أيبك ان البلاد تحت سلطة الخلافة العباسية صاحبة السلطان القديم عليها ، وأنه نائب الخليفة المستعصم بها (٤) . وبهذه الحيلة الثانية حاول أيبك هدم المقاومة الايوبية ، غير أنه لم يكتف بذلك علما منه أن الناصر يوسف لن يرجع عن عزمه في سهولة ، فأخذ يستعد لمحاربه .

أما الملك الناصر يوسف ، فانه رأى لكى يضمن النجاح لحملته على مصر ، ان يضم الى جانبه الملك لويس التاسع المقيم في عكا ، وعرض عليه مقابل ذلك تسليمه بيت المقدس الذي كان تحت امرة الايوبيين في ذلك الوقت .

(١) هو الاشرف موسى بن يوسف بن المسعود بن الكامل ، وكان جده المسعود صاحب اليمن المعروف بأقسييس المتوفي سنة ١٢٢٨ م ، وعاش ابوه في كنف الصالح أيوب حتى توفي عن هذا الطفل الصغير موسى . (المقريزي : السلوك ج١ ص ٣٦٩)

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ج١ ص ٩٠ ، المقريزي : الخطط ج٢ ص ٢٣٧

(٣) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٧ ص ٦ ، المقريزي : السلوك ج١ ص ٣٦٩

(٤) ابو الفداء : المختصر في اخبار البشر ج٣ ص ١٩٢ ، المقريزي : السلوك ج١ ص ٣٧٠

وعلم أيك بأبناء هذه المفاوضات ، فأرسل الى الملك لويس تهديدا
بقتل أسرى الصليبيين المقيمين بمصر ان قام بأي عمل عدائي ضده . وفي
الوقت نفسه أبدى له استعدادة لتعديل معاهدة دمياط ، والتنازل له عن
نصف القدية المقررة ، ان تحالف معه ضد الناصر يوسف . غير ان الملك
لويس التاسع فضل ان يقف بين الفريقين موقف الحياد ، وان يستغل
نزاعهما لصالحه .

ولما يئس الناصر يوسف من مساعدة لويس التاسع ، زحف بجيوشه
نحو مصر ، وسارع أيك للقائه ، ولكنه خشى في الوقت نفسه ان يقوم
الصليبيون بهجوم مفاجيء على مصر ، فأمر بهدم ثغر دمياط مجازهم
المفضل ، فوقع الهدم في أسوارها يوم الاثنين ١٨ شعبان سنة ٦٤٨ هـ
(اواخر سنة ١٢٥٠ م) حتى خربت كلها ولم يبق منها سوى الجامع
وأخصاص من القش على شاطئ النيل يسكنها جماعة من الصيادين
وضعفاء الناس وسموها المنشية (١) .

ثم التقى المماليك بالايوبيين في معركة عامة عند بلدة العباسية بين
مدينتي بلييس والصالحية ، في ٣ فبراير سنة ١٢٥١ م ، انتصر فيها الملك
الناصر اول الامر ، ولكن فرقة من مماليكه ، وهم العزيزية (٢) ، خذلوه
وانضموا الى المماليك البحرية لعلة الجنسية على قول المراجع المعاصرة (٣) ،

(١) المقريري : السلوك ج١ ص ٣٧٢ . واستمرت دمياط على هذا
الحال حتى عمرها السلطان بيبرس البندقدارى من جديد سنة ١٢٧١ م
(٦٦٩ هـ) راجع (ابن اياس : المرجع ج١ ص ٨٧ ، ١١١)
(٢) العزيزية نسبة الى العزيز محمد والد الناصر يوسف ، وقد انتقلوا
الى خدمته بعد وفاة ابيه سنة ١٢٣٦ م .
(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٣٨٢ - ٣٨٣ ، المقريري :
السلوك ج١ ص ٣٧٣ - ٣٧٥ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٧ ص ٨

ففر الناصر ومن معه من أبناء البيت الايوبى الى الشام منهزمين ، بعد ان فقدوا عددا كبيرا من القتلى والاسرى • وقرر أيبك ان يواصل زحفه نحو الشام للقضاء على مراكز المقاومة الايوبية • ولكى يضمن النجاح لمشروعه ، حاول أن يضم لويس التاسع الى جانبه ، ووعدته ببيت المقدس بمجرد استيلائه عليه من الملك الناصر يوسف • وفضل لويس التاسع ، بعد ان رأى انتصار الجانب المصري ان يستجيب لعروض أيبك ويترك سياسة الحياد •

وفي اوائل مايو سنة ١٢٥٢ م اتفق أيبك ولويس التاسع على القيام بحملة مشتركة لطرد الناصر يوسف من الشام • وكانت الخطة المتفق عليها هى أن يستولى لويس التاسع على يافا ، بينما يحتل أيبك غزة ، ومن هناك يتم الاتصال بين الجيشين في منتصف مايو سنة ١٢٥٢ م للقيام بهجوم عام مشترك على ولايات الايوبيين ^(١) • وتنفيذا لهذه الخطة، احتل الملك لويس مدينة يافا دون مقاومة ، بينما تقدم المماليك بقيادة أقطاي نحو غزة ، غير أن الملك الناصر يوسف ، الذي علم بأخبار هذا التحالف ، سبقهم الى احتلالها بقوة حربية كبيرة ، فاستطاع بهذا العمل الجريء ان يحول دون اتصال المماليك بحلفائهم الصليبيين ، ويفسد عليهم خططهم المشتركة •

واستمرت جيوش المماليك في الصالحية ، وجيوش الايوبيين في غزة، كل منهما تتحفظ بالآخرى ، الى أن أنقذ الموقف أخيرا الخليفة العباسي المستعصم عندما توسط لدى الفريقين ، وتمكن رسوله نجم الدين البادرانى ^(١) من عقد صلح بينهما في ابريل سنة ١٢٥٣ م (٥١ هـ) على

(١) راجع (King : The knights Hospitallers P. 250-251)

(١) البادرانى نسبة الى قرية بادران بأصبهان •

ان يكون للمماليك مصر وجنوب فلسطين بما في ذلك غزة وبيت المقدس ،
بينما تظل البلاد الشامية في يد أصحابها من أبناء البيت الايوبي (١) .
وهكذا فشل لويس التاسع في تحقيق آماله بامتلاك بيت المقدس ، ولم
يستطع بعد ذلك البقاء في الشام خصوصا بعد وفاة والدته الملكة بلانش
Blanche (القشتالية) التي كانت تحكم فرنسا في غيابه كوصية على
العرش ، فاضطر لويس التاسع الى الرجوع الى بلاده سنة ١٢٥٤ م .

على أنه ينبغي أن نلاحظ هنا أن تدخل الخليفة العباسي في ذلك
الوقت ، لم يكن هدفه إيقاف التغلغل الصليبي في شئون الشرق العربي.
فحسب ، بل كان غرضه أيضا توحيد الجهود لتكوين جبهة اسلامية أمام
خطر جديد أشد من الخطر الصليبي ، وهو الخطر المغولي الذي كانت
جحافلها قد اجتاحت الحدود الاسلامية الشرقية بقيادة جنكيزخان وقضت
على الدولة الخوارزمية التي كانت بمثابة الترس المانع الحامى لجميع الدول
الاسلامية في غرب آسيا والشرق الادنى من هجمات المغول وغيرهم من
الاسيويين . وهكذا انتهت العقبة الاولى في تأسيس الدولة المملوكية
الناشئة وهي النزاع بين المماليك وملوك البيت الايوبي .

٢ - ثورة الاعراب ضد حكم المماليك :

العقبة الثانية التي اعترضت السلطان أيبك ، هي الثورة الشعبية
التي قام بها الاعراب او العربان في مصر وذلك في سنة ١٢٥٣ م .
من المعروف ان القبائل العربية التي استوطنت مصر بعد الفتح
العربي ، أخذت تتحول تدريجيا الى شعب زراعى مستقر ولا سيما في
اقاليم الصعيد والشرقية ، وأطلق عليهم اسم العرب المزارعة . وكان هؤلاء

(١) المقرئبي : السلوك ج١ ص ٣٨٥ - ٣٨٦ ، ابو المحاسن : النجوم
الزاهرة ج٧ ص ١٠

الاعراب يقومون بفلاحة الارض على مقربة من القرى القديمة الآهلة بالفلاحين من اهالى البلاد . غير أنه يلاحظ أن هؤلاء الاعراب كانوا يتمتعون بمركز اجتماعى أعلا مرتبة من الفلاحين بسبب المساعدات الحربية التي كانوا يؤدونها للدولة في وقت الحرب ولا سيما ابان الحروب الصليبية . وكان مشايخ العربان تقع عليهم تبعة حفظ النظام في القرى والارياف ، كذلك كانت مساهمتهم في الانتاج الزراعى ودفع الخراج كبيرة نسبيا .

وكان تعسف امراء المماليك في تحديد أثمان المنتجات الزراعية واحتكارها والتلاعب في أسعارها أحيانا ، من الاسباب التي دفعت بهؤلاء المزارعين العرب الى القيام بثورات متعددة طوال العصر المملوكى . وهذه الثورات عرفت في الكتب المعاصرة باسم « فساد العربان » ، وكانت تنتهى في العادة بهزيمة العرب نظرا لبراعة المماليك في فنون القتال .

واستخدم المماليك في قمع تلك الثورات وسائل متعددة تنطوى على القسوة والقهر مثل : التوسيط ، والتسمير ، والمعاصر ، ونشر الاجسام ، وسلخ الجلود ، ودفن الاحياء ، وتعليق رؤوس القتلى في رقاب نساءهم ، الى غير ذلك من وسائل القتل والتعذيب المعروفة في العصور الوسطى شرقا وغربا (١) .

وقد أدت هذه السياسية الى هجرة عدد كبير من المزارعين الى المدن الكبرى بغية التسول او السرقة او الاشتراك في المنازعات والاضطرابات

(١) راجع (Poliak : Les Revoltes Populaires en Egypte a l' époque de mamelouks et leurs causes économiques. Revue des Etudes Islamiques 1934, Cahier III P. 251—273).

الداخلية التي كانت بين أمراء المماليك • وهؤلاء كانوا يسمون بالجرافيش وبالزعر او زعر العامة ويبدو أن هذه الالفاظ كانت مشرقية بحته. بدليل قول المؤرخ الاندلسي لسان الدين ابن الخطيب في سب أحد ملوك غرناطة: « وكان حروفشا على عرف المشاركة » (١) •

على انه يلاحظ كذلك ان هذه الثورات العربية ، الى جانب دوافعها الاقتصادية ، كانت لها أيضا أهداف سياسية وهي الغاء حكم المماليك واعادته الى العرب الاحرار أصحاب السيادة القديمة على البلاد •

ويبدو أن هذا الهدف السياسي هو الذي أثار مخاوف المماليك ودفعهم الى اتباع سياسة العنف والقسوة في قمع تلك الثورات خوفا على سلطتهم • وأول وأخطر ثورة قام بها الاعراب أيام المماليك ، هي الثورة التي قاموا بها في عهد السلطان أيك التركمانى سنة ١٢٥٣ م (٦٥١ هـ) • وأسباب هذه الثورة ترجع الى عوامل سياسية واقتصادية كما أسلفنا • فالمماليك منذ ان انتصروا على الايوبيين في وقعة العباسة وتدخلت الخلافة في صالحهم ، اعتقدوا ان البلاد وما فيها صارت لهم ولا منازع ، فبالغوا في الفساد والاستهتار وزيادة الضرائب ، الى درجة ان بعض المؤرخين أمثال المقرئى وابى المحاسن ، فضلوا عليهم الصليبيين ، وقالوا لو أن الفرنج ملكوا مصر ما فعلوا فعلهم (٢) •

والظاهر أن حركة الاستياء والتذمر لم تقتصر على العناصر العربية

(١) ابن الخطيب : نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ص ٢٠ ، نشر احمد مختار العبادى •

(٢) المقرئى : السلوك ج١ ص ٣٨٠ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٧ ص ٩

فقط بل صارت حركة شعبية عامة بدليل قول ابي المحاسن « ان أهل مصر لم يرضوا بسلطان مسه الرق ، وظلوا الى ان مات السلطان أيبك وهم يسمعون ما يكره حتى في وجهه اذا ركب ومر بالطرقات ، ويقولون لا نريد الا سلطانا رئيسا مولودا على الفطرة » (١) .

وتزعم تلك الثورة الشعبية شريف علوى وهو حصن الدين بن ثعلب الذي طمع في السلطنة ، وصرح بأن ملك مصر يجب ان يكون للعرب وليس للبيد الارقاء (٢) . وأقام دولة عربية مستقلة في مصر الوسطى وفي منطقة الشرقية بالوجه البحرى . وكانت قاعدة هذه الدولة بنواحي الفيوم في بلدة تعرف بذروة سريام او ذروة الشريف (نسبة اليه) وتقع بين النيل وترعة المنهى التى هى الآن بحريوسف (٣) .

واتصل الشريف حصن الدين بالملك الناصر يوسف الايوبى صاحب الشام ، يطلب مساعدته في محاربة أيبك (٤) ، ولكن الناصر يوسف لم يكن في وسعه محاربة أيبك في ذلك الوقت ، اذ كانت رسل الخليفة المستعصم قد تدخلت لحسم النزاع بينهما .

وكان العرب يومئذ في كثرة من الرجال والخيل والمال بفضل مشاركتهم في حروب الصليبيين ، فكونوا جيشا كبيرا والتفوا حول زعيمهم حصن الدين وحلفوا له . واضطر السلطان أيبك أن يرسل حملة تأديبية

(١) ابو المحاسن : المرجع السابق ج٧ ص ١٣
(٢) القلقشندى : صبح الاعشى ج٤ ص ٦٨ ، المقرئى : البيان والاعراب فيمن دخل مصر من الاعراب ص ٢٤ - ٢٥ .
(٣) العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٨٨
(٤) المقرئى : البيان والاعراب فيمن دخل مصر من الاعراب ص ٤٤ ، السلوك ج١ ص ٣٨٦

للقضاء على هذه الثورة ، ومن عجب ان يسند قيادتها الى منافسه أقطاي ،
وذلك فيما يبدو لمهارته الحربية •

وخرج أقطاي من القاهرة بخمسة الاف فارس من خيرة المماليك ،
وتوجه الى الشرقية حيث كانت اكبر مظاهر العصيان • وعلى الرغم من
قلة عدد المماليك بالقياس الى العرب ، تغلب المماليك بفضل تفوقهم الحربي
ومهارة قائدهم أقطاي ، وتهدمت المقاومة العربية في بلبس سنة ١٣٥٣ (١) ،
غير أنها بقيت على حالها في مصر الوسطى ، حيث ظل حصن الدين طليقا ،
وأقام حكومة مستقلة هناك . ولم يتمكن أيك ومن جاء بعده من سلاطين
من القبض عليه الى ان خدعه السلطان بيبرس البندقدازي وقبض عليه بعد
أن أمنه وشنقه بالاسكندرية (٢) • وكيفما كان الامر في نهاية الامير حصن
الدين ، فالمهم هنا ان أيك تغلب على أحد العناصر المهددة لقيام دولة
المماليك واستقرارها في مصر •

(١) المقريري : السلوك ج١ ص ٣٨٧

(٢) راجع (شهاب الدين العمري : التعريف بالمصطلح الشريف
ص ١٨٨) ويروي المقريري (السلوك ج١ ص ٣٨٨) رواية أخرى تختلف
عن رواية العمري يقول فيها ان الشريف حصن الدين طلب من أيك الامان
فأمنه ووعدته باقطاعات له ولاصحابه فانخدع الشريف واتجه هو واصحابه
الى القاهرة ، فشنق الجميع وبعث بالشريف الى الاسكندرية فحبس بها .
وقد علق بوليياك Poliak على هذه الرواية بقوله : ويظهر ان الرواية التي
سردها المقريري عن استئصال شأفة العرب في عهد أيك لم تكن الا طمسا
للحقيقة كانت غايته منها تمجيد الاتراك المماليك لان خطر العربان ظل باقيا
حتى نهاية حكم المماليك .

راجع (Poliak : Les Revoltes Populaires en Egypte, R.)
E. I, 1934, Cahier III).

٣ - خطر زملائه المماليك :

أما العقبة الثالثة التي اعترضت حكم أيك وهددت كيان الدولة الناشئة ، فهي خطر زملائه المماليك البحرية وزعيمهم فارس الدين أقطاي . وكان أيك يتوجس خيفة من هذه الطائفة لعلمه بقوتها وخطرها ، ومن ثم أخذ يعمل على تقوية نفسه ، فانشأ فرقة من المماليك عرفوا بالمعزية نسبة الى لقبه (الملك المعز) ، كما عين مملوكه قطز المعزى نائبا للسلطنة بمصر . ثم لم يلبث أن أخرج المماليك البحرية من ثكناتهم بجزيرة الروضة ، وعزل الملك الايوبى الطفل موسى شريكه الاسمى في الحكم ، وانفرد بالسلطنة^(١) .

على أن هذه الاجراءات كلها لم تكن الا مجرد احتياطات شكلية لم تقلل من خطر أقطاي وزملائه البحرية ، فيجمع المؤرخون على أن أقطاي وصل الى قمة المجد خصوصا بعد تغلبه على ثورة العرب . وأصبح لا يظهر في مكان الا وحوله حرس عظيم من الفرسان المسلحين كأنه ملك متوج . وكانت نفسه ترى ان ملك مصر لا شيء عنده ، وكان كثيرا ما يذكر الملك المعز في مجلسه ويستنقصه ولا يسميه الا أيكا ، وقد بلغ ذلك المعز فكان يغضى عنه لكثرة خشداشيته البحرية . وبعبارة أخرى أخذ أقطاي يرنو علانية نحو السلطنة ، كما أخذ خشداشيته (زملاؤه) يسعون في تحقيق بعينه ، فلقبوه فيما بينهم بالملك الجواد وعملوا على تزويجه من احدى أميرات البيت الايوبى^(٢) ، وهى ابنة الملك المظفر تقى الدين محمود ملك حماة ، بل انهم تأمروا على قتل أيك ليخلو الجو

(١) المقرئزي : السلوك ج١ ص ٣٨١ ، ٣٨٤

(٢) راجع (ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٧ ص ١١ . ويعلق عبدالله بن أيك (كنز الدرر ج٨ القسم الاول ، ورقة ٢٢) على زواج اقطاي قائلا : « وتعجب الناس كيف سمح صاحب حماة بمصاهرة مملوك »

لاقطاي (١) . ثم حدث ان طلب اقطاي من أيبك ان يأذن له في الإقامة مع عروسه بقلعة الجبل (المقطم) لكونها من بنات الملوك ، فلم يبق بعد ذلك لدى أيبك أي شك في نوايا أقطاي ، فصمم على قتله . وفي يوم الاربعاء ٣ شعبان سنة ٦٥٢ هـ (١٢٥٤ م) ، طلب أيبك الى أقطاي الحضور الى قلعة الجبل لاستشارته في أمر من الامور بعد أن اتفق مع مماليكه المعزية على اغتياله . وركب أقطاي الى القلعة في عدة من مماليكه ، فما كاد يدخل من باب القلعة المؤدى الى قاعة العواميد أو القاعة الكبرى ، حتى اغلق خلفه ، ومنع مماليكه من اللحاق به ، ثم انقض عليه المتآرون ومنهم الامير قطز المعزي وقتلوه بسيوفهم ، واشيع خبر مقتله في القاهرة ، فخرج لانقاذه سبعمائة من خشداشيته ومنهم الامير بيبرس البندقداري والامير قلاوون الالفي ، وفي ظنهم انه لم يقتل بعد وانما قبض عليه ، فلم يشعروا الا ورأس أقطاي قد رمى بها اليهم من سور القلعة (٢) . ولقد أفرغ هذا الحادث كبار المماليك ، وخشوا ان تدور الدائرة عليهم ، فهرب من استطاع الهرب (٣) الى ملوك البيت الايوبي في الشام مثل الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق ، والمغيث عمر ملك الكرك ، كما التجأ مائة وثلاثين منهم الى سلطان سلاجقة الروم علاء الدين كيخباد بن كيخسرو صاحب قونية بآسيا الصغرى (٤) .

والواقع ان مقتل أقطاي قد شطر المماليك الى حزينين متناولين وهما

(١) المقرئزي : السلوك ج١ ص ٣٨٦

(٢) المقرئزي : السلوك ج١ ص ٣٩٠ ، ابن اياس : بدائع الزهور

ج١ ص ٩١ .

(٣) يلاحظ انه في اثناء فرار المالك كانت ابواب القاهرة مغلقة ، فاضطروا الى حرق احد ابوابها الشرقية وهو باب القراطين فسمى بالباب المحروق منذ ذلك الوقت .

(٤) المقرئزي : السلوك ج١ ص ٣٩٣

البحرية والمعزية مما عرض قيام دولة المماليك لاشدالخطر ، اذ اخذ المماليك الهاربون يحرضون ملوك البيت الايوبي على غزو مصر . ولم يخف ذلك على أيبك ، فعمد اولا الى مصادرة أموال المماليك البحرية، كما قبض على من بقي منهم في مصر ، وشتت شمل من والاهم من طوائف المماليك الاخرى (١) .

ثم كتب أيبك الى الملوك الذين لجأ اليهم البحرية ، وحذرهم منهم ومن غدرهم وشرهم ، فأجابه الناصر يوسف بأن طلب اليه اعادة البلاد التي اخذها من فلسطين وهي مدينة القدس وساحل فلسطين ، ليقم فيها المماليك البحرية لانها من اقطاعاتهم ، وبذا يكون قد أرضاهم وأبعدهم عن مصر .

غير ان ايبك ظن ان في تلك الاجابة خدعة ، وان لناصر يزعم الزحف على مصر مرة اخرى بعد ان صارت البحرية في جانبه ، فرأى ان يستجيب الى طلبه ، واعاد البلاد المذكورة فعلا الى اصحابها (٢) ، ولكنه تجهز للخروج بجيوشه الى الحدود المصرية ، وعسكر بالقرب من بلدة العباسية مدة ثلاث سنوات تقريبا ، ولم يعد الى القاهرة الا بعد ان تقرر الصلح بينه وبين الناصر سنة ١٢٥٦ م (٦٥٤ هـ) بوساطة رسول الخليفة المستنصر نجم الدين البادراني ، على أن يكون لايبك الديار المصرية

(١) المقريري : السلوك ج١ ص ٣٩٢ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٧ ص ١٢ ، ٣٤

(٢) المقريري - السلوك ، ج١ ، ص ٣٩٣ - انظر كذلك

(Blochet : Moufazzal Ibn Abil—Fazail : Histoires des Sultans Mamlouks, vol. I, p. 374.

(مقدمة كتاب النهج السيد) .

وساحل الشام ، وعلى الا يأوى الملك الناصر عنده احدا من البحرية • واضطر المماليك البحرية عندما علموا بما تم ، الى الرحيل الى المغيث عمر ملك الكرك (١) وهو الايوبى الاخر الطامع في مصر • وكان بعض اخوانهم قد لجأوا منذ اول امرهم الى سلطان سلاجقة الروم فكتب اليه ابيك كتابا يقول فيه « البحرية قوم مناحيس اطراف (٢) ، لا يقفون عند الايمان ، ولا يرجعون الى كلام من هو اكبر منهم ، وان استأمتهم خانوا ، وان استحلقتهم كذبوا ، وان وثقت بهم غدروا ، فحزرتهم على نفسك فانهم غدارون مكارون خوافون ، ولا آمن ان يمكروا عليك » • فخاف سلطان الروم منهم فاستدعاهم وقال : يا امراء ! ما لكم ولاستاذكم ؟ « — فتقدم الامير علم الدين سنجر الباشقردي وقال « يا مولانا ! من هو استاذنا ؟ » — قال « الملك المعز صاحب مصر » ، فقال الباشقردي « يحفظ الله مولانا السلطان ! ان كان الملك المعز قال في كتابه انه استاذنا فقد اخطأ ، انما هو خشداشنا ونحن وليناه علينا وكان فينا من هو اكبر سنا وقدرا ، واحق بالمملكة ، ونحن التجأنا اليك » فاعجب السلطان بهم واستخدمهم عنده (٣) •

غير ابيك لم يخش شيئا من سلاجقة الروم لبعد المسافة بينه وبينهم، بل خاف ان يقوم المغيث عمر بمثل ما قام به الناصر من قبل فكتب الى الخليفة المستعصم يلتمس تشريفه بالتقليد والخلع والالوية اسوة بمن تقدمه من ملوك مصر (٤) ، وسعى في نفس الوقت في تعطيل خلعة الملك الناصر يوسف

(١) المقرئزي - السلوك ، ج ١ ص ٣٩٦ - ٣٩٨ •

(٢) اطراف جمع طرف ، وهو الرجل الذي لا يثبت على صحبة احد •

راجع (المقرئزي - السلوك ، ج ١ ، ص ٣٩٣ حاشية) •

(٣) المقرئزي - السلوك ، ج ١ ، ص ٣٩٣ •

(٤) المقرئزي - السلوك ، ج ١ ، ص ٣٩٨ •

صاحب حلب ودمشق^(١) ، رغم ما بينهما من حلف ، اذ خشى ان تتحرك اطماع الناصر من جديد بعد وصول الخلعة الخليفة اليه . ويظهر ان ابيك اخذ يشعر بما بين زوجته شجر الدر والماليك البحرية بالكرك من مراسلات واتفاقات ، فعزم على الزواج من غيرها ، وارسل سنة ١٢٥٦ ميلادية الى بدر الدين لؤلؤ^(٢) الاتابكي صاحب الموصل يطلب اليه حلفا زواجيا لم يعلم عنه الا ما تداولته المراجع من خطبة ابيك^(٣) لابنة بدر الدين ، وليس من العقول ان تكون الخطبة قاصرة على مجرد الرغبة في الزواج اذ ربما أراد من وراء ذلك الحلف معرفة تحركات المغول عن طريق صاحب الموصل . وكيفما كان الامر فقد كانت هذه المسألة بداية الخاتمة

(١) ابو الفداء - المختصر في اخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٢٠٠ .
(٢) هو لؤلؤ بن عبدالله النورى الملك الرحيم بدر الدين ابو الفضائل الارمنى الاتابكي صاحب الموصل كان في الاصل مملوكا لنور الدين ارسلان شاه زنكى ، وترقى عنده حتى صار استاداره والحاكم في دولته ، وبعد موت نور الدين سنة ٦٠٧ هـ استقر في الملك بعده ولده القاهر مسعود ، وقام بدر الدين بتدبير ملكه . وبعد موت القاهر ثم ولديه الصغيرين استقل بدر الدين بالملك سنة ٦٣١ هـ وسمى نفسه بالملك الرحيم واخذ يتقرب للخليفة الناصر لدين الله حتى بعث له الخلع والتقليد بالسلطنة . وقد رآه ابن واصل نفسه فوصفه قائلا - « . . . ورأيت من تجمله وعنايته بالرسول والواردين عليه ما لا رأيت عند ملك من المملوك » . ولم يزل بدر الدين مالكا للموصل وبلادها الى ان ملك التتر بغداد واستولوا على العراق والجزيرة سنة ١٢٥٨ م (٦٥٦ هـ) فتوجه بدر الدين الى هولوكو ملك التتر فاقره على ولايته ثم رجع الى الموصل فمات بها سنة ١٢٥٩ م (٦٥٧ هـ) - راجع - (ابن واصل - مفرج الكروب ج ١ ، ص ١٦٦ - ١٦٨ و ١٨٥ و ٢١٤ ، ج ٢ ص ٨٩ و ٣٨٧)

راجع كذلك (Ency. of Islam, Art. Loulou)

وكذلك (Lane-Poole : Muham. Dynas. p. 162-163)

(٣) المقرئزي - السلوك ، ج ١ ، ص ٤٠١ .

لعهد ابيك ، لان مضارة امرأة مثل شجر الدر ، وهى التى دلت على مهارة وقوة شخصية ايام الصليبيين، كان اسوأ من اللعب بالنار، ذلك انه لما علمت شجر الدر بما بيته لها اخذت هى تنزعم حركة المعارضة الداخلية والخارجية لسلطنته، فقام بعض من بقى في مصر من البحرية بمعارضة مشروع الزواج، فقبض ابيك على عدد كبير، منهم ايدكين الصالحي، وسيرهم لقلعة الجبل لسجنهم في الجب ، فلما وصلوا الى قرب نافذة القصر السلطاني حيث سكنت شجر الدر ، احى الامير ايدكين رأسه احتراماً وقال بالتركية « والله ياخوند (١) ما عملنا ذنبا وجب مسكنا ولكنه لما سير يخطب بنت صاحب الموصل ، ما هان علينا لاجلك ، فانا تربية نعمتك ونعمة الشهيد المرحوم (الصالح ايوب) ، فلما عتبناه تغير علينا وفعل بنا ما ترين » . فأومأت اليه شجر الدر بمنديلها بما معناه « قد سمعت كلامك » . وعندما نزلوا بهم الى الجب ، قال ايدكين « ان كان قد حبسنا فقد قتلناه » (٢) . ومعنى هذا ان شجر الدر كانت قد بينت هى الاخرى لايبك جزاء وفاقا ، وان قبضه على اولئك لم يكن لمجرد معارضتهم في الزواج ، بل لانه علم بمؤامرتهم، فاراد ان يقضي على الحركة كلها بالفصل بين امراء المماليك وزعيمتهم . غير ان شجر الدر كانت قد دبرت ما لم يكن في الحسبان اذ ارسلت سرا احد المماليك العزيزية الى الملك الناصر يوسف بهدية ورسالة تخبره فيها انها عزمت على قتل ابيك والتزوج منه وتمليكه عرش مصر ، ولكن الناصر اعرض عنها خوفا ان يكون في الامر خدعة ، ولم يجيبها بشيء (٣) . وعلم بدر الدين لؤلؤ باخبار هذه المفاوضات السرية ، فبعث الى ابيك ينصحه ان يأخذ حذره (٤) ، وخاف ابيك على حياته فترك القلعة واقام بمنظر

(١) الخوند لفظ تركى او فارسي واصله خداوند بضم الخاء ومعناه السيد او الامير ويخاطب به الذكور او الاناث . انظر: (المقرئى - السلوك، ج١ ، ص ٢٢٤ حاشية رقم ٢) .

(٢) المقرئى - السلوك ، ج١ ص ٤٠١ - ٤٠٢ .

(٣) ، (٤) المقرئى : السلوك ، ج١ ، ص ٤٠٢ .

القوق ، وصمم على قتل زوجته قبل ان تقضي عليه ، ويقال في هذا الصدد ان منجما اخبر ابيك بانه سوف يموت قتيلا على يد امرأة (١) ، ولا شك ان المنجم كان عليما ببعض ما يجري من وراء ستار ، اذ المعروف ان الزوجان اخذا يتسابقان في نسج المؤامرات بعد القبض على البحرية في القاهرة ، وانتهى السباق بانتصار المرأة في ميدانها ، اذ ارسلت شجر الدر الى ابيك رسالة رقيقة تتلطف به وتدعوه بالحضور اليها بالقلعة ، فاستجاب لدعوتها وصعد الى القصر السلطاني بالقلعة حيث اعدت له شجر الدر خمسة من الغلمان الاشداء لاغتياله، منهم محسن الجوجرى ونصر العزيزي، وسنجر ، وكان آخرهم من مماليك اقطاي (٢) . وقد قام هؤلاء الغلمان بما أمروا به وقتلوه في الحمام في ابريل سنة ١٢٥٧ م (٦٥٥ هـ) (٣) . وارادت شجر الدر ان تنفادي عواقب هذه الجريمة بان تولى السلطنة اميرا يقبض على زمام الموقف وتخفى خلفه في الحكم ، فعرضت السلطنة على جمال الدين بن ايدغدو العزيزي وعز الدين ابيك الحلبي ولكنهما لم يجسرا على ذلك وامتنعا (٤) . وفي اليوم التالي ذاع الخبر في المدينة فاسرع المماليك الى القلعة ، وقبضوا على الخدم والحريم ، وبتعذيبهم اعترفوا بحقيقة ما حدث . وعندئذ حاول المماليك المعزية قتل شجر الدر ، ولكن المماليك الصالحية حالوا بينهم وبينها وسعوا الى انقاذها باعتقالها في

(١) المقرئزي : السلوك ، ج١ ، ص ٤٠١

(٢) ابو المحاسن - النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص ٣٧٦ .

(٣) هناك روايات عديدة مختلفة تصف الطريقة التي قتل بها السلطان

ابيك وهي على كل حال روايات مثيرة تزيد من فظاعة الجريمة وقسوتها -

راجع (ابو المحاسن - النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص ٣٧٥ - ٣٧٦) ،

(ابن اياس - بدائع الزهور ، ج١ ، ص ٩١ - ٩٢) ، و (المقرئزي -

السلوك ، ج١ ، ص ٤٠٣) .

(٤) ابو المحاسن - نفس المرجع ، ج٦ ، ص ٣٧٥ .

البرج الاحمر (١) بالقلعة ، فحاط المماليك المعزية بالقلعة واخذوا يتحينون الفرص لقتلها (٢) ، وكان من المحتمل انقاذ شجر الدر من الموت في ذلك الوقت نظرا لحماية البحرية لها ، ولخدماتها الجليلة التي لم تنس بعد ، لولا انها جلبت على نفسها حقد امرأة المعز الاولى وأم ولده عليّ التي اخذت تتحرق شوقا للانتقام من شجر الدر التي منعت زوجها من زيارتها وارغمته على طلاقها ، فاخذت هي وابنها يلحان في تحريض المعزية (٣) على قتلها الى ان ضعفت معارضة الصالحية في النهاية وحملت شجر الدر اليها فامرت جواريتها بقتلها ، وهنا يقول المقريري - « فضرها الجواري بالقباقيب الى ان ماتت ، والقوها من سور القلعة الى الخندق ، وليس عليها سوى سروال وقميص ، فبقيت في الخندق اياما ، واخذ بعض اراذل العامة تكه سر اويلها ، ثم دفنت بعد ايام وقد تننت وحملت في قفة بتربتها قريب المشهد النفيسي » (٤) .

ولقد تعصب المماليك المعزية لابن سيدهم المدعو نور الدين علي فاقاموه سلطانا في ربيع الاول سنة ٦٥٥ هـ (١٢٥٧ م) ولقبوه بالملك المنصور وكان عمره وقتئذ خمسة عشر سنة (٥) . واعترض المماليك الصالحية على سلطنته ، واتفقوا على سلطنة اتابك العسكر الامير علم الدين سنجر الحلبي وحلفوا له (٦) ولكن سرعان ما قبض عليه المعزية

(١) كان بالقلعة عدة ابراج منها البرج الاحمر الذي بناه الملك الكامل ويعرف اليوم باسم برج المقطم في الجهة الجنوبية من القلعة . راجع (القلقشندي - صبح الاعشى ، ج٣ ، ص ٣٧٣) ، (النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص ٣٧٧ حاشية) .

(٢) ابو المحاسن - النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص ٣٧٧ ، المقريري - السلوك ، ج١ ، ص ٤٠٣ .

(٣) ابو المحاسن - النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص ٣٨٨ .

(٤) المقريري - السلوك ، ج١ ص ٤٠٤ .

(٥) ، (٦) ابو المحاسن - النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص ٣٧٦ .

وسجنوه في الجب بالقلعة • عندئذ اضطرب خشداشيتنه من الصالحية ،
 وخافوا ان تدور الدائرة عليهم ، فامعنوا في الهرب الى الشام ، وخرج
 المماليك المعزية في اثرهم ، وقبض على عدد كبير منهم^(١) • واثار مسلك المعزية
 استياء بعض الطوائف المملوكية الاخرى مثل الاشرفية ، حتى اشيع انهم اتفقوا على
 ازالة نفوذ المعزية من الدولة ، فما كان من المعزية الا ان قبضوا على
 الاشرفية ونهبوا دورهم^(٢) ، ولجأت الطوائف المملوكية من بحرية وغير
 بحرية ، التي سئمت الوضع في القاهرة الى ملوك الايوبيين بالشام ولا
 سيما المغيث عمر سحب الكرك ، حيث اخذوا يحرضونه على اخذ مصر
 ملك آباءه واجداده حتى استجاب لدعوتهم ، وسعى بمعوتهم في الاستيلاء
 على مصر ، وحاول ذلك مرتين - في سنة ١٢٥٧ م (ذي القعدة سنة
 ٦٥٥ هـ)^(٣) ، وفي سنة ١٢٥٨ م (ربيع الاول سنة ٦٥٦ هـ)^(٤) ، ولكنه
 رد في كليهما خائبا مهزوما بفضل شجاعة نائب السلطنة الامير سيف الدين
 قطز المعزي •

وهكذا ، بدت الدولة وسلطانها صبي وهى لم تزل في دور
 التكوين ، ولم تكن بحاجة الى ما يترتب على قيام الصغار من منافسات
 ومؤامرات داخلية ، فضلا عما خفى وقتذاك من عوامل الخطر الخارجى
 مما كان ادهى واعظم ، وهو الخطر المغولى •

-
- (١) ابو المحاسن - النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص ٤٢ •
 (٢) ابو المحاسن - النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص ٤٣ •
 (٣) ابو المحاسن - النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص ٤٤ ، المقرئى -
 السلوك ، ج١ ، ص ٣٠٦ •
 (٤) ابو المحاسن - النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص ٤٥ ، المقرئى -
 السلوك ، ج١ ، ص ٤١١ •

الباب الرابع

خطر المغول على قيام الدولة المملوكية الاولى في مصر

احوال الدولة الاسلامية قبيل الغزو المغولى في القرن الثالث عشر
الميلادي - التنظيم الحربى المغولى واثره في انتصارات المغول - سقوط
بغداد في ايدي المغول وتناججه - استغلال هولاءكو للعداء القائم بين السنة
والشيعة - الغزو المغولى للشام وموقف الامراء الايوبيين - انضمام موسى
صاحب حمص الى المغول - تردد الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق بين
القوتين المملوكية والمغولية - استيلاء المغول على حلب ودمشق - رجوع
هولاءكو الى فارس لوفاة اخيه الخان الاعظم منجوقان - انتقال قيادة
الجيش المغولى في الشام الى كنبغانوين - هرب الناصر يوسف الى جنوب
فلسطين - وقوعه في ايدي المغول - اعترافه بسلطانة المغول على الشام
ومصر - رجوع المماليك المنتشرين في الشام وآسيا الصغرى وتكثرتهم
للدفاع عن مصر - تهديد هولاءكو للمماليك وسلطانهم قطز - عزم قطز على
القتال - اعدام رسل المغول واعلان الجهاد العام - جهود قطز في حشد
الجيش وجمع الاموال وتقوية الروح المعنوية المنهارة - خروج قطز
بالجيش المصرية والشامية - زحف بيبرس!بندقدارى بالطلائع المصرية -
انتصار بيبرس عند غزة - تقدم قطز بحذاء الساحل لمعرفة نيات الفرنج -
سوء حالة الفرنج في الشرق بسبب الحروب الاهلية - التزامهم الجيدة
التامة - الرواية العربية وحياد الفرنج - تقدم قطز نحو المغول - موافاته
لبيبرس عند عين جالوت - واقعة عين جالوت - رواية الضابط صارم
الدين ازبك الاشرفي - فضل قطز في هزيمة التتار - نتائج واقعة عين

جالوت - استيلاء قطز على الشام - اعادته بعض ملوك الايوبيين الى
ممالكهم الصغيرة - منحه كبار الممالك البحرية الصالحية والمعزية
والعززية اقطاعات جليلة بالشام - رفضه طلب بيبرس نيابة حلب - تفويض
حلب الى الملك السعيد بن بدر الدين لؤلؤ - غرض قطز من اختيار الملك
السعيد - سخط بيبرس على قطز - مصرع قطز - اغتلاء بيبرس عرش
السلطنة المملوكية •

الباب الرابع

خطر المغول على قيام الدولة المملوكية الاولى في مصر

لم يتعرض الاسلام لافواق عصيبة مثل التي تعرض لها زمن الغزو المغولي في القرن الثالث عشر الميلادي ، اي السابع الهجري ، اذ دمرت الجيوش المغولية مدن المسلمين ، واتت على كثير من الناس قتلا او اسرا او تعديبا ، وقوضت معالم المدينة بكل مكان في غير شفقة او رحمة . ومن سوء حظ آسيا الاسلامية انه لم يوجد بها وقتذاك قوة تستطيع مواجهة مثل ذلك الغزو العنيف الذي قاده جنكيزخان (١) واولاده واحفاده ، فالخلافة العباسية سادرة في الاضمحلال ، ودولة السلاجقة في بغداد تبدو كأنها اثر بعد عين ، اما في غرب بغداد ، فتوجد دولة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى وهي الاخرى آخذة في الضعف والتدهور (٢) ، ثم الدولة

(١) جنكيزخان - يعنى اقوى الحكام - وهو الذي اختار هذا الاسم لنفسه ، اما اسمه الحقيقي الذي عرف به في صباه فهو تيموجين ومعناه في اللغة الصينية الصلب الخالص . وقد تمكن تيموجين بعد حروب ومنازعات مع ابناء جنسه ان يصل الى غايته وهي زعامة المغول سنة ٦٠١ هـ . ان يجعل منهم قوة ظنها المعاصرون انها لا تهزم ، وبهذه القوة الخارقة استطاع هذا الاسكندر الاسيوي ان يكتسح البلاد شرقا وغربا حتى ترك لاولاده امبراطورية شملت ما بين بحر الصين والبحر الاسود ، وكانت وفاته في سنة ١٢٢٧ م (٦٢٤ هـ) .

راجع (Cambridge. Med. Hist. vol. IV, Chap. XX, p. 637, 638. & Lane—Poolc : The Moham. Dynasties, p. p. 222—231.)

(Joseph De Somogyi : « Adh. Dhahabi's Ta'rkh i al (٢)

←

المملوكية الناشئة بمصر والشام ولما تبلغ من العمر سوى بضع سنين ،
وكيانها لا يزال في كفة الميزان ، واطار حوادثها لا تزال محدقة بها من
كل جانب داخلي وخارجي . ثم زحف هولاءكو حفيد جنكيزخان غربا
نحو فارس في فبراير سنة ١٢٥٤ . ففضى على قلاع الشيعة الاسماعيلية
الباطنية بها ثم قضى على الخلافة العباسية وجميع ولايات غرب آسيا ،
ولم يبق امامه سوى الدولة المملوكية بمصر والشام (١) .

ويرجع السر في انتصارات المغول الى تفوقهم في الاسلحة والى سرعة
اطباقهم على العدو ، ثم الى سرعة الرماية واحكامها ، فاعمالهم الحربية
قائمة على السرعة والقدرة في السبق وهى المعبر عنها اليوم بالحرب
الخاطفة ، ومعظم اسلحتهم هي النبال ذات الاطراف الفولاذية او العظمية
او القرنية ، ولا تخلو جعبة الجندي المغولى من عدد كبير من اوتار القسى
ومعها ابرة وشمع لاصلاحها ، ومبرد لسن اطراف النبال . ثم كانت سيوف
المغول مديبة حادة اصلح للطعن منها للضرب ، ودروعهم ودروع خيولهم
من جلد مقسى مطلق . ويضع المغول اسلحتهم وامتعثهم في جعبات من
الجلد يمكن نفخها ليستعينوا بها على اجتياز الانهار . ويتألف الجيش
المغولى من العناصر المغولية الاصلية ثم من عناصر اخرى ملحقة به من
الباشقرد والقرغيز والترك والتركمان وغيرهم ، وقوامها جميعا فصائل من

→

Islam » as an authority on the Mongol Invasion of the Caliphate.
J. R. A. S. Oct. 1936, p. 595—604.)

(Charles Oman : The Hist. of Art of war in the
Mid. Ages, vol. II, p. 316—317.)

Howorth (Sir Henry) : Hist. of the Mongols, راجع (١)
vol. I, p. 193—196.)

& D'Hosson : Hist. des Mongols III, p. 134—135.

الفرسان كل منها عشرة او مائة او الف او عشرة آلاف من الجنود . وفيه فضلا عن المقاتلة فصائل اضافية من مهندسين واخصائيين في فن قذف المجانيق وآلات الحصار واصلاح مختلف ادوات القتال . ويقضي النظام التترى بالطاعة التامة ، وينكر ان يهرب واحد من صفوف الجند او يترك زميلا عاجزا او اسيرا في يد الاعداء دون ان يقدم على انقاذه . ونساء المغول يتمتعن بحرية كبيرة ، ويحاربن مثلما يحارب الرجال ، وكثيرا ما كن يحملن اطفالهن حول اعناقهن (١) . وصفوة القول ان الامة المغولية كلها عملت في صفوف الجيش المغولي لتوفر له ما يحتاج اليه من طعام ومعدات (٢) .

وتعتبر سنة ١٢٥٨ م (٦٥٦ هـ) سنة مشئومة في تاريخ الدولة الاسلامية ، اذ استولى المغول في فبراير منها على بغداد قلعة الاسلام وحاضرة العباسيين ، واعملوا فيها معاول التخريب والسيوف والنار سبعة أيام ، وقتلوا الخليفة المستعصم بالله وافراد اسرته واكابر دولته (٣) . واهتز المسلمون فرقا لتلك الكارثة ، لان الخلافة العباسية ظلت - رغم ضعف سلطانها السياسي - محتفظة بمركز الزعامة الروحية الى درجة تفوق مركز البابوية في روما (٤) ، فلا عجب اذن اذا خيل للمسلمين « ان العالم على

(١) لاحظ ذلك الرحالة الطنجي ابن بطوطة فقال : والنساء كالرجال سافرات يحضرن مجالس الرجال . وكان سلطان المغول يصدر اوامره باسمه وباسم خواتينه (زوجاته)

(٢) (Charles Oman : Op. Cit. p. Vol. II, p. 318—319.)

(٣) راجع سقوط بغداد في (Howorth : Op. Cit. Vol. I, p.) & (Browne : Lit. Hist. of Persia, vol. II, p. 460—466.) 196—201

(٤) (Camb. Med. Hist. vol IV, p. 462.)

وشك الانحلال وإن الساعة آتية عن قريب ، وصاروا يؤولون كل ظاهرة على انها تعبير عن سخط الله ، واتخذوها ادلة على ما سيحدث في العالم من انقلاب سيء لخلوه من خليفة (١) .

وتج عن سقوط بغداد في ايدي التتار آثار وتناجح عديدة في الحياة الاسلامية : فالوحدة السياسية للمسلمين اصبحت من الامور التي يستحيل تحقيقها ، اصف الى ذلك ان الثقافة الاسلامية منيت على ايدي التتار بخسارة كبيرة حين اتلف المغول آلافا من الكتب القيمة والمخطوطات النادرة ، وقتلوا كثيرا من العلماء والادباء ، وشتتوا شمل من بقي منهم في مختلف البقاع الاسلامية . وجذبت مصر عددا كبيرا من هؤلاء العلماء ، مما ادى الى انتقال مركز الزعامة الفكرية الى القاهرة التي اصبحت بحكم وضعها الجغرافي اقرب من بغداد الى اوربا ، مما ساعد على اقتراب العالم الغربي من الحضارة الشرقية (٢) . وما يقال بصدد هجرة العلماء والادباء يقال كذلك على اهل الحرف والصناعات وغيرهم من اهالي بلاد المشرق الاسلامي ، مثال ذلك ان مصر استقبلت ابان الغزو المغولي عددا كبيرا من المشاركة الذين بنوا لانفسهم بيوتا على ضفاف الخليج وحول بركة الفيل (٣) . وقد جلب اهل الحرف منهم بعض اساليب بلادهم الفنية ، وتأثر المعمار المصري نتيجة ذلك في القرن الثالث عشر الميلادي ، ببعض المؤثرات الفارسية والعراقية ، ومن المحتمل جدا ان تكون خطة بناء مسجد الظاهر بيبرس مأخوذة من رسم مسجد ميفارقين الذي انشيء في سنة

(١) السيوطي - تاريخ الخلفاء - ص ٣٠٩ .

(٢) (Gamb. Med. Hist. vol. IV, Chap. XX, p.)
641—643.)

(٣) المقرئزي - الخطط - ج ١ ، ص ٣٦٤ - ٣٦٥

١٢٢٣ م (١) • وعلى الرغم من أن هذه الاساليب والمؤثرات الفنية ، قد وجدت فعلا في مصر قبل القرن الثالث عشر ، الا ان تلك الهجرات الاخيرة كانت مدعاة لظهورها وحيائها من جديد (٢) • والواقع ان سقوط بغداد وقيام دولة ايلخانات فارس على عهد هولوكو ، قد فصل اراضي شرق دجلة عن غربه ، ففي الشرق اتسعت دائرة الحضارة الفارسية ، وفي الغرب قامت البقية الباقية من الثقافة العربية ، بعد ان كانت حضارة العالم الوسيط من سمرقند الى اشبيلية قائمة على التعاون الفكري والتبادل العلمي والادبي بين الفرس والعرب في ظل الخلافة العباسية • حقيقة ان الفرقة بين اللغتين الفارسية والعربية ظهرت قبل ذلك بقرون نتيجة للنهوض القومي الفارسي، الا انه منذ سقوط بغداد قلت اهمية اللغة العربية بين الفرس واصبحت قاصرة على البحوث الدينية والفلسفية (٣) • وترتب على سقوط بغداد ايضا الاتجاه في اعادة ترتيب العالم السياسي مثل وجوب تعيين حدود جديدة وعقد تحالفات مختلفة ، كما ترتب عليه تغيير سلاطين المماليك في مصر سياستهم نحو الخلافة اذ جعلهم يفكرون في احيائها من جديد ، وفي

(1) (Creswell : « The works of Sultan Baibars Al—Bun—duqdari in Egypt » Bulletin de l'Institut Français D'Archeologie Orientale. tome 26, fasc. 2, p. 181.)

(٢) الواقع ان هجرات اهل الحرف نتيجة الغزو المغولي لم تكن جديدة على مصر والاسلام ، فهناك امثلة عديدة من هذا النوع نذكر منها حادثة المهندسين الارمن الثلاثة الذين هاجروا من الرها Edessa الى مصر ، واشرفوا على بناء حصون الفاطميين بالقاهرة سنة ١٠٨٧ م (٤٨٠ هـ) في عهد المستنصر بالله . ومن المحتمل ان مجيئهم الى مصر كان نتيجة لهروبهم من مدينة الرها التي احتلها السلاجقة قبل ذلك بعام - راجع :- (Creswell. Op. Cit. p. 181.)

(٣) (Nickolson : A Lit. Hist. of the Arabs, pp.)
446—448.)

الوقت نفسه اعطاهم فرصة قصيرة من الزمن يستعدون فيها لصد هذا السيل المغولى الجارف المندفع نحوهم (١) . ومع ان سقوط بغداد بين للمسلمين ضرورة توحيد الجهود ازاء ذلك الخطر العام ، ظل النزاع بين السنة والشيعة قائما مستمرا ، فاستغل المغول ما هنالك من تنافس لصالحهم ، وزحفوا نحو الغرب يعيشون فسادا وتخريبا يساعدهم في ذلك انقسام كلمة المسلمين . وأيد هولاءكو حزب الشيعة واتخذ الاحتياطات التي تكفل سلامة قبر الامام على بالنجف من التدمير (٢) .

ومن الطبيعي ان يتلو ذلك غزو الشام ، وما يليها غربا ، حيث اضحت الامبراطورية التي اسسها السلطان صلاح الدين الايوبي منقسمة الى قسمين ، وهما مصر التي زال عنها حكم الايوبيين وصار سلاطينها من مماليكهم ، ثم الشام وقد سيطر على مدنها عدد من ملوك بنى ايوب على رأسهم الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق ، الذي اوجس خيفة من التقدم المغولى ، وقدر أن هولاءكو وجنوده سوف يستولون على الشام بين عشية وضحاها ، وان الشام لن يجد من يحميه من ملوك الايوبيين او مماليك القاهرة سواء . لذا ارسل ابنه الملك العزيز محمد سنة ١٢٥٨ م الى هولاءكو يخطب وده ويسأله ان يعينه على اخذ مصر من ايدي المماليك (٣) . وكان حريا بهولاءكو ان يقبل ذلك الطلب لو ان امير دمشق احاطه بشيء من العناية وذهب بنفسه يطلب حلف الايلخان المغولى ويعرض عليه ولاءه وتبعيته ، ولكن الناصر لم ير فيما يبدو ان يرتبط بعهد وثيق ، ففضل البقاء بعيدا عن حضرة هولاءكو ، حتى اذا اصيبت القوى المغولية

(١) (Camb. Med. Hist. vol. IV, p. 641—643.)

(٢) (Camb. Med. Hist. vol. IV, p. 629, 641—643.)

(٣) المقرئزي - السلوك - ج ١ ، ص ٤١٠ - ٤١١ .

بالحزيمة امام المسلمين استطاع ان يجد لنفسه بعض المعاذير (١) . وغضب هولاءكو من الوفد الذي لم يناسب مقامه ، فارسل الى الملك الناصر رسالة يأمره فيها بالخضوع والتبعية دون قيد او شرط (٢) . وعندما رأى الملك الناصر حبوط مسعاه ، وان محاولته هذه جعلته مريبا عند المسلمين ، رد على رسالة هولاءكو برسالة كلها قذف وسباب ، ودفع ثمن ذلك غاليا فيما بعد .

وفي سبتمبر سنة ١٢٥٩ م (٦٥٧ هـ) غزا هولاءكو الشام بجيش قوى ، وحاصر ابنه يشموط ميافارقين ، وادرك الناصر استحالة الوقوف وحده في وجه التتار ، فقرر ان يطلب من المماليك معونة حربية تسمح له بوقف سيل المغيرين (٣) . وكان سلطان مصر في ذلك الوقت الملك المنظر سيف الدين قطز وهو من الخوارزمية (٤) الناقلين على التتر والعارفين بما

(١) ابن ابى الفضائل - النهج السيد المقدمة بالفرنسية للاستاذ Blochet ج١ ، ص ٣٧٥ .

(٢) المقريري - السلوك - ج١ ، ص ٤١٦ - ٤١٧ .

Muir : The Mamluk or Slave Dynasty of Égypt.p.38

(٣) المقريري - السلوك - ج١ ، ص ٤١٦ - ٤١٧

(٤) كان قطز شابا اشقر كبير اللحية ويقال ان اسمه الاصيلي محمود ابن مودود ، وانه ينتسب الى بيت الملك في خوارزم - ابن اخت جلال الدين خوارزمشاه - ولما قضى المغول على ملك هذه الاسرة كان قطز من السبايا الذين حملوا الى دمشق ، وهناك بيع الرقيق للسلطان ايبك التركماني . ويؤثر عن قطز انه قال لاحد المنجمين « انا اكسرهم - اي التتار - وأخذ بثأر خالي خوارزم شاه ويقال ان كلمة قطز معناها بالتركية الكلب الشرس . - راجع (الكتبي - فوات الوفيات - ج٢ ، ص ١٣٢ - ١٣٣) ويلاحظ انه في تلك السنة عزل قطز السلطان على بن ايبك واعلن نفسه سلطانا مبررا ذلك بقوله : « لا بد من سلطان قاهر يقاتل العدو والملك المنصور على صبي لا يعرف تدبير الملكة » .

←

يسفكونه من دماء في اي بلد يحلون فيه • وعلى الرغم من سوء العلاقات بين قطز والناصر ، فان خطورة الموقف جعلت السلطان المملوكي يتناسى الاحقاد ويقبل طلبه الخاص بارسال نجدات عسكرية اليه • ويظهر دهاء قطز بوضوح في الرسالة التي ارسلها الى الناصر لهذا الغرض ، اذ يخبره فيها بانه يقبل كل عروضة عن طيب خاطر ، ولا يقتصر على ذلك بل يعتبر الناصر ايضا - بصفته سليل صلاح الدين - ملكا على جميع الممالك التي خضعت لسلطان الايوبيين ومنها مصر • ثم يضيف بانه - اي قطز - ليس الا احد قادته على ضفاف النيل ، وانه يتعهد ان يعطيه السلطنة العليا اذا اراد القدوم الى القاهرة ، كما يعرض عليه ان يرسل له جيشه الى دمشق ليجنبه عناء القدوم بنفسه الى القاهرة اذا كان يرتاب في صدق نواياه (١) • وسواء اكانت هذه الوعود آتية من الفزع من هولاء او آتية من ان قطز يريد ان يخدع امير دمشق ليأخذ املاكه فيما بعد ، فان المغول اتهموا فرصة سكون الناصر وتابعوا السير الى الشام ، فاستولوا على حلب في ٢٥ يناير سنة ١٢٦٠ م (صفر ٦٥٨ هـ) بعد سبعة ايام مروعة من السفك والتخريب (٢) • ثم سقطت ميافارقين بعد ذلك بعدة شهور في يد يشموط ابن هولاء ، بعد ان دافعت حاميتها دفاعا باسلا لم يشهد المغول مثله ، واستشهد صاحبها الملك الكامل محمد الايوبي (٣) •

→

& (Wiet : Hist. de la Nation Égyptienne, t. 4, p. 390, Éncy. of Islam, Art Kutuz) & Blochet : Op. cit. I, p. 414 Note 4.

و (عبدالله بن ابيك - كثر الدرر وجامع الفرر - ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣٥)

(١) المقريري - السلوك - ج ١ ، ص ٤١٨ ، ابو الفداء - المختصر في اخبار البشر - ج ٣ ، ص ٢٠٨) •

(٢) انظر (Camb. Med. Hist. vol. IV, p. 643.)

(٣) « Amedroz » J. R. A. S. 1902 & Creswell : The

←

وامام ذلك الخطر الدايم رأى بعض امراء الايوبيين في الشام ان يخضعوا للغزاة حرصا على كيانهم ، ومن هؤلاء الملك الاشرف موسى سليل اسد الدين شيركوه الذي لم يكن يملك في ذلك الوقت الا قرية تل باشر الصغيرة قرب الرها ، وكافأه هولاء على ذلك بان رد اليه امارة حمص التي اخذها منه الناصر يوسف قبل ذلك باثني عشر عاما (٦٤٦ هـ) ، وجعله قائده العام في الشام^(١) . اما الناصر فانه خرج بجيوشه من دمشق ومعه مماليكه الناصرية والعزيزية وعدة من البحرية^(٢) وعلى رأسهم الامير بيبرس البندقدارى^(٣) ، وخيم على يرزه^(٤) على مسافة سيرة من دمشق



works of Sultan Baibars in Egypt' Bulletin de l'Institut Français D'Archeologie orientale, tome 26, 2eme. fasc., p. 177—178, & Ency. Isl. Art. Maiyafarikin.

- (١) المقريري - السلوك - ج١ ، ص ٤٢٣ و ٤٢٥ و ٤٢٣ ، العيني - عقد الجمان - (جزء حوادث ٦٥٦ - ٦٧٣ هـ) ورقة ٤٢٩ .
 (٢) ابن واصل - مفرج الكروب - ج٢ ، لوحة ٣٩٤ .
 (٣) سبق ان اشرنا الى مفارقة الممالك البحرية الملك الناصر والتجائهم الى الملك المغيث الايوبي صاحب الكرك (انظر الباب الثالث ص ١٣٦) ونضيف الى ذلك بان هؤلاء الممالك لجأوا الى الاغارة على املاك الملك الناصر الامر الذي جعله يزحف بجيوشه نحو الكرك ويحاصر المغيث بها سنة ٦٥٧ هـ لحمايته لهم . واضطر المغيث الى قبول شروط الناصر التي منها تسليم ما عنده من البحرية اليه . ولما علم بيبرس بذلك هرب في جماعة من البحرية الى الملك الناصر طالبين منه العفو فعفى عنهم وادخلهم في خدمته ، وقبض المغيث على من بقى عنده من البحرية وبعث بهم الى الملك الناصر فاعتقلهم بقلعة حلب ، وظلوا بها الى ان استولى التتار عليها فاخذهم هولاء مع من اسر الى بلاده . راجع (ابن واصل - مفرج الكروب - ج٢ ، ص ٣٩٠ - ٣٩١) ، ابو الفداء - ج٣ ، ص ٢٠٣ ، المقريري - السلوك - ج١ ، ص ٤١٤ - ٤١٥ ، ابو المحاسن - النجوم الزاهرة - ج٧ ، ص ٥٣ .
 (٤) هي قرية بالفوطة - (ياقوت - معجم البلدان - ج١ ، ص ٥٦٣ .

شمالا . غير ان تعدد عناصر جيشه (١) وقديم التنافر بين تلك العناصر فضلا عن اختلاف قلوب امرائه ، وتأمر مماليكه الناصرية على قتله ، وخوف الامراء من هولاءكو وجنوده ، سرعان ما جعل ذلك الجيش ينفذ من حول الناصر (٢) . عند ذلك قرر الناصر ان يترك دمشق مؤقتا لمصيرها التعس وان ينسحب الى غزة حيث يكون على مقربة من النجدة التي وعده بها سلطان مصر (٣) . وكانت هذه الخطة المتقلبة موافقة الى اقصى حد لطبيعته فانه لم يفكر مطلقا في حماية عاصمته وتعريض حياته للخطر بها ، بل اسرع بتركها لوزيره زين الدين الحافظي (٤) الذي اسلمها للمغول في مارس سنة ١٢٦٠ م (ربيع الاول سنة ٦٥٨ هـ) ، وحاولت قلعتها الحصينة المقاومة

(١) كان جيش الناصر يشتمل على جنود عرب وعجم وتركمان ومطوعة (ابو المحاسن - النجوم - ج٧ ، ص ٧٤) .
(٢) ابن واصل - مفرج الكروب - ج٢ ، ص ٣٩٤ .
(٣) ابو الفداء - ج٣ ، ص ٢٠٩ - ٢١٠ ، السلوك - ج١ ، ص ٤١٩ - ٤٢٠ .

(٤) الامير زين الدين سليمان بن المؤيد بن عامر العقرباني المعروف بالزين الحافظي . كان ابوه خطيب عقربا من قرى دمشق ، واشتغل هو بالطب حتى مهر فيه ، ولقب بالحافظي لانه خدم الحافظ نور الدين ارسلان شاه بن العادل ابي بكر بن ايوب صاحب قلعة جعبر ، ثم انتقل الى خدمة الملك الناصر يوسف بحلب ، فصارت له عنده منزلة رفيعة ، وكثرت امواله ، وصار مكيئا في دولته ويرسل عنه الى هولاءكو ، فمازج التتار واطمعمهم في البلاد ، وعاد فهول بهم على الناصر حتى هرب ، فقام هو بامر دمشق للتتار ودعوه بالملك زين الدين . وبعد هزيمة التتار في عين جالوت فر مع نواب التتار من دمشق خوفا من الملك المظفر قطز . وقد قتل زين الدين الحافظي بيد المغول سنة ٦٦٢ هـ .

راجع (ابن ابي الفضائل - النهج السديد ص ٦٦٩ ، حاشية رقم او « Blochet » و ص ٦٧٠ - ٦٧١ ، المقرئزي - السلوك - ج١ ، ص ٤٢٣ حاشية رقم ٤) .

دون جدورى ، واستسلمت الحامية في ٣ يونيو من نفس السنة (١) . ونجت دمشق من التخريب (٢) بفضل وساطة اعيانها ، واقتدت انطاكية بدمشق في التسليم ولكنها لم تسلم من التخريب (٣) . وفي ذلك الوقت علم هولأكو بموت اخيه الخان الاعظم منجوقان ، فاسند قيادة جيوشه في الشام الى كتبغانوين ورحل مسرعا الى القورلتاي - مجمع زعماء التتر - في العاصمة قره قورم (٤) حيث تجري الانتخابات لاختيار خاقان المغول الجديد . وقدر هولأكو انه سوف يعين خاقانا للمغول لاهمية فتوحاته واتساعها ، ولكنه علم في تبريز (٥) ان الاختيار وقع على اخيه

(١) نقش على جدران قلعة دمشق عبارة تذكارية عن حملة المغول عليها تبين ان سقوط القلعة في ايدي المغول كان في ٢١ جمادى الآخرة ٦٥٨ هـ (٣ يونيو ١٢٦٠ م) وان استعادة الجيش المصري والشامى لها كان في ٢٧ رمضان من نفس السنة (٥ سبتمبر) اما المدينة نفسها فسلمت قبل سقوط قلعتها بنحو شهرين .

راجع (Gaston Wiet : Hist. De la Nation Egyptienne, t. IV, p. 411.)

(٢) كان المؤرخ المعروف بابى شامة موجودا بدمشق اثناء الاحتلال المغولى لها ، وقد وصف هذا الغزو مفصلا في كتابه «الذيل على الروضتين» ص ٢٠٤ وختمه بقوله «والحمد لله الذي عافانا مما ابتلى به غيرنا» .

(٣) انظر (Camb. Med. Hist. vol. IV, p. 643.)

(٤) قره قورم مدينة في منغوليا على نهر أرخون في وسط آسيا ولم يبق منها الا انقاض ودير بوذى .

(٥) حلت تبريز منذئذ محل بغداد في الجاه والثراء ، واصبحت العراق تحكم حكما مغوليا من هناك .

راجع - (عبد الفتاح السرنجاوى - النزعات الاستقلالية في الخلافة العباسية - ص ٣٠٥) .

قوبيلاي^(١) (١٢٦٠ - ١٢٩٤) ، وان الاختيار تقرر بصفة غير شرعية بوساطة امراء مغول الشرق الاقصى الذين ارادوا افساد الانتخابات قبل مجيء امراء الغرب ، وكان ذلك منافيا لقواعد الحكم التي قررها جنكيزخان ، ولكن هولاءكو قبل تلك النتيجة احتراماً لآخيه قوبيلاي^(٢) .

اما الناصر فانه ما كاد يصل الى غزة على رأس جيشه حتى اخذ قطز في اغراء وحدات ذلك الجيش واجتذابها الى ناحيته^(٣) ، وذلك لان قطز لم يكن يخشى شيئاً خشيته من وصول امير ايوبى على رأس قوة حرية الى حدود مصر . ونجحت اغراءات قطز حتى الفى الناصر نفسه وحيدا في غزة ، فخرج منها في بعض اقاربه وحاشيته وهو لا يدري بالضبط ماذا يفعل ، فاتجه الى قطيا^(٤) بجنوب فلسطين لعله يجد فيها مأوى او منجاة

(١) صار قوبيلاي الخان الاعظم على بلاد التتر حتى سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٤ م) واستولى في اثناء حكمه على البقية الباقية من بلاد الصين ، ونقل عاصمة التتر من قراقورم Karakorum الى خان بالق Khan Balik وهي بكين الحالية ، وانصبغت دولة قوبيلاي منذ ذلك الوقت بصفة صينية من دون سائر دول التتار وعرفت الاسرة الحاكمة بها باسم يون Yuen
راجع - : Ency. Of Islam. Art. Kubilai, Lane—Poole
(Moham. Dynas, p. 212 215.)

(٢) Blochet : Hist. des Sultans Mamlouks, vol. (٢)
I, p. 377—378.)

(٣) يروى ابو شامة في هذا الصدد العبارة التالية « . . . فتوجه التتر الى مصر مع الانتقال ، وتوجه هو - اي الناصر - مع خواصه الى وادى موسى ثم نزل بركة زيزى وكبسه نائب التتار بها » .
راجع (الدليل على الروضتين - ٢٠٥)

(٤) وتكتب ايضا قطية ، وهي قرية من نواحي الجفار في الطريق بين مصر والشام في وسط الرمل قرب الفرما وبها جامع ومارستان (مستشفى)

←

من المغول من ناحية والمماليك من ناحية اخرى . وبينما هو على تلك الحال ، افشى اثنان من رجاله الى كتبغانوين (١) - نائب هولاكو بدمشق - سر ارتداد الناصر عن الحدود المصرية ، فأرسل القائد المغولي ثلة من الفرسان قبضت على الامير الايويبي عند بركة زيزاء (٢) وحملته الى هولاكو . واختار هولاكو ان ينسى خطاب السب الذي ارسله اليه الناصر ردا على خطابه ، او لعله - لان المغول لا ينسون شيئا - رأى ان امير دمشق انفع له وللسياسة التي يريد اتباعها مع المسلمين من امير حمص الشاب الملك الاشرف موسى ، ولهذا لقيه لقاء طيبا ، ووعد به باحياء الامبراطورية

→

وبها والى طبلخاناه مقيم لآخذ العشر من التجار ، وبها قاض وناظر وشهود ومباشرون . لا يمكن احد من الجواز من مصر الى الشام او بالعكس الا بجواز مرور . وكان بها مكان اخذ المكس من القادمين الى مصر (ياقوت - معجم البلدان - ج ٤ ص ١٤٤) وقد اندثرت هذه القرية الآن ولم يبق الا اطلالها في الطريق بين القنطرة والعريش في الجنوب الشرقي من محطة الرماناة (الروماني قديما) وعلى بعد عشرة كيلومترات منها . راجع - (ابو المحاسن - النجوم - ج ٧ ص ٧٧ حاشية رقم ٢) .

(١) يرد اسم هذا القائد على صيغ مختلفة مثل كتبوغا وكتبوقا وكتبوقا نوين ، وهو من قبيلة تترية اعتنقت الدين المسيحي منذ قرون (Wiet: op. cit. IV, p. 409.) وقد يكون هذا من الاسباب التي جعلته يضطهد مسلمي دمشق ويعظم قسوس النصارى وينزل كنائسهم مما شجع نصارى دمشق على الاستطالة على المسلمين (ابو شامة - الذيل على الروضتين ص ٢٠٨ ، المقرئ - السلوك - ج ١ ص ٤٢٥) ونويسن - حسب ضبط صبح الاعشى - ج ٦ ص ٣٣ - لفظ فارسي كثيرا ما يقرن باسماء قواد التتر ومعناه مقدم الف وقيل عشرة آلاف - (ابو المحاسن - النجوم - ج ٧ ص ٧٨ حاشية ٣) .

(٢) قرية من قرى البلقاء الكبيرة ، والبلقاء كورة من اعمال دمشق - يطؤها الحاج ويقام بها لهم سوق - وفيها بركة عظيمة (ياقوت - معجم البلدان - ج ٢ ص ٩٦٦) .

الايوية الممتدة من اطراف الشام الى النوية ومن برقة الى الفرات ، كما وعده بأنه سوف يجعل له السيادة الفعلية في تلك البلاد كلها بما في ذلك مصر بشرط ان يعترف بسُلطان المغول وسيادة الخان الاكبر (١) . وهنا تتضح لنا حقيقة لها اهميتها فيما يتعلق بسلامة دولة المماليك في مصر - الا وهى تواطؤ ملك من ملوك الأيوبيين مع المغول في القضاء على الدولة المملوكية الناشئة . وهذه الحقيقة ان دلت على شيء فانما تدل على مدى ما تعرضت له الدولة المملوكية من الاخطار المهددة لكيانها ، كما تدل على ان قيام دولة المماليك ظل ناقصا ما دامت تلك الاخطار ماثلة .

ورأى هولاء ان تتابع جيوشه زحفها نحو الغرب ، غير مقتصر على الفتوحات الهامة التي تمت له بالاستيلاء على حلب ودمشق ، فاخذ يعد العدة للهجوم على بيت المقدس والتعقيب على ذلك بغزو البلاد المصرية (٢) فارسل رسله الى مصر بكتاب كله وعيد وتهديد وانذار بالويل والثبور لسُلطان مصر المملوكي ان هو لم يخضع له ويعترف بسُلطان المغول (٣) . وقد اوردنا - كضميمة في آخر الكتاب - نص هذا الخطاب الذي يدل على مبلغ اعتداد المغول بانفسهم ومدى ما احدثوه في البلاد التي فتحوها من قتل وتخريب .

وامام هذا الخطر الداهم عقد السلطان قطز مجلسا من كبار الامراء، واستقر الرأي على مقابلة وعيد التتر بالاستعداد للحرب . وحوالى ذلك الوقت اخذ كثير من امراء المماليك البحرية ، الذين هربوا من القاهرة

(١) Blochet : Hist. des Sultans Mamlouks, (١)
p. 380.)

(٢) راجع (٢)
(Camb. Med. Hist. vol. IV, p. 643.)

(٣) المقرئزي - السلوك - ج ١ ص ٤٢٧ - ٤٣٩

ايام اييك خوفا من ان ينالهم ما نال اقطاي ، وبقوا في منتصف الدويلات الشامية الايوبية ، وفي بلاط دولة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى ، اخذوا يفتدون الى القاهرة بعد ان انتشر المغول باكبى مدن الشام وهددوا آسيا الصغرى نفسها . ونسى اولئك المماليك مخاوفهم ، ونسى قطز مخاوفه كذلك ، فرحب بمقدمهم ومنحهم الاقطاعات الجلييلة الواسعة ، فصار المماليك بذلك كتلة واحدة متحدة ، وتلك الظاهرة تتكرر كثيرا في صفوف المماليك ابان الازمات التي تعرضت لها دولتهم في تاريخها الطويل . ومن ضمن المماليك الذين رجعوا الى القاهرة والقائلين بوجوب مقاتلة التتر ، الامير بيبرس البندقدارى (١) ، الذي استقبله قطز مرحبا سنة ١٢٦٠ م (٦٥٨هـ) ، وانزله بدار الوزارة (٢) واقطعه قليوب واعمالها (٣) .

(١) يقال ان بيبرس طلب من الناصر عندما كان مقيما عنده ، ان يقدمه او يقدم غيره على اربعة آلاف فارس ليتوجه بهم الى شط الفرات ليمنع التتر من عبوره ، فلم يمكنه الناصر من ذلك ، ففارقه وقدم الى مصر . (الكتبى - فوات الوفيات - ج ١ ص ٨٦) . ويقال كذلك ان بيبرس سب الوزير زين الدين الحافظى حينما اشار على الملك الناصر بعدم مقاتلة التتر ، وصاح به قائلا « انتم سبب هلاك المسلمين » - راجع (المقرئى - السلوك - ج ١ ص ٤١٩) .

(٢) كانت دار الوزارة بجوار القصر الخلفى الفاطمى المعروف بالقصر الشرقى الكبير ، بناها الوزير الافضل بن بدر الجمالى ويقال ان بدر الجمالى نفسه هو الذي بناها . وكان يسكنها وزراء الدولة الفاطمية ارباب السيوف من عهد الافضل الى ان زالت الدولة ، وكانت تعرف بالدار الافضية . ثم استقر بها صلاح الدين الايوبى وابنه العزيز ثم الملك العادل وصاروا يسمونها بالدار السلطانية . واول من انتقل عنها من الملوك وسكن قلعة الجبل الملك الكامل بن العادل الذي جعلها منزلا للرسل . فلما ولى قطز ملك مصر وحضر اليه المماليك البحرية من الشام خرج قطز للقائهم وانزل الامير بيبرس بدار الوزارة . راجع (المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٣٠١ - ٣٠٢) (٣) الكتبى - فوات الوفيات - ج ١ ص ٨٦ ، المقرئى - السلوك - ج ١ ص ٤١٩ - ٤٢٠ .

وكان رد قطز على تهديد هولاء واضحاً ، اذ قبض على رسل المغول واعدهم بتوسيطاً (١) ، وعلق رؤوسهم على باب زويلة ، ونودى في القاهرة وسائر الاقاليم بالخروج الى الجهاد (٢) . وفي نفس الوقت اخذ قطز يعمل على حشد الجيوش وجمع الاموال اللازمة للانفاق عليها بفرض ضرائب جديدة مختلفة على سكان مصر والقاهرة (٣) . ولقى قطز في جباية تلك الضرائب معارضة شديدة من جانب القضاة ورجال الدين ، اذ اشترطوا عليه اولاً احضار ما عنده وعند حريمه ، وما عند الامراء من الحلوى وضربها سكةً ونقداً ، وتفريقها على رجال الجيش ، فان لم تقسم بكفائتهم جاز ان يفرض ضرائب جديدة على الرعية ، وان يقتصر من اموال التجار ليستعين بذلك على مجاهدة اعداء الدين . وامثل قطز لرأى رجال الدين ولم يشرع في جمع الاموال من المصريين الا بعد ان احضر هو والامراء ما عندهم من الحلوى والاموال بين يدي الشيخ عز الدين بن عبد السلام اقوى رجال الدين مكانة في ذلك الوقت (٤) . ولم يقتصر الامر على

(١) التوسيط هو ان يضرب الشخص بالسيف ضربة تقطعه نصفين ، وكان هذا النوع من الاعدام شائعاً بمصر في العصور الوسطى .
(٢) المقرئزي - السلوك - ج ١ ص ٤٢٩ .

(٣) وضع لنا ابن ياس (بدائع الزهور ج ١ ص ٩٦ - ٩٧) هذه الضرائب فقال ان قطز (اخذ في اسباب جمع الاموال فاخذ من اهل مصر والقاهرة على كل راس من الناس من ذكر وانثى ديناراً واحداً ، واخذ من اجرة الاملاك والاقواف شهراً واحداً ، واخذ من اغنياء الناس والتجار زكاة اموالهم معجلاً ، واخذ من الترك الاهلية الثلث من المال ، واخذ على الفيطان والسواقى اجرة شهر ، واخذ من ابواب هذه المظالم اشياء كثيرة فبلغ جملة ما جمعه من الاموال في هذه الحركة ستمائة الف دينار » .
والمقصود بالترك الاهلية عناصر الترك المقيمة بمصر من زمن طويل
« Turcs domicilés » . راجع (المقرئزي: السلوك، ج ١، ص ٤٣٧ حاشية ٥)

(٤) تاج الدين السبكي - طبقات الشافعية الكبرى - ج ٥ ص ٨٣ - ابن واصل - مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٩٢ .

ذلك بل لقي قطز صعوبة اخرى في اقناع كثير من الامراء بوجوب الرحيل معه من مصر لملاقاة التتر ، فاخذ يعمل على اثارة نخوتهم واستنهاض همتهم بقوله « يا امرء المسلمين ، لكم زمان تأكلون اموال بيت المال واتسم للغزاة كارهون ، وانا متوجه ، فمن اختار الجهاد يصحبنى ، ومن لم يختار ذلك يرجع الى بيته ، فان الله مطلع عليه ، وخطيئة المسلمين في رقاب المتأخرين ^(١) » . وكان لهذه الخطبة اثرها في تقوية روحهم المعنوية المنهارة فتحالفوا جميعا على الجهاد في قتال العدو ودفعه عن البلاد .

يتضح لنا مما تقدم انه فضلا عن الصعوبات الخارجية التي واجهت دولة المماليك من جراء انضمام الايوبيين الى المغول في غزو مصر ، واجهتها صعوبات اخرى داخلية لا تقل عنها خطرا ، عندما اعلنت التعبئة العامة من مال ورجال لصد ذلك الخطر المغولي الداهم . وفي اغسطس سنة ١٢٦٠ م (رمضان سنة ٦٥٨ هـ) خرج قطز من مصر على رأس الجيوش المصرية ومن انضم اليه من الجنود الشامية وغيرهم ^(٢) ، وامر الامير بيبرس البندقدارى ان يتقدم بقطعة من العسكر ليكشف اخبار التتار ، فسار بيبرس حتى لقي المغول عند غزة ، وتمكن بيبرس من ان يلحق بطلائع المغول هزيمة كانت الاولى في تاريخ المغول غير انها لم تكن حاسمة ، واخذ بيبرس يناوش العدو ويراوغه ليخفى عنه تحركات الجيش الرئيسي بقيادة قطز . ثم تقدم قطز عن طريق الساحل ، فخرج اولا نحو عكا لكي يتبين نيات الفرنج الذين ارتبطوا مع الناصر سلطان حلب ودمشق بمعاهدة منذ ٢١ فبراير سنة ١٢٥٤ م وتستمر عشرة اعوام ، وقد اندمجت مصر

(١) المقرئزي - السلوك - ج١ ص ٤٢٩ .

(٢) ابو المحاسن - النجوم الزاهرة - ج٧ ص ٧٨ .

في تلك المعهدة بعد عقدها في سنة ١٢٥٦ م (١) . ويقول بعض المؤرخين في ذلك الصدد ان الفرنج عرضوا وقتذاك على قطز ان يمدوهم بقوات من عندهم ، ولكنه اكتفى بان طلب منهم التزام الحيدة التامة والاقاثلهم قبل ان يلقي التتر (٢) . غير ان احوال الصليبيين ببلاد الشام لم تكن تسمح لهم بتقديم اية مساعدة للسلطان قطز او المغول ، ولم يكن السلطان قطز في الواقع بحاجة الى خشيتهم او تهديدهم لان احوال مسيحيي الشام جميعا ولا سيما في عكا بلغت اقصى درجات السوء حيث قام نزاع بين الجنوية والبنادقة سنة ١٢٥٦ م ، وسرعان ما تطور ذلك النزاع الى حرب اهلية دخلت فيها كل العناصر المسيحية ، فانضم اليبازنة ، وفيلب دي مونتفورت امير صور الى الجنوية ، وانضم بوهمند السادس امير انطاكية الى البنادقة . ولم تستطع جماعات الفرسان الحربية المعروفة ان تقف مكتوفة اليدين ، فنضم الاسبتاريون Hospitallers الى الجنوية وانضم الداوية Templars والتوتون وهيئة القديس توماس اكون Acon ولازارس Lazārus الى البنادقة ، وامتدت الحرب على طول ساحل الشام برا وبحرا ، فقتل عدد كبير منهم وتلفت كميات هائلة من البضائع ، ولم ينته هذا الصراع الا بعقد معاهدة بين الطرفين في ٩ اكتوبر سنة ١٢٥٨ م (٣) . ومن هذا نرى ان حالة الفرنج الداخلية - حينما تقدم قطز لقتال المغول سنة ١٢٦٠ م - كانت من الضعف والسوء بمكان بحيث لا تسمح لهم بالاشتراك فعليا في مساعدة القوة المصرية او المغولية على السواء (٤) .

(١) (Wiet : Hist. de la Nation Egyptienne, t. IV, p. 410 & King : The Knights Hospitallers, p. 252.)

(٢) المقريري - السلوك - ج ١ - ص ٤٣٠ .

(٣) راجع (King : Op. cit. pp. 252—255 & Wiet : Op. cit. p. 410.)

(٤) (Wiet : Op cit. t. 4, p. 410.)

ثم وافى قطز الامير بيبرس عند عين جالوت (١) . ويروى بعض المؤرخين ان رجوع هولاءكو بجزء من جيشه الى فارس قبيل ذلك الوقت اضعف من قوى المغول امام المماليك (٢) ، بل يقول ابو المحاسن ان بعض امراء المسلمين الخاضعين للتتر ، نصحوا القائد المغولى بالانتظار ريثما يعود هولاءكو او يصل المدد من عنده الى الشام ليستطيع ملاقاته الجيش المصري (٣) و (٤) . وكيفما كان الامر فان رجوع هولاءكو الى فارس لم

يغير من عزم التتر على التقدم لغزو مصر ، كما انه لم يلق في نفوس المماليك امنا ولا هدوءا ، بل ظلت قلوبهم مضطربة واهمة (٥) من هؤلاء القوم الذين اجتاحوا آسيا وجزءا من اوروبا دون ان تلحق بهم هزيمة واحدة . وفي صباح يوم الجمعة الموافق ٣ سبتمبر سنة ١٢٦٠ م (٦) (٢٦ رمضان سنة ٦٥٨ هـ) التقى الجمعان المغولى والملوكي في معركة عامة عند عين جالوت .

(١) بليدة شرق دارين بين بيسان ونابلس من اعمال فلسطين ويرجع هذا الاسم الى الاسطورة القائلة بان داود قتل جالوت في هذا المكان وقد سماها الصليبيون مدينة Tubanéa راجع (ياقوت - معجم البلدان - ج٣ ص ٧٦ و (Ency . of Islam Art Ain Djalut .

(٢) (Levi Della vida : « L'invasione dei tartari in Syria (٢) Nel 1260 » Orientalia nova Series vol. IV (Roma 1935) p. 354.)

(٣) ابو المحاسن - النجوم الزاهرة - ج ٧ ص ٧٨ - ٧٩ .

(٤) يقال ان هولاءكو كان يتأهب للزحف على مصر بحوالي اربعين الف جندي ، واذا بوفاة اخيه منجوقان تضطره الى الرجوع بجزء من جيشه الى فارس بعد ان ترك بالشام قائده كتبغا نوين مع عشرة آلاف من عساكره لتنفيذ مهمة فتح مصر - راجع (الرمزي - تليق الاخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار - ج ١ ص ٤١٩) .

(٥) المقرئزي - السلوك - ج ١ ص ٤٣٠ .

(٦) (Ency. of Islam, Art. « Ain Djalut » .)

وليس ادل على تفاصيل تلك المعركة واسرارها من رواية « صارم الدين ازبك بن عبدالله الاشرفي » ^(١) الذي وقع اسيرا في يد المغول ابان غزوهم الشام ، وقبل الخدمة في صفوفهم وحارب معهم في تلك الواقعة ، فروايتها لها قيمتها لا بصفته شاهد عيان للموقعة فحسب ، بل للدور الذي لعبه فيها كما يتضح من النص حيث يقول فيه « ... لما قدمت الشام ، وجدت التتار مجتمعين على نهر الاردن وقد خرجوا قاصدين الديار المصرية ، وقد خرج المسلمون للقائهم . فلما علمت ان التتار لا بد لهم من الديار المصرية ، بعثت غلاما لى في صفة جاسوس وامرته ان يجتمع بالملك المظفر قطز ، والامير بيبرس البندقدارى ، وبلبان الرشيدى وسنقر الرومى ، ويعرفهم ان التتار لا شيء فلا تخافوا منهم ، وان تكون ميسرة المسلمين قوية بالخييل والرجال ، وعرفهم ان التتار في عسكر قليل . واوصيته

(٣) بدأ صارم الدين ازبك حياته مملوكا عند الملك الاشراف موسى صاحب حمص ، وشغل وظائف ادارية في الشام ، وعاش ببلاد المغول مدة من الزمان ، وتوفي في حوالي سن الخمسين ، يناير - فبراير سنة ١٢٨١ م (شوال سنة ٦٧٩ هـ) بعد ان اعطانا معلومات دقيقة عن المغول ، وصورا حية عن عاداتهم تضمنها التاريخ الذي كتبه قرطاي العزى الخازندارى ، وهو ايضا موظف مملوكى شغل وظائف امير دمشق وحاجب حلب ونائب طرابلس وتوفي سنة ١٣٣٣ م (٧٣٤ هـ) فوق سن الستين . والجزء الخاص باخبار صارم الدين ازبك في تاريخ قرطاي العزى مخطوط بمكتبة الفاتيكان (ar. 726) وقد نشره العالم الايطالى G. Levi Della Vida تحت عنوان « غارة التتار على سوريا في سنة ١٧٦٠ م كما رواها شاهد عيان » : -

Della Vida : « L'invasione dei Tartari in Syria Nel 1260 di un testimone oculare » *Orientalia* vol. IV (Roma 1935) p. 352—376.

ويوجد هذا النص ايضا في مخطوط (عبدالله بن ايبك - كنز الدرر وجامع الفرر - ج ٨ ق ١ لوحة ٤٦ - ٥٢ -) (مخطوط بدار الكتب) . ونظرا لاهمية هذا النص راينا نقله برمته كضميمة في آخر هذا الكتاب .

ان يراعى المسلمون ان يكون الملتقى عند طلوع الشمس • فلما وصل غلامى الى عسكر المسلمين وجدهم خائفين من التتار خوفا عظيما ، فاجتمع ببعض الامراء الذين عرفته بهم ، وعرفهم ما اوصيتهم به • وكنت قلت في كلامى : — قل للامراء ، لا تخافوا ، ها انا واصحابي والملك الاشرف ، ننهزم بين ايديكم ، والله وكذلك كان • فلما سمع الامراء كلام غلامى ، قال بعضهم لبعض — « لا يكون هذا معمولية على المسلمين » • فلما كان ملتقى الجمعين على عين جالوت ، طلعت الشمس علينا ، وظلت عساكر الاسلام ، كان اول سنجق سبق أحمر وايض ، وكانوا لابسين العدد المليحة • واشرقت الشمس على تلك العدد ، فطلبنى كتبغا وقد بهت هو والتتار الذين معه لكثرة تلك العساكر وحسن ما عليهم وجمالهم وهم ينحدرون من الجبل ، وقال لى «يا صارم ! هذا رنك (١) من ؟» «قلت سنقر الرومى» •

(١) رنك كلمة فارسية بمعنى لون وقد استعملت في اوربا في العصور الوسطى كشعار للاشخاص والاسر بينما استعملت في المشرق كشعار للوظائف وكان من عادة كل امير مملوكي كبير او صغير ان يكون له رنك يخصه ، والرنك شعار فيه رسوم تدل على الوظيفة التي شغلها الامير وقت ترقيته الى مرتبة الامرة او على الوظيفة التي يؤثر ان يعرف بها من بين الوظائف التي تقلب فيها ، وهو لا يختلف عن رنوك الاسرة الاقطاعية في اوربا في العصور الوسطى الا من حيث كونها شخصية ومن حيث دلالتها على الوظائف . فكان لوظيفة الدوادار رسم دواة ، وللساقى رسم كأس وهو المعروف في العصر المملوكي باسم هتاب ، وللصلاح دار سيف ، وللبندقدار سيف ، وللممدار بقجة وهكذا . وقد جعل الامراء هذه الرنوك دهانا على ابواب بيوتهم والاماكن المنسوبة اليهم كمطابخ السكر وشون الغلال التابعة لهم والاملاك والمراكب وغير ذلك ، وعلى قماش خيولهم من جوخ ملون مقصوص ثم على قماش جمالهم من خيوط صوف ملونة ، وربما جعلوها على السيوف والاقواس الخاصة بهم وبمماليكهم ايضا .

راجع (الفلقشندي — صبح الاعشى — ج١ ص ٦١ — ٦٢ ،
المقريزي — السلوك — ج١ ص ٦٧٣ حاشية رقم ٤ ، وكذلك :

(Fox Davies : A Complete Guide to Heraldry, p. 1—12.)

ثم ظهرت سناجق صفر ، قال « هذا رنك من ؟ » ، قلت بلبان الرشيدي •
ثم تتابعت الاطلاب اولا فاولا وانحدروا من سفح الجبل ، ودقت الكوسات
والطبليخانات ، وامتأ الوادي والبر من العياط وغابت الفلاحين واهل القرى
والبلدان من كل جانب • وكنت غرا بمعرفة رنوك المسلمين ، فصار كتبغا
يسألني « هذا رنك من ؟ » فصرت ابي شيء طلع على لساني قلته • ثم ان
التتار انحازوا الى الجبل ، وفتح الله ونصر هذه الملة المحمدية بالمماليك
الترك البحرية ، ولم يسلم من التتر من يرد الخبر الى هلاوون^(١) ، ولكن
قتل الجميع ولم يرد خبرهم الا من كان مقيما بدمشق او حلب •

وتزيد المصادر العربية المعاصرة في تفاصيل هذه الواقعة على رواية
صارم الدين ، فتقول بان المغول انقضوا على المصريين في بادىء الامر
وتمكنوا من تشتيت شمل جناحهم الايسر ، فأضطرب المصريون وتزلزلوا
زلزالا شديدا ، وبانت الكرة عليهم ، وعند ذلك القى السلطان قطز خوذته
عن رأسه الى الارض وصرخ باعلى صوته « والسلاماه ! » وقاد الهجوم
بنفسه ، فضرب بذلك مثلا من امثلة الشجاعة النادرة اذ سرعان ما التفت
حواله القوات المصرية وحملوا على المغول حملة صادقة ، فاختل توازنهم
وارتدوا الى التلال المجاورة بعد ان تركوا قائدهم كتبغا صريعا في الميدان
وابنه اسيرا في ايدي المماليك^(٢) • ولقد عاد المغول وانتظموا ثانية عند
يسان فاشتبك معهم المصريون في معركة ثانية ، واشتدت وطأة القتال ،
وعاد السلطان قطز يصيح صيحة عظيمة سمعها معظم العسكر وهو يقول
« والسلاماه » ثلاث مرات ، « يا الله !! انصر عبدك قطز على التتار »^(٣) •

(١) صيغة لاسم هولوكو ترد كثيرا في كتب المؤرخين المعاصرين •

(٢) انظر - (ابو شامة - الدليل على الروضتين - ص ٢٠٧)

(٣) المقرئزي - السلوك - ج ١ ص ٤٣١ •

عند ذلك مالت كفة النصر الى جانب الجيوش المصرية ، وانهى امر هذه الواقعة الدامية التي اهتز فيها ميزان النصر والهزيمة مرات ، السى نصر المماليك وهزيمة المغول لأول مرة في تاريخهم . عند ذلك نزل السلطان قطز عن فرسه ، ومرغ وجهه على الارض وقبلها وصلى ركعتين شكرا لله ، ثم ركب لينظر عاقبة المغول (١) .

هذا ، وقد أورد القلقشندي (ج٧ ص ٣٦٠) رسالة فريدة على لسان الملك المظفر قطز الى الملك المنصور نور الدين سلطان الدولة الرسولية باليمن يبشره فيها بهزيمة التتار . والرسالة قطعة ادبية في وصف المعركة من انشاء القا ضي محيي الدين بن عبد الظاهر . ويعترف القلقشندي بأنه تلقفها من أفواه بعض الناس كان قد عثر عليها في بعض المجاميع فحفظها منه . وقد رأينا نقلها كضميمة في آخر الكتاب .

ولقد كانت وقعة عين جالوت الحلقة الاولى في سلسلة الوقائع بين التتار ودولة المماليك ، كما انها تعتبر تجربة حربية خطيرة بين اسلوبين وفنين من فنون الحرب في العصور الوسطى . ومن الواضح ان هذه الواقعة التي انتهت بهزيمة المغول لأول مرة في تاريخهم ، بددت عقدة المناعة الحربية التي كانت سر انتصاراتهم منذ ايام جنكيزخان ، فانقضت عن العالم خرافة الاعتقاد بان المغول قوم لا يهزمون (٢) . على ان الاهمية الكبرى لهذه الواقعة هي انها نصر لجيوش دولة لا زالت في دور التأسيس

(١) راجع (المقرئزي - السلوك - ج١ ص ٤٣١ ، ابو المحاسن - النجوم الزاهرة - ج٧ ص ٧٩ ، ابو الفداء - ج٣ ص ٣١٤ ، عبدالله بن ابيك - كنز الدرر - ج٨ ق١ ص ٤٢ - ٤٣ ، ابن اياس - بدائع الزهور - ج١ ص ٩٧) . وقال ابو شامة في هذا الصدد . -

غلب التتار على البلاد فجاءهم = من مصر تركى يوجد بنفسه
بالشام اهلكهم وبسدد شملهم = ولكل شيء آفة من جنسه
انظر (ابو شامة - الذيل على الروضتين - ص ٢٠٨)

(٢) راجع (Camb. Med. Hist. vol. IV, p. 644.)

تتلمس مختلف الوسائل التي تدعم بها اركانها، فجاء انتصار المماليك في تلك الواقعة خدمة كبرى لهذه الدولة الناشئة ، وعاملا من العوامل المؤسسة لها ، اذ اخذ العالم الاسلامي ينظر الى الدولة المملوكية نظرة كلها اجلال وعطف . وروايات المؤرخين عن هذه الحملة التي تجاوزت نتائجها الخاطفة كل آمال المسلمين ، تشهد بفضل مصر ودولة المماليك ، فيروى الخزرجي مثلا ان المظفر نور الدين سلطان دولة بنى رسول باليمن ، حج بجيش كبير في العام التالي للموقعة اي في سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) . وهناك في الحجاز طلعت اعلامه الشريفة وأعلام سلطان مصر . فقال له أحد الامراء : « هلا أطلعت أعلامك يا مولانا السلطان قبل اعلام المصريين ؟ » ، فقال له سلطان اليمن : « أتراني أوخر أعلام ملك كسر التتار بالامس ، وأقدم أعلامي لحضوري !! » (١) . هذا التصريح الجميل يدل على أن دولة المماليك في مصر قد اكتسبت عطايا ونفوذًا في العالم نتيجة لهذا النصر .

ويقول ابو الفداء في هذا المعنى أيضا : « وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم ، فان القلوب قد يئست من النصرة على التتر ، لاستيلائهم على معظم بلاد الاسلام ، ولانهم ما قصدوا اقليما الا فتحوه ولا عسكرا الا هزموه » (٢) .

ومما تجب ملاحظته كذلك ، ان نصرة عين جالوت كانت قد سبقتها نصرة سلبية ليس للمماليك أنفسهم فيها فضل، وهي ان المقاومة الايوبية التي ظلت تعارض قيام دولة المماليك ، وتلح في المطالبة بعرش مصر دونها ، قد انهارت أمام الغزو المغولي ، وبدا على ملوك الايوبيين ضعف وتخاذل في الوقت الذي أبدى فيه المماليك ثباتا وصلاحية للبقاء .

وعلى الرغم من أنه ليس في مقدورنا ان نحكم على مصير مشروع

(١) انظر (الخزرجي : العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية

ص ٦٩) .

(٢) ابو الفداء : المختصر في تاريخ البشر ج٣ ص ٢١٤

فتح مصر بالنسبة لاوروبا المسيحية التي أخذت تبني آمالا كبيرة على انتصار المغول على المسلمين^(١) ، فان بعض المؤرخين الاوربيين ذهبوا في تقدير أهمية عين جالوت الى أنها لم تنقذ مصر والشام او بالاحرى دولة المماليك فحسب ، بل انها انقذت العالم الاوربي والمدنية الاوربية من شر لم يكن لاحد من ملوك أوروبا وقتئذ قبل بدفعه^(٢) . هذا ، ومن المعروف ان طريق الصحراء الغربية هو الطريق الطبيعي المعروف لدى الغزاة والفاحين الذين قاموا بغزو أوروبا من الجنوب في العصور المختلفة ، فلا أقل من أن يسلكه هولاء كما يجحافلهم أيضا كما سلكه هانيبال وموسى بن نصير وطارق بن زياد والاغالبة والفاطميون وغيرهم من قبل وكما سلكه القائد الانجليزي منتجومرى من بعد في الحرب العالمية الثانية .

والواقع اننا اذا قارنا موقعة عين جالوت بالوقائع الحربية الحاسمة في العصور الحديثة مثل واقعة المارن في الحرب العالمية الاولى ، ومعركة العلمين في الحرب العالمية الثانية ، نجد ان عين جالوت كانت اقوى أثرا في تاريخ البشرية من كل تلك المعارك لانها لم تكن حربا بين شعوب راقية متحضرة ، بل كانت حربا أحد الطرفين فيها — وهم المغول — شعب بدائي بربرى جبل على التخريب وسفك الدماء في كل مكان حل فيه . فاتصاره في تلك الواقعة كان معناه القضاء المبرم على الحضارة الشرقية والغربية معا . وكان نصر عين جالوت اشارة لخلاص الشام من ايدي المغول ، اذ اسرع ولاية المغول بالهرب قبل ان يقعوا في ايدي الشاميين الذين هبوا

(١) يشهد بذلك ما قاله اسقف مدينة ونشستر Winchester من انه يأمل في أن يفنى المسلمون والمغول بعضهم بعضا ، وعندئذ يقيم المسيحيون على أشلائهم كنيسة كاثوليكية عالمية موحدة . راجع (Browne : A Literary Hist. of Persia, III p. 6.)
(٢) راجع (Camb. Med. Hist. vol IV, pp. 628, 643—644.)

للاتتقام ، وهذا بعض السر في استيلاء قظر في عدة اسابيع على البلاد الشامية كلها حيث اقيمت له الخطبة في المساجد حتى مدينة حلب ومدن الفرات (١) . وقامت في مدينة دمشق - لما وصلت اخبار عين جالوت - مذبحه كبرى (٢) في التتر ومن عاونهم على المسلمين من سكانها ، ونخص بالذكر منهم النصارى الذين تهاجموا على الاسلام ، واعتدوا على المسلمين في خلال فترة الاحتلال المغولى للدينة . ولم يستتب النظام والامن في هذه المدينة الا بعد ان دخلها قظر على رأس الجيوش المصرية والشامية الظافرة سبتمبر سنة ١٢٦٠ م (٢٧ رمضان سنة ٦٥٨ هـ) (٣) .

اخذ قظر يعمل على اعادة الامن الى نصابه في جميع المدن الشامية ، ومن سخريه الحوادث انه اخذ يعيد بعض امراء البيت الايوبي الى ممالكهم الصغيرة في الشام مثل الملك المنصور صاحب حماة ، والملك الاشرف موسى صاحب حمص ، بعد ان اخذ عليهم المواثيق بالولاء ، وبدفع الجزية (٤) . كما انه انعم على اعوانه امراء المماليك ، فاقطع الامراء الصالحية والمعزية اقطاعات جلييلة بالشام (٥) ، ورتب الامير شمس الدين اقوش البرلى (٦)

(١) المقرئزي - السلوك - ج ١ ص ٤٣١ و

(Lane—Poole : Hist. of Eggpt in the Middle ages, p. 262.)

(٢) انظر وصف المذبحه في (ابو شامة - الدليل على الروضتين - ص ٢٠٨ ، المقرئزي - السلوك - ج ١ ، ص ٤٣٢ ، ابو المحاسن - النجوم الزاهرة - ج ٧ ص ٨١) .

(٣) راجع المقرئزي : السلوك ج ١ ص ٤٣٣ - وانظر كذلك

(Wiet ; Op. cit. p. 411.)

(٤) راجع . . . (Lane—Poole : A Hist. of Egyptin the Middle Ages, p. 262.)

(٥) المقرئزي - السلوك - ج ١ ، ص ٤٢٢ .

(٦) لفظ البرلى محرف عن الكلمة التركية برنولو ومعناها ذو الانف



العزيزي اميرا بالساحل وغزة ومعه عدة من المماليك العزيزية (١) . وأقام قطز الامير علم الدين سنجر كنائب له في دمشق . اما مدينة حلب التي اضحى صاحبها الملك الناصر الايوبي اسيرا عند التتار ، فقد منح قطز نيايتها الى الملك السعيد علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ الذي فضل ان يترك بلاده - الموصل - عن الاعتراف بسيادة هولاء (٢) . وكان غرض قطز من تلك المنحة ، ان يصبح الملك السعيد وسيلة لتتبع حركات المغول واخبارهم عن طريق مكاتباته مع اخيه الصالح بن لؤلؤ صاحب الموصل (٣) . على ان تلك المنحة أدت الى هلاك قطز ، اذ ان الامير بيبرس البندقداري - الذي ابدى شجاعة في عين جالوت لا تقل عن شجاعة السلطان نفسه -

»→

الكبير او الانف الاحمر - (المقريزي - السلوك - ج ١ ، ص ٤٢٣ حاشية رقم ٢) .

(١) سبق ان اشرنا الى ان المماليك العزيزية هم مماليك الملك العزيز محمد صاحب حلب . وقد انتقلوا بعد وفاته الى خدمة ابنه الملك الناصر يوسف (راجع الباب الثالث ص ١٢٦) وفي اثناء واقعة العباسية التي دارت بين الناصر الناصر وايبك في فبراير سنة ١٢٥٤م (رجب ٦٤٨ هـ) خامر البرلى وجماعة من العزيزية على ابن استاذهم وصاروا مع ايبك . ثم انهم قصدوا بعد ذلك اغتيال ايبك ، وعلم بهم ، فقبض على بعضهم ، وهرب البعض الآخر . وكان البرلى من جملة من سلم وهرب الى الشام . فلما وصل الى الملك الناصر اعتقله بقلعة عجلون . وعندما اجتاحت التتار الشام ، اطلق الناصر سراحه قبل فراره من دمشق . فالتجأ البرلى واصحابه الى مصر . واشترك في واقعة عين جالوت وكافاه قطز بعد انتصاره فولاه الساحل وغزة وصار مقره نابلس .

انظر (ابو الفداء - المختصر في اخبار البشر - ج ٣ . ص ٢١٥ -

(٢١٦) .

(٢) (Ency. of Islam, Art : Kutuz.)

(٣) ابو الفداء - ج ٣ ، ص ٢١٦ .

كان يطمع في نيابة حلب ، وطلبها فعلا من قطز ، فلما رفض السلطان ان يجيبه الى طلبه ، تنكر له بيبرس ، واتفق مع جماعة من الامراء على قتله وظل يتربق الفرصة لتنفيذ غرضه . ثم واثته الفرصة اثناء عودة السلطان الى مصر وخروجه للصيد بالقرب من الصالحية . ففي اثناء رجوعه من صيده يريد الدهليز السلطاني ، وثب عليه بيبرس في عدة من المماليك ، وقتلوه بسيوفهم في ٢٢ اكتوبر سنة ١٢٦٠ م (١٥ ذي القعدة سنة ٦٥٨ هـ) (١) . واتفق الامراء بعد ذلك على بيبرس فاقاموه سلطانا ولقب بالملك الظاهر . ثم سار السلطان الجديد في الجيوش حتى دخل مدينة القاهرة بلا مقاومة وجلس في ايوان القلعة بدست المملكة في ٢٦ اكتوبر (١٩ ذي القعدة) من نفس السنة (٢) .

وهكذا اغتيل السلطان قطز ، صاحب الفضل في تدعيم الدولة المملوكية من الناحية الخارجية ، ولم تستقبله مملكته استقبال الفاتح المنتصر ، فحرم بذلك من لذة التمتع بثمره انتصاره (٣) . ويروي ابو المحاسن ان قطز « بقى ملقى بالعراء ، فدفنه بعض من كان في خدمته بالقصير ، وكان قبره يقصد للزيارة دائما وكان كثير الترحم عليه والدعاء على من قتله ، فلما بلغ بيبرس ذلك ، امر بنشبهه ، ونقله الى غير ذلك المكان (٤) ، وعفى اثره ، ولم يعف خبره (٥) . »

(١) المقرئزي - السلوك - ج ١ ، ص ٤٣٥ .

(٢) المقرئزي - السلوك - ج ١ ، ص ٤٣٧ .

(٣) راجع (Camb. Med. Hist. IV, p. 644.)

(٤) يروي المقرئزي (السلوك ج ١ ص ٤٣٥) - « وحمل قطز بعد ذلك الى القاهرة ، فدفن بالقرب من زاوية الشيخ تقى الدين قبل ان تعمر ، ثم نقله الحاج قطز الظاهري الى القرافة ودفن قريبا من زاوية ابن عبود »

(٥) ابو المحاسن - النجوم الزاهرة - ج ٧ ص ٨٦ - ٨٧ ، راجع ايضا

(الكتبي - نوات الوفيات - ج ٢ ص ١٣٣) .

اما اسباب مصرع قطن فلا شك انها اعرق بكثير من قصة رفضه نيابة حلب لبيبرس ، وان هذا الرفض لم يعد ان يكون سببا مباشرا لمقتله عند الحدود المصرية . والواقع ان تلك الاسباب قديمة ترجع الى ايام السلطان ايبك وتشريده معظم المماليك البحرية الصالحية ، وقتله زعيمهم اقطاي ، اذ صار مماليك ايبك وهم المعزية ومنهم قطن ، اصحاب النفوذ والسلطان في مصر (١) . واستمر العداء بين المعزية والبحرية قائما حتى اغار المغول على مصر ، فاضطر المماليك جميعا الى الاتحاد بدليل قول العينى ان المماليك البحرية انحازوا الى قطن المعزي « لما تعذر عليهم المقام بالشام وللتناصر على صيانة الاسلام ، لا لأنهم اخلصوا الولاء له » (٢) . فلما انتصر المماليك على المغول في عين جالوت ، ولم تبق هناك ضرورة للاتحاد ، ظهر العداء القديم بين الطائفتين من جديد ، وكان من نتائج ذلك مقتل قطن المعزي على يد بيبرس الصالحى . وهذا هو المعنى الحقيقي لما اورده ابن ابى الفضائل تعقيبا على مقتل قطن حين قال « فلحق الناس خوف عظيم من عودة البحرية الى ما كانوا عليه من الفساد » (٣) . وروى ابن اياس في هذا الصدد - « ولما تم امر بيبرس في السلطنة ، رسم باحضار المماليك البحرية الذين كانوا منفيين في البلاد » (٤) . كما روى في موضع آخر وكذلك المقرئى ، ان المماليك المعزية حاولوا اغتيال بيبرس

(١) انظر ما سبق ص ٨٥ - ٨٦ .

(٢) العينى - عقد الجمان - (الجزء الخاص بحوادث ٦٥٦ - ٦٧٣ هـ) ورقة ٤٣٨ .

(٣) ابن ابى الفضائل - النهج السيد ص ٤٠٩ - ٤١٠ ، انظر كذلك (المقرئى - السلوك - ج ١ ، ص ٤٣٧) .

(٤) ابن اياس - بدائع الزهور - ج ١ ، ص ٩٩ - ١٠٠ .

- عقب عودته الى القاهرة ، فقتل بعضهم ، وسجن ونفى البعض الآخر (١) .
- وهذه النصوص ان دلت على شيء فائما تدل على ان مقتل قطز كان نتيجة لعداء قديم مستحکم بين المماليك البحرية الصالحة والمماليك المعزية .

(١) ابن اياس - بدائع الزهور - ج١ ، ص ١٠٠ ، القريزي - السلوك - ج١ ، ص ٤٤٧ .

الباب الخامس

تدعيم أركان الدولة المملوكية الاولى في مصر والشام

احوال دولة المماليك عند مجيء بيبرس الى السلطنة - ثورة علم الدين سنجر بدمشق - ثورة الكوراني بالقاهرة - اهتمام بيبرس باعادة الخلافة العباسية في مصر - نجاح بيبرس في تحقيق الفكرة - قدوم الامام ابو القاسم احمد العباس الى القاهرة - المبايعه له بالخلافة - تلقيه المستنصر بالله - تفويضه لبيبرس بالسلطنة - شكوك المؤرخين في صحة نسب الخليفة الجديد - تجهيز الخليفة الى بغداد - هزيمته عند هيت ووفاته - دعوة بيبرس الامام ابا العباس احمد للقدوم الى مصر - مبايعته بالخلافة بالقاهرة - تلقيه الحاكم بأمر الله - تطور سياسة بيبرس نحو الخلافة - عزمه على اقامتها بالقاهرة - نفوذ الخليفة بالعاصمة المملوكية - فوائد سلاطين المماليك ومدينة القاهرة من احياء الخلافة بمصر - شكوك المؤرخين في نسب الخليفة الحاكم - اهتمام بيبرس بجمع أبناء البيت العباسي بصر والغرض من ذلك - محاولة شريف مكة اقامة الخلافة بتونس بعد زوالها من بغداد - مبايعته المستنصر بالله سلطان الدولة الحفصية بالخلافة - امتداد سلطان بيبرس الى الحجاز والاراضي المقدسة لاضعاف خلافة تونس - تقرب بيبرس من رجال الدين - قدوم ملوك المسلمين الى القاهرة ودمشق لتقديم فروض الولاء لسلطان مصر - خطر المغيث عمر الايوبي على دولة المماليك - اتفاهه مع هولاءكو على غزو مصر والشام - وعود بيبرس وموآثيقه له - مقابلته لبيبرس عند يسان -

اعتقال المغيث ومقتله - استيلاء بيبرس على مدينة الكرك - محاولات بيبرس انشاء علاقات طيبة مع ملوك الدول المجاورة - تحالفه مع ميخائيل باليولوج امبراطور الدولة البيزنطية - تبادل الرسائل والهدايا مع ما نفرد ملك صقلية والفونسو العاشر ملك اسبانيا - محالفته بركة خان القبيلة الذهبية - تحالفه بيبرس مع عزالدين كيكائوس سلطان سلاجقة الروم - عناية بيبرس بتقوية جيشه واسطوله وتحصين ثغوره وعواصم أطراف دولته - الاكثار من شراء المماليك القفجاق - صلاحية بلاد القفجاق لنسود تجارة الرقيق - موافقة الامبراطور البيزنطى على مرور السفن المصرية عبر السفنور الى البحر الاسود لجلب المماليك القفجاق - تنظيم بيبرس للجيش والبريد في انحاء مملكته - جهاد بيبرس للصليبيين في الشام - احتلاله قيصرية وأرسوف وقلعة صنفد ويافا وانطاكية - اسراع بقية المدن الصليبية الى مهادنة السلطان على أساس مبدأ المناصفة في دخلها ومنتجاتها - علاقة بيبرس بمغول ايلخانات فارس - انتصاره عليهم عند الحدود الفراتية شرقا وفي آسيا الصغرى شمالا - وفاة بيبرس وتقييم اعماله وشخصيته -

الباب الخامس

تدعيم أركان الدولة المملوكية الاولى في مصر والشام

تغلّبت الدولة المملوكية الاولى على البدو في مصر ، كما تغلّبت على معظم أبناء البيت الايوبي بالشام ، ثم بينت للعالم مقدرتها الحربية بالانتصار على المغول في عين جالوت ، وأحاطت نفسها منذ قيامها في مصر والشام بآيات لولاء للخلافة العباسية حتى اعترف الخلفاء بسلاطينها اعترافا تاما ، فأكسبهم ذلك الاعتراف صفة شرعية للحكم وأحاطهم بحماية تحميهم ممن عسى يفكر في انتزاع السلطنة منهم . تلك عوامل البقاء التي نعمت بها الدولة المملوكية الاولى عندما صار الظاهر بيبرس سلطانا على مصر (٦٥٨ - ٦٧٦ هـ = ١٢٦٠ - ١٢٧٧ م) ثم اضاف السلطان الجديد عوامل جديدة لا يستطيع القيام بها الا حاكم بصير موهوب قوى الشكيمة شديد العزم . وبتلك العوامل أتم بيبرس بناء الدعائم التي أقام عليها سلاطين المماليك بعده تاريخهم الطويل .

١ - القضاء على الثورات الداخلية :

وأول ما قابل بيبرس أثر اعلانه سلطانا ، ثورتان داخليتان في وقت واحد تقريبا أواخر سنة ١٢٦٠ م (٦٥٨ هـ) : احدهما بدمشق ، والاخرى في القاهرة فاستغلها بيبرس استغلالا قوى دولة المماليك داخليا وخارجيا في آن واحد .

أما الثورة الاولى ، فمنبعها الاحتجاج على ما حدث من مقتل قطز ، والاثفة مما فعله بيبرس دون اذ يستشير من تنبغى استشارته . وقام

الامير علم الدين سنجر الحلبي الذي استنابه قنز بدمشق ، ونادى بنفسه سلطانا على دمشق في نوفمبر سنة ١٢٦٠ م (ذى الحجة سنة ٦٥٨ هـ) ، وتلقب بالملك المجاهد ، وركب بشعار السلطنة ، وخطب له على المنابر ، وضربت السكة باسمه ، وأخذ في تحصين قلعة دمشق استعدادا للقتال . ولم يكتف بذلك ، بل أرسل الى الامير حسام الدين لاجين العزيزي نائب حلب ، والملك المنصور الايوبى صاحب حماة ، والملك الاشرف موسى صاحب حمص ، ليدخلوا في طاعته ويشدوا أزره ، فرفضوا اجابة طلبه خشية بيرس فيما يبدو . ولم تستطع رسل السلطان وكتبه اقناع الثائر بلزوم الطاعة ، فقرر بيرس ان يجرد جيشا للقضاء على تلك الثورة قبل أن تستفحل ، وعاد الجيش بنائب دمشق الى القاهرة مقرنا في الاصفاد في يناير سنة ١٢٦١ م (١٦ صفر سنة ٦٥٩ هـ) حيث اعتقل بقلعة الجبل بعد شهر واحد من اعلانه الثورة ، وولى بيرس استاذة علاء الدين البندقدارى نيابة دمشق التي انضوت منذ ذلك الوقت تحت لوائه (١) . وبذا قضى السلطان في سرعة وعزم على احدى الحركات الانفصالية في تاريخ السلطنة المملوكية ، مما برهن على سلامة دولة المماليك وصلاحيتها للبقاء .

أما الثورة الثانية فزعيمها رجل شيعى يعرف بالكوراني (٢) ، أظهر الزهد والورع ، وسكن قبة بجبل المقطم ، وتردد اليه الغلمان والركابدارية (٣) وجماعة من السودان . فأخذ يدعوهم ويحرضهم على

(١) المقرئزي : السلوك ج١ ص ٣٨ - ٤٣٩ ، ٤٤٥ ، ابو الفداء : المختصر في اخبار البشر ج٣ ص ٢١٠
(٢) نسبة الى كوران من قرى اسفرايين . واسفرايين بلدة حصينة من نواحي نيسابور على منتصف الطريق من جرجان ، راجع (ياقوت : معجم البلدان ج١ ص ٢٤٦ - ٢٤٧ ، ج٤ ص ٣١٩)
(٣) الركابدارية هم الذين يحملون الفاشية بين يدي السلطان في المواكب
←

قلب نظام الحكم المملوكى السنى واستبداله بحكم شيعى ، واقطعمهم الاقطاعات وكتب لهم الرقاع . وتمخضت تلك الدعوة أو الدعاية عن ثورة سنة ١٢٦٠ م (أواخر سنة ٦٥٨ هـ) ، فشق الثوار شوارع القاهرة ليلا وهم ينادون : « يا آل علي » ، وفتحوا حوائت السيوفيين بين القصرين ، وأخذوا ما فيها من سلاح ، واقتحموا اصطبلات الجنود ، وأخذوا منها الخيول . وهنا برهن بيبرس على أنه لا يؤخذ بهذه الطريقة ، فارسل من الجند ما كفل الحوطة على الثوار والقبض على جميع زعمائهم . حتى اذا خمدت الثورة ، أمر السلطان بصلب الكورائي وغيره من الزعماء على باب زويلة (١) . وهكذا قضى بيبرس قضاء مبرما على البقية الباقية من الحركة التي ظلت تعمل على هدم السنية في مصر وغيرها منذ عهد صلاح الدين بدليل خلو المراجع العربية من أخبار أية حركة مشابهة في مصر أو الشام طوال العهد المملوكي الاوّل والثاني سواء . وهذا الدليل بدوره يدل على مبلغ اعان بيبرس في هدم الثورة ، مما جعل توفيقه في اخمادها جديرا بأن يعتبر عاملا من عوامل تدعيم دولة المماليك .

٢ - احياء الخلافة العباسية في القاهرة وما ترتب عليه من اعمال دينية ومادية :

على ان بيبرس ليس صاحب فضل على السنة في اخماد تلك الحركة الشيعية فحسب ، بل انه جعل الدولة المملوكية تبدو كذلك صاحبة فضل على العالم الاسلامي . ويظهر ذلك بوضوح في اظهار تعلقه باحياء الخلافة

»→

وهم تابعون للركاب خاناه وهو بيت الركاب الذي تكون به السروج واللجم وله موظف خاص يسمى مهتار الركاب خاناه (القلقشندي : صبح الاعشى ج٤ ص ١٢ ، ٧)

(١) المقرئزي : السلوك ج١ ص ٤٤٠ .

العباسية السنية المنهارة ، اذ نجم عن زوالها من بغداد مشكلة كبرى وهى
في أي جهة تكو الخلافة ؟ ولمن تكون الخلافة من أبناء البيت العباسى
الذين تشتتوا في بوادى العراق والشرق الادنى بعد هذه الكارثة ؟ •

والمتواتر في الكتب أن السلطان بيبرس أول من فكر في احياء الخلافة
ليقبلها من عثرتها الدامية التي لحقتها على يد هولوكو وجنوده ، وليظهر
أمام العالم الاسلامى بمظهر الحامي للخلافة ، وليجعل لنفسه شيئاً من
النفوذ والزعامة على البلاد الاسلامية ، كما يجعل من دولته الناشئة دولة
شرعية يجب المحافظة عليها •

والواقع ان بيبرس ليس اول من فكر في ذلك المشروع من الملوك
والسلاطين الذين تداولوا حكم مصر والشام ، وانما هو الذي نجح في
تحقيقه فقط (١) ، والادلة على ذلك كثيرة ، فقد حاول احمد بن طولون
اجتذاب الخليفة المعتمد الى مصر سنة ٢٦٩ هـ (٨٨٢ م) حينما استبد
بالخليفة أخوه وولى عهده الامير أحمد الموفق ، فأرسل اليه كتابا يقول
فيه « قد منعى الطعام والشراب والنوم خوفى على أمير المؤمنين من مكروه
يلحقه مع ما له في عنقى من الايمان المؤكدة • وقد اجتمع عندى مائة الف
عنان انجاد ، وانا أرى لسيدى أمير المؤمنين الانجذاب الى مصر فان أمره
يرجع بعد الامتهان الى نهاية العز ، ولا يتهاى لآخيه (الموفق) فيه شيء مما
يخاف عليه في كل لحظة » (٢) • ولا شك أن أحمد بن طولون أراد بذلك
ان يدعم دولته الجديدة التي أسسها في مصر والشام ، وأن يمتنع عن

(١) زيادة : بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك ، مجلة
كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد الرابع ١٩٣٦ •
(٢) عبدالله البلوى : سيرة أحمد طولون ص ٢٨١ ، زيادة : نفس
المرجع السابق •

ارسال الجزية السنوية الى دار الخلافة ، بالاضافة الى تحطيم منافسيه في بغداد . غير ان مشروع ابن طولون لم يتحقق ، اذ أن الموفق قبض على أخيه الخليفة في الموصل وأعادته الى بغداد .

كذلك حاول محمد الاخشيد نفس المحاولة حينما ذهب الى الشام سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤م) لاغاثة الخليفة المتقى من جور الحمدانيين بحلب، ومن استبداد الامراء الاثراك في بغداد ، فلقبه بالرقعة في شمال الفرات، وترجل عن بعد وهو بسيفه ومنطقته وجعبته على سبيل الخدمة، وقبل الارض مرارا، ثم تقدم فقبل يده، وطلب منه ان يصحبه الى مصر، ولكن الخليفة عز عليه آخر الامر أن يترك عاصمته ومقر أسرته فرفض هذا العرض ، وعاد الاخشيد الى مصر ، على حين عاد الخليفة الى بغداد . ولا شك ان الاخشيد رأى ان في اجتذاب الخلافة العباسية الى مصر ما يقوى دولته التي أسسها في مصر^(١). كذلك يقال ان الملك الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق فكر في احياء الخلافة العباسية أوائل سنة ٦٥٨ هـ ، وأنه ما كاد يعلم من عيسى بن مهنا، أمير العربان بالاطراف الشرقية والشمالية المتاخمة للحدود العراقية ، أن أميراً عباسياً واسمه ابو العباس احمد^(٢) يريد القدوم الى دمشق ، حتى أرسل يستدعيه اليه . لكن الناصر فوجيء بقدوم التتار الى الشام ، فأنصرف عن ابي العباس ، وعاد الامير العباسي ثانية الى عيسى بن مهنا^(٣). ثم ان السلطان قطز فكر سنة ٦٥٨ هـ في اعادة الخلافة الى بغداد ، بدليل أنه بعد واقعة عين جالوت استدعى الامير أبا العباس احمد المذكور الى دمشق وبايعه بالخلافة ، وقال للامير عيسى بن مهنا « اذا رجعنا الى مصر انقذه الينا لنعيده ان شاء الله »^(٤) ولكن السلطان قطز قتل قبل تحقيق

-
- (١) ابن سعيد : العيون الدعج في حلى دولة بنى طنج ص ٤٠ ، ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج٨ ص ١٤٨ ، زيادة : المرجع السابق .
(٢) هو حفيد الخليفة المسترشد بن المستظهر بالله العباسي .
(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء امراء المؤمنين ص ٣١٧ - ٣١٨ .
(٤) مفضل بن ابي الفضائل : النهج السديد ج١ ص ٤٣٥ .

غرضه ، فعاد ابو العباس الى الحدود الفراتية حيث تمكن بمن معه من عرب وأتباع ان يحتل بعض المدن هناك مثل عانة والحديثة والانبار وان ينتصر على سرية من عسكر التتار .

من هذا وذاك نرى ان ملوك المسلمين قبل بيبرس رغبوا في احياء الخلافة العباسية ، وان تلك الرغبة ظلت قائمة حتى تولى بيبرس البندقدارى سلطنة مصر ، فشرع في اخراج المشروع الى حيز التنفيذ . ولذا أرسل بيبرس في طلب ابى العباس أحمد وكان لا يزال بالعراق يحاول محاولته، فقدم أبو العباس الى دمشق حيث جهزه نائبها الى القاهرة . غير أن أبا العباس كان قليل الحظ ، اذ سبقه الى حضرة بيبرس زميل آخر من أبناء البيت العباسى واسمه ابو القاسم أحمد ، ففضل هو الرجوع الى الشام وقصد حلب حيث بايعه أميرها النائر على بيبرس شمس الدين أقوش البرلى العزيمي (١) ، ولقبه الحاكم بأمر الله ، ثم ثم أمده بسبعمائة فارس من التركمان . فسار بهم الخليفة الى بلدة عانة على الحدود العراقية ، لمناوشة التتار مرة أخرى .

أما أبو القاسم أحمد الذي اتفق له حظ الوصول الى القاهرة ، فتلقاه السلطان بيبرس خارج العاصمة في يونيو سنة ١٢٦١ م (رجب سنة ٦٥٩ هـ) ومعه الوزير بهاء الدين بن حنا (٢) ، وقاضى القضاة تاج الدين

(١) لم يستمر عصيان اقوش البرلى طويلا اذ تمكنت الجيوش المصرية من اخماد ثورته بحلب سنة ٦٦٠ هـ فدخل في طاعة بيبرس الذي سرعان ما تغير عليه وقتله سنة ٦٦١ هـ . راجع (ابو الفداء : المختصر في اخبار البشر ج٣ ص ٢١٧ - ٢٢٠ ، ٢٢٣) .

(٢) بهاء الدين بن حنا بكسر الحاء ، يؤثر عنه انه استدعى العالم السكندري شرف الدين محمد البوصيري وسمع قصيدته المعروفة باسم « البردة النبوية في مدح خير البرية » وهو قائما حافيا عاري الرأس . راجع (الكتبى : فوات الوفيات ج٢ ص ٢٠٥) .

ابن بنت الاعز^(٣) والعلماء والاعيان والشهود والمؤذنون حتى اليهود بتوراتهم والنصارى بانجيلهم ، وكان يوما مشهودا بالغ فيه السلطان باحترام الخليفة واکرامه وأنزله بقلعة الجبل . وبعد عدة أيام (في ١٣ رجب) عقد السلطان مجلسا عاما بالديوان الكبير بالقلعة حضره القضاة والعلماء وجميع رجال الدولة وكبار التجار ووجوه الناس ، وحضر أيضا شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام ، فمثلوا كلهم بحضرة الامام العباسي ، وجلس السلطان متأدبا بين يديه . ثم استدعى جماعة من العربان والبغاددة الذين قدموا مع الامير العباسي من بغداد ، فشهدوا أمام هذا الجمع أن الامير أبا القاسم أحمد ، ابن الخليفة الظاهر أمير المؤمنين ، كما شهد بالاستفاضة من حضر من القضاة . عند ذلك أعلن قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الاعز قبوله لشهادات القوم وسجل على نفسه بثبوت النسبة الشريفة الى العباس بن عبد المطلب ، وقام فبايع أبا القاسم بالخلافة ، ثم تبعه السلطان ببيرس فبايعه على العمل بكتاب الله وسنة رسوله ، وعلى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله ، واخذ اموال الله بحقها وصرفها في مستحقها . ثم بايعه بعد السلطان الشيخ عز الدين بن عبد

(١) هو تاج الدين عبد الوهاب بن خلف بن بدر العلامي المعروف بابن بنت الاعز ، والعلامي نسبة الى علامة وهى قبيلة من لخم ، اما الاعز فهو جده لامه صاحب الاعز فخر الدين وزير الملك الكامل الايوبي . ولقد درس تاج الدين بالاسكندرية الحساب فمهر فيه وولاه السلطان الكامل شاهدا لبيت المال . وفي عهد الملك الصالح ايوب تولى نظر الدواوين ثم قضاء مصر سنة ٦٥٤ هـ ثم ولى الوزارة سنة ٦٥٥ هـ ثم عزله السلطان قطز في نفس السنة وظل بعيدا عن مناصب الدولة حتى اعاده ببيرس الى منصب قاضي القضاة بالديار المصرية سنة ٦٥٩ هـ وظل به حتى وفاته سنة ٦٦٥ هـ . راجع (السبكي : طبقات الشافعية ج ٥ ص ١٣٣ - ١٣٦ ، ابن حجر العسقلاني : رفع الاصر عن قضاة مصر ص ١٧٦ - ١٧٨) .

السلام^(١) ، وجميع من حضر المجلس من الامراء والقضاة والفقهاء ورجال الدولة . ولقب الخليفة الجديد بالمستنصر بالله ، وهو لقب اخيه الخليفة المستنصر (١٢٣٦ - ١٢٤٢ م) باني المدرسة المستنصرية ببغداد^(٢) . ولما تمت البيعة ، قلد الخليفة المستنصر السلطان بيبرس البلاد الاسلامية وما يضاف اليها ، وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار . وبعد ذلك قام جميع من حضر فبايعوا الخليفة على اختلاف طبقاتهم . ثم كتب السلطان بيبرس في نفس اليوم الى الملوك والنواب بسائر الممالك أن يأخذوا البيعة من قبلهم للخليفة المستنصر بالله ، وأن يدعى له على المنابر ثم يدعى للسلطان بعده ، وأن تنقش السكة باسمهما .

وعلى الرغم من حرص السلطان بيبرس على اثبات نسب الخليفة الجديد في مجلس عام ، يفهم من عبارات بعض المؤرخين أن شيئاً من الشك في نسبة الخليفة الجديد الى العباسيين قد ساور الكثيرين^(٣) ، فيروي أبو الفداء في تاريخه تحت عنوان « ذكر مبايعة شخص بالخلافة » ، أنه في رجب سنة ٦٥٩ هـ « قدم الى مصر جماعة من العرب ومعهم شخص أسود اللون اسمه أحمد ، وزعموا انه ابن الامام الظاهر بالله ، ابن الامام الناصر ، فيكون عم المستنصر . . . »^(٤) كذلك يسمى مفضل بن أبي

(١) ورد في بعض المصادر أن اول من بايع الخليفة المستنصر هو الشيخ عز الدين بن عبد السلام ثم تلاه السلطان في المبايعة . (السيوطي : حسن المحاضرة ص ٤٤ ، السبكي : المرجع جه ص ٨٤) .
(٢) ابو شامة : الدليل على الروضتين ص ٢١٣ ، المقرئزي : السلوك ج ١ ص ٤٥١ .
مجلة آداب القاهرة سنة ١٩٣٦ .

(٣) زيادة : بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك في مصر ،
(٤) ابو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٨ ، ويلاحظ أن ابا الفداء ولد سنة ٦٧٢ هـ أي بعد مجيء المستنصر الى القاهرة بثلاث عشرة

الفضائل هذا الخليفة باسم « المستنصر الاسود » (١) ، بينما يروى أبو شامة وهو المؤرخ المعاصر المتوفي سنة ٦٦٥ هـ عبارة لا تخلو من الشك والسخرية وهي « وفي تاسع عشر رجب قرىء بدمشق بالمدرسة العادية كتاب ورد من مصر من السلطان الملك الظاهر بيبرس يتضمن أنه قدم عليهم بمصر أبو القاسم احمد بن الظاهر محمد . . . أمير المنافقين » (٢) . ويظهر ان هذا الشك تسرب الى العامة من الناس بالقاهرة وغيرها بدليل تلقيهم للمستنصر بـ « الزراتيىنى أو الزرايينى وهو لقب غريب نسبة أبو الفداء الى لفظ زربون المستعمل في مصر للدلالة على الشخص الاسود .

وكيفما كان الامر في صحة نسب الخليفة الجديد ، فلا ريب ان بيبرس كان في حاجة ماسة الى تدعيم سلطانه بتلك المظاهرة الدينية التي قام بها في صورة احياء الخلافة العباسية متغاضيا عما يشاع عن الخليفة ونسبه . وتدل جميع النصوص الواردة في المراجع المعاصرة على أن السلطان بيبرس كان على استعداد بأن يمد الخلافة بكل ما يستطيع من جند ومال ومعونة حربية في سبيل اعادتها واقامتها في بغداد . وشرع بيبرس فعلا في تجهيز الخليفة بكل المعدات واللوازم من جند وسلاح ومال وكراع لاسترداد بغداد من التتر وارجاع الخلافة اليها . ويقال ان مبلغ ما انفق في هذا المشروع لا يقل عن ألف دينار . ومما يدل على اهتمام بيبرس بمسألة

»→

سنة فقط فيكون قد سمع اشباه هذا الشك من المعاصرين له والمتقدمين عليه في السن .

(١) ابن ابي الفضائل : النهج السيد ص ١٠٥

(٢) راجع النسخة الخطية من كتاب (أبو شامة : الذيل على الروضتين ورقة ٢٣٥ بمكتبة البلدية بالاسكندرية ، ودار الكتب المصرية بالقاهرة) اذ ان النسخة المطبوعة التي نشرها عزت العطار الحسينى ص ٢١٣ حرفت لفظ أمير المنافقين الى أمير المؤمنين .

الخلافة واقامتها ، أنه خرج مع الخليفة الى دمشق . فوصلها في ذي القعدة سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) وفي عزمه أن يضيف الى ما تجمع لديه من جند مصر ، أعدادا اخرى من جند الشام حتى يصبح عدد الجيش الخلفي عشرة آلاف فارس . غير أن أحد امراء الموصل وسوس للسلطان وهو بدمشق قائلاً له « ان الخليفة اذا استقر امره ببغداد ، فازعك وأخرجك من مصر » ، فأوجس خيفة ببيرس وغير موقفه بازاء الخليفة ، واكتفى بأن جهزه بثلاثمائة فارس كأنما أراد ان يلقي به الى التهلكة . وسار الخليفة بهذا العدد الضئيل من الجند الى العراق ، وفي الطريق انضم اليه اربعمائة فارس من عرب العراق من خفاجة وعبادة الذين لجأ اليهم في اول أمره ، كما انضم اليه ستون مملوكا من ممالك الموصل ، وثلاثون فارسا من عسكر حماة . وتقدم الخليفة المستنصر بهذا الجيش الغير المتجانس الى الحدود العراقية . وهناك في موضع على نهر الفرات يسمى مشهد^(١) علي أو مقام علي في لواء الدليم حاليا ، التقى المستنصر بمنافسه في الخلافة أبي العباس احمد - الحاكم بأمر الله - في سبعمائة فارس من التركمان . ويبدو أنهما اتفقا على العمل معا لاعادة الخلافة العباسية ، وفي ذلك يقول أبو شامة : « فانصاع الحاكم للمستنصر بسبب أنه الاصغر وذاك الاكبر (أي المستنصر) ، ووقع الاتفاق وزال الشقاق والله الحمد »^(٢) . ثم سارا معا الى بلدة عانة ثم الى الحديثة^(٣) يريدان

(١) مشهد على بلدة على نهر الفرات بجوار مدينة عانة في لواء الدليم وهي خلاف مدينة النجف التي بها مقام الامام علي بن ابي طالب
(٢) ابو شامة : الدليل على الروضتين ص ٢١٥ .
(٣) هناك عدة اماكن تحمل هذا الاسم : فهناك حديثة الموصل على نهر دجلة ، وحديثة الفرات على بعد عدة فراسخ من الانبار وهي المراد بها هنا . ثم هناك حديثة اخرى في غوطة دمشق . راجع (يا قوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٢٢٢)

بلدة هيت . فلما وصل الخليفة الى هيت أغلق أهلها ابوابها دونه ، فحاصرها حتى فتحها آخر ذى الحجة سنة ٦٥٩ هـ (اكتوبر سنة ١٢٦١ م) ثم رحل عنها وعسكر بالقرب من الانبار (١) . وهناك التقت جيوش التتار بقيادة قرايغا وبهادر بجيوش الخليفة في ٢ محرم سنة ٦٦٠ هـ ، ودارت بين القوتين معركة غير متكافئة انتهت بأن احاط التتار بعسكر العباسيين وقتلوا معظمهم ، ولم يفلت منهم سوى الامير ابو العباس أحمد وبضعة من الامراء في نحو الخمسين فارس فقط . أما الخليفة ابو القاسم فلم يعرف له خبر ، فيقال انه قتل في المعركة ، ويقال انه نجا مجروحاً في طائفة من العرب ومات عندهم (٢) .

وكيفما كان الامر ، هيأت هذه الحوادث الفرصة للامير ابي العباس أحمد ، اذ أرسل اليه السلطان بيبرس يستدعيه الى القاهرة (٣) فوصلها في مارس سنة ١٢٦٢ م (١٧ ربيع الثاني سنة ٦٦٠ هـ) (٤) . واحتفل بيبرس بلقائه وانزله في البرج الكبير بقلعة الجبل كما صنع بالمستنصر بالله . على أن المراجع كلها تدل على أن ثمة تغييراً حل برأس بيبرس ازاء الخلافة العباسية خلاصته ان تقام الخلافة العباسية بمصر ، فتستفيد الدولة المملوكية من وجودها بالقاهرة ، وتتجنب خطر اقامتها بعيداً في بغداد . ومما يدل

(١) ابن ابي الفضائل : النهج السديد ج١ ص ٤٢٩ - ٤٣٠ .

(٢) زيادة : المرجع السابق .

(٣) السيوطي : حسن المحاضرة ج٢ ص ٤٧ ، تاريخ الخلفاء ص ٣١٨

(٤) ضبط هذا التاريخ على السيوطي (حسن المحاضرة ج٢ ص ٤٧)

وابن ابي الفضائل (المرجع ص ٤٣٤) اما المقرئ فيذكر انه ١٧ ربيع

الاول سنة ٦٠٦ هـ (السلوك ج١ ص ٤٦٨) بينما يروي ابو الفداء

(المختصر في اخبار البشر ج٣ ص ٢٢٤) ان وصول الخليفة الى القاهرة

كان في سنة ٦٥٩ هـ . (على أن المعقول أن مجيئه كان بعد واقعة هيت التي

حدثت في اوائل سنة ٦٦٠ هـ)

على هذا التغيير أن جماعة من البغاددة وهم مماليك الخليفة المستعصم الذين فروا من وجه التتار بزعامة مقدمهم الامير سيف الدين سلار (١) الى الحجاز ، وصلوا الى القاهرة بعد وصول ابي العباس احمد بشهر واحد فقط ، وكان حضورهم الى مصر بناء على طلب بيبرس والحاحه . كما حضر بعدهم بقليل عدة من شيوخ عشائر عبادة وخفاجة من عرب العراق (٢) . وأخذ بيبرس من بعد ذلك يعمل على مبايعة ابي العباس بالخلافة ، فعقد له في ٨ محرم سنة ٦٦١ هـ مجلسا عاما بالايوان الكبير بقلعة الجبل كما حدث للمستنصر من قبل . وجاء أبو العباس فقريء نسبة على الناس بعدما ثبت عند قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الاعز ، ولقب بالحاكم بأمر الله ، وبايعه السلطان على العمل بكتاب الله وسنة رسوله . فلما تمت البيعة ، أقبل الخليفة على السلطان وقلده أمور العباد والبلاد ولقبه « قسيم أمير المؤمنين » (٣) ، واخذ الناس على اختلاف طبقاتهم مبايعة

(١) أصل هذا المملوك من بلاد القيشاق ، واشتراه الخليفة الظاهر العباسي ثم انتقل الى خدمة المستعصم وترقى حتى اصبح واليا على واسط والكوفة والحلة . وبعد سقوط بغداد في يد هولوكو لجأ الى الحجاز ثم جاء الى مصر بناء على طلب بيبرس فدخلها وزملاؤه البغاددة في نصف رجب سنة ٦٦٠ هـ فآكرمهم بيبرس واعطى الامير سلار امرة خمسين في الشام ونصف مدينة نابلس ثم نقله الى امرة طبلخانة بمصر . راجع (المقريري : السلوك ج١ ص ٤٦٨)

(٢) كان مقر هذه القبائل من هيت والانبار الى الحلة والكوفة . ويلاحظ أن هذه البلاد حتى مقتل الخليفة المستعصم كانت بيد الامير سيف الدين سلار الذي كتب الى من تأخر من خشداشيته والى أصحابه من خفاجة وأخبرهم بما ناله من الاحسان على يد السلطان بيبرس فلحقوا به كما في المتن . راجع (ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٤٠٠ ، المقريري : السلوك ج١ ص ٤٧٦)

(٣) يعتبر بيبرس اول من لقبته الخلافة بهذا اللقب ، اذ كان الملوك المسلمون قديما يلقبون بالقباب تقل عن هذا اللقب مكانة مثل مولى امير

←

الخلافة الجديد ، وخطب له من منابر مصر والشام (١) .

وهكذا احييت الخلافة العباسية للمرة الثانية بالقاهرة . غير ان بيبرس لم يفكر في اعداد هذا الخليفة الثاني لاسترجاع بغداد واقامة الخلافة العباسية بها ، بل عزم على أن يكون مقامه بالقاهرة حيث يكون على مقربة منه وتحت عينه . ولم يرد السلطان بذلك أن يخلق في عاصمته سلطة دينية او سياسية بجانب سلطته ، بل قصد أن تكون الخلافة سندا للدولة المملوكية في أرجاء العالم الاسلامي ، وأن يكون الخليفة شخصية نافعة لاغراض دولة المماليك وما تحتاجه من الحماية الروحية ، ويدل على ذلك كله أن السلطان لم يأمر في تلك المرة ان يقرن اسم الخليفة باسمه على السكة كما فعل سابقا بالمستنصر بالله ، وأنه أسكنه أحد أبراج القلعة محترزا عليه ، ولم يترك له غير الدعاء في الخطبة فقط . وعلى هذا الاساس لم تكسب الخلافة العباسية في احيائها الاكسبا زائفا ، اذ صار الخلفاء منذ ذلك الوقت في وضع مهان تقريبا : يعملون في دوائرهم الضيقة ويحضرون حفلات السلطنة وولاية العهد ويزيدون مجالس السلطان للوفود والسفراء . ولم تتدخل الخلافة في شئون الدولة المملوكية الا قليلا ، ولم يأمن لها سلاطين المماليك في يوم من الايام ، بل أبقوا الخلفاء سجناء تقريبا في دور أقيمت لهم خصيصا في أبراج القلعة أو مناظر الكبش (٢) .



المؤمنين اي عتيقة ، او خادم امير المؤمنين . فان زيد في تعظيمه لقب ولى امير المؤمنين ثم صاحب امير المؤمنين ثم خليل امير المؤمنين وهو أعلى ما لقب به ملوك بنى ايوب . أما لقب بيبرس « قسيم امير المؤمنين » فهو أجل من تلك الالقب . راجع (السيوطي : حسن المحاضرة ج٢ ص ٦٦)

(١) المقريزي : السلوك ج١ ص ٤٧٧ - ٤٧٩

(٢) راجع (زيادة : المرجع السابق) وكذلك

(Arnold : The Caliphate p. 99 — 102.)

أما الذين استفادوا من ذلك الاحياء فسلطين المماليك والقاهرة عاصمتهم ، اذ صار سلاطين المماليك منذ ذلك الوقت الى الفتح العثماني سنة ١٥١٧ م يفرضون لانفسهم مقاما ساميا على ملوك العالم الاسلامي وينكرون عليهم حق التلقب بلقب سلطان ، لانهم وحدهم أصحاب هذا الحق شرعا باعتبارهم حماة الخلافة والمتمتعين ببيعتها (١) . وفي ذلك يقول ابن شاهين الظاهري : « ... ولا يطلق لفظ سلطان الا لصاحب مصر نصره الله ، فانه الان اعلا الملوك وأشرفهم لرتبة سيد الاولين والآخرين ، وتشرفه من امير المؤمنين بتفويض السلطنة له على الوجه الشرعي بعقد الائمة الاربعة (٢) » .

(١) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٨٩ ويلاحظ ان لفظ سلطان ظهر اول الامر في اواسط آسيا واستخدمه الغزنويون والسلاجقة وغيرهم من الاتراك كرمز للسلطة الزمنية . ثم انتقل بعد ذلك الى مصر أيام الايوبيين . ومن العجيب ان صلاح الدين رغم انتصاراته الباهرة لم يحمل لقب سلطان حسب الوثائق التي لدينا وان كان يبدو ان هذا اللقب قد اطلق عليه شفويا على السنة العامة ، فسمى بسلطان الاسلام والمسلمين . وبعد وفاة صلاح الدين شاع استخدام هذا اللقب بين خلفائه حتى عم امراء الاسرة الايوبية ايضا الى ان جاء سلاطين المماليك فقصروا هذا اللقب على انفسهم وجعلوا من دونهم ملوكا وامراء . راجع

(Wiet : Histoire de la nation Egyptienne IV p. 335—336 ; Précis de l'hist. d'Egypte p. 225.)

(٢) يقصد ابن شاهين بالائمة الاربعة ، قضاة المذاهب السنية الاربعة ، اذ كان القضاء بمصر في العصر الفاطمي قائما على المذهب الاسماعيلي الى ان جاء الوزير ابو على احمد بن الفضل في اواخر العصر الفاطمي فرتب في الحكم اربعة قضاة يحكم كل واحد بمذهبه ويورث بمذهبه : قاضي للشافعية وقاضي للمالكية وقاضي للاسماعيلية وقاضي للامامية . وهو بهذه المحاولة اراد الحد من نفوذ المذهب الاسماعيلي . وفي العصر الايوبي صار القضاء للشافعية فقط واستمر كذلك الى ان جاء السلطان الظاهر

←

أما القاهرة ، فقد تمتعت نتيجة لذلك الاحياء بشهرة دينية وعلمية واسعة ، اذ صارت مركز الخلافة العباسية ، وفي ذلك يقول جلال الدين السيوطي : « الايمان والعلم يكونان مع الخلافة اينما كانت ، فحين صارت مصر دار خلافة ، عظم أمرها ، وكثرت شعائر الاسلام فيها ، وصارت محل سكن العلماء ومحط رحال الفضلاء » (١) . وبالإضافة الى شهرة القاهرة الدينية والعلمية ، فهناك شهرتها التجارية التي جعلت هولاء يسميها « كروان سراي » في احدى رسائله (٢) ، أي محط الرحال والمتاجر والمال ، اذ أصبحت بفضل قيام الخلافة بها مركزا لنشاط تجاري واسع فضلا عن نشاطها القديم .

على ان الخليفة العباسي الثاني أبا العباس احمد ، لم يسلم كذلك



بيبرس فأدخل تعديلا جوهريا على النظام القضائي سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٥م) اذ أنه لم يشأ ان يترك قاضى القضاة الشافعية يتحكم وحده في جميع الشئون لقضائية لما في ذلك من اجحاف ببقية المذاهب . لذلك جعل القضاء في يد اربعة قضاة يمثلون المذاهب السنية الاربعة ، واجاز لهم ان يولوا نوابا عنهم بانحاء البلاد ، على ان يحتفظ قاضى قضاة الشافعية بالاشراف على احوال البيتامى والاقواق والقضايا الخاصة ببيت المال . وهكذا ظل قاضى القضاة الشافعية ارفع درجة من زملائه ثم يليه الحنفى فالمالكى فالحنبلية . وفي عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون صار المالكي يلى الشافعي وتأخر الحنفى عن المالكي في الرتبة . راجع (السبكي : طبقات الشافعية ج٥ ص ١٣٣ - ١٣٦ ، النجوم الزاهرة ج٧ ص ١٢١ ، ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٩٢ ، المقرئزي : السلوك ج١ ص ٥٣٩ - ٥٤٠ ، سعيد عاشور : دولة المماليك البحرية ص ١٥٢ ، محمد المناوى : الوزارة والوزراء في العصر الفاطمى ص ١٦٩ ، المقرئزي الخطط ص ٢٠٦ ، رحلة ابن بطوطة ج١ ص ٢٥)

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ج٢ ص ٦٦

(٢) المقرئزي : السلوك ج١ ص ٤٢٧ - ٤٢٩

من شك بعض المؤرخين في نسبه ، كشكهم السابق في نسب الخليفة المستنصر ، فيوجد في تاريخ أبي الفداء تحت سنة ٦٦١ هـ عبارة بشأن الخليفة الحاكم لم تخل من الغمز واللمز ونصها : « وفي أواخر ذى الحجة من هذه السنة ، جلس السلطان الملك الظاهر مجلسا عاما وأحضر شخصا كان قد قدم الى الديار المصرية في سنة تسع وخمسين وستمائة من نسل بنى العباس يسمى أحمد بعد ان أثبت نسبه وبايعه بالخلافة ، ولقب احمد المذكور الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين » (١)

على أن مسألة الخلافة العباسية لم تنته بمبايعة الحاكم بأمر الله سنة ٦٦١ هـ (١٢٦٣ م) اذ لم تمض ثلاث سنوات على هذا الحادث حتى قدم شخصان على السلطان بيبرس وهو بدمشق سنة ٦٦٤ هـ (١٢٦٦ م) ادعى احدهما أنه مبارك بن الخليفة المستعصم ، يريد بذلك أنه احق بالخلافة من الحاكم بأمر الله . وذكر الثاني - وكان أسود اللون - أنه من أولاد الخلفاء . وقد تبين للسلطان كذب الاثنين ، فسيرهما الى مصر « تحت الاحتياط » (٢) . ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل وفد على السلطان في نفس السنة أيضا (٦٦٤ هـ) على بن الخليفة المستعصم وكان أسيرا عند التتار (٣) . ولم يعلق المؤرخون على هذه الحوادث بشيء ، مما يرجح أن الشكوك التي انتشرت وقتذاك حول نسب الخليفتين ، ادخلت في روع بعض الناس انهم يستطيعون القيام بدور المستنصر والحاكم ، أو لعسل السلطان بيبرس أراد من وراء اولئك الاشخاص أن يهيمن على الخليفة الحاكم بتهديده بخلمه ومبايعة خليفة آخر كلما حدثته نفسه بالتدخل في

(١) ، (٢) زيادة : بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك ، مجلة كلية اداب القاهرة المجلد الرابع سنة ١٩٣٦ .
(٣) المقرئزي : السلوك ج١ ص ٥٥٤

شئون الدولة ، او لعله اراد ان يجمع أبناء البيت العباسى بمصر - ان كانوا من أبناء البيت العباسى حقا - ليتجنب خطر التجاء بعضهم الى أحد ملوك المسلمين فيقيم خليفته ، مثلما فعل أقوش البرلى في حلب مع الخليفة الحاكم من قبل .

على أن موضع الاهمية هو أن يببرس نجح في اقامة الخلافة العباسية بالقاهرة ، واطاف ، بذلك الى مجموعة العوامل المساعدة في تأسيس الدولة السلوكية . يوضح ذلك ان دولا وشخصيات أخرى اسلامية حاولت ان ترث الخلافة العباسية بعد زوالها من بغداد سنة ١٢٥٨ م ، ونعنى بذلك الخلافة الحفصية بتونس .

والحفصيون فرع من الموحدين ، وينتسبون الى الشيخ ابي حفص يحيى ابن عمر الهنتاتى شيخ قبيلة هنتاتة احدى بطون مصمودة التي قامت على اكتافها دولة الموحدين . وكان هذا الشيخ الحفصى من كبار القائمين بدعوة المهدي بن تومرت ، ومن كبار المشيدين لسلطان الموحدين في المغرب والاندلس . وقد ازدادت هذه الصلة ارتباطا حينما تزوج ولده عبد الواحد أخت الخليفة المنصور الموحدى ، وصار حاكما على البلاد التونسية سنة ٦٠٣ هـ (١) (١٢٠٦ م) . ولما هزم الموحدون بالاندلس امام الجيوش الصليبية المتحالفة في موقعة العقاب Las Navas de Tolosa سنة ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م) وانهار نفوذهم في المغرب والاندلس بعد هذه الكارثة ، اعلن الامير ابو زكريا بن عبد الواحد الحفصى استقلاله بحكم افريقية عن خلافة بنى عبد المؤمن في مراكش سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩ م) ولكنه مع ذلك

(١) راجع كتابنا (دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ص ١٢٠ وما بعدها) .

اقتصر على لقب الامير لدرجة أنه زجر الشاعر الذي مدحه بأمر المؤمنين^(١) .
على ان هذه الامارة الحفصية لم تلبث ان تحولت الى خلافة في عهد ولده
ابى عبدالله محمد الذي تسمى بالمستنصر بالله أمير المؤمنين^(٢)
(٦٤٧ - ٦٧٥ هـ = ١٢٤٩ - ١٢٧٧ م) ولقد استند الحفصيون في اعلان
خلافتهم الجديدة الى الاسس الشرعية اللازمة في هذا الصدد ، كالاصل
العربي والنسب النبوي الى جانب قرابتهم للموحدين . فرغموا أنهم من
سلالة الخليفة أبى حفص عمر بن الخطاب . وعمر كما هو معروف من
أشراف قريش وكانت اليه السفارة في الجاهلية ، وقد تزوج النبي ابنته
حفصة . فالحفصيون بحكم هذا الاصل القرشي ، وهذا النسب النبوي ،
وبحكم قرابتهم للموحدين ، وجدوا في أنفسهم الشرعية الكافية لان يرثوا
خلافة الموحدين المنهارة . وقد حرصوا على الاعتزاز بهذا الاصل ، واطهاره
في كل مناسبة ، ونجد ذلك واضحا في أقوال كتابهم وشعراتهم التي أطلقت
على دولتهم اسم العمرية والفاروقية^(٣) او كقول ابن خلدون في قصيدة
يمدحهم بها :

(١) راجع (ابن ابي دينار : المونس في اخبار افريقية وتونس ص ١١٨ ،
محمد الباجي المعودي : الخلاصة النقية في امراء افريقية ص ٦١)

(٢) هناك خلاف حول تاريخ اعلان الخلافة الحفصية النية بتونس :
فالزركشى (تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ص ٣٦) يجعله في ٢٤ ذى
الحجة سنة ٦٥٠ هـ (١٢٥٣ م) بينما يجعله محمد الرعيني القيروانى
المعروف بابن ابي دينار (المونس في اخبار تونس ص ١٢٠) في سنة ٦٥٧ هـ
(١٢٥٩ م) عقب سقوط خلافة بغداد في ايدى المغول . ويبدو ان رأي
الزركشى هو الاصح نظرا لاتساع نفوذ الدولة الحفصية ومبايعة اهل
المغرب والاندلس لسلطانها قبل سقوط الخلافة العباسية .

(٣) انظر (Brunshvig : Le Berberie Oriental Sous Les
Hafsides, II, p. 18.)

يوم ابو حفص اب لهم وما ادراك ! والفاروق جد أول (١) .
ولقد جاء اعلان الخلافة الحفصية في ظروف سياسية مناسبة ، اذ لم
تمض سنوات قليلة على قيامها حتى سقطت الخلافة العباسية في بغداد على
أيدي المغول وقتل آخر خلفائها المستعصم بالله سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) .
وعقب ذلك أرسل الامير ادريس شريف مكة (٢) ، وأهل الحجاز يبعثهم
بالخلافة للخليفة الحفصي المستنصر بالله ، واعتبروه وريثا للخلافة
العباسية المنهارة .

ولا شك أن هذه المبايعة قد دعمت أركان الخلافة الحفصية ، لانها
أكسبتها أساسا شرعيا وهو الاشراف على الحجاز ، « أصل العرب والملة ،
ومقر الحرمين الشريفين » (٣) . وفي ذلك يقول المستشرق السويسري
ماكس فان برشم : « ان الحفصيين قد ورثوا خلافة الموحدين في الوقت
الذي اكتسبوا فيه من سقوط بغداد شيئا من هيئة الخلافة العباسية » (٤) .
ولقد شعرت مصر بخطورة اهداف هذه الخلافة الجديدة التي تقع
على حدودها الغربية ، لان السياسة المصرية كانت تهدف دائما الى مد
سلطانها على الحجاز لاسباب دينية وسياسية واقتصادية اهمها السيطرة
على البحر الاحمر وتجارته . فجميع الحكام الذين استقلوا بمصر
كالطولونيين والاشيديين والفاطميين ، قد حرصوا على مد سلطانهم على
الحجاز ، ثم سار الايوبيون على نفس هذه السياسة الحجازية حتى لقبوا

(١) ابن خلدون : التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ص ٢٣٥ .

(٢) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ١٧٨ .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٢٧ تحت عنوان اللقب بأمر المؤمنين .

(٤) راجع (Wiet : Précis de l'histoire d'Égypte, II, p. 250; Hist. de la nation Egyptienne tome IV p. 437; Ency. of Islam. art. Hafside.)

أنفسهم بلقب « خدام الحرمين » ، وبقي هذا اللقب للمماليك والعثمانيين من بعدهم (١) .

وسار السلطان بيبرس في هذا السبيل أيضا وأظهر فيه نشاطا كبيرا ، اذ رأى ان سياسة الدولة الحفصية تتعارض مع سياسة مصر التقليدية نحو الحجاز ، ولهذا عمد الى احياء الخلافة العباسية في القاهرة سنة ٦٥٩هـ (١٢٦١ م) وكان هدفه من ذلك انتزاع الحرمين من نفوذ الحفصيين ، ومد سلطانه باسم الخلافة العباسية على الحجاز والبحر الاحمر (٢) .

على أن الشيء الذي يدعو الى الالتفات في هذا الصدد هو أن اللقب الذي اتخذته الخليفة العباسي الاول في القاهرة وهو « المستنصر بالله » ، هو نفس اللقب الذي اتخذته الخليفة الحفصي بتونس ، وما أظن أن تطابق اللقبين كان مجرد مصادفة او توارد خواطر بقدر ما كان نوعا من التحدى والمنافسة . وقد يؤيد ذلك ان بعض الامراء الطامحين استغلوا هذا التنافس بين خلافة القاهرة وخلافة تونس لتحقيق مآربهم الشخصية . فيروى ابن خلدون مثلا انه في سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٥ م) ثار والى طنجة المدعو ابن الامير ، وخطب الخليفة الحفصي صاحب افريقية ، ثم خطب للخليفة العباسي في القاهرة ، ثم خطب لنفسه واتهى الامر بقتله سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) (٣) .

وكيفما كان الامر ، فالمهم هنا ان السلطان بيبرس أخذ في تنفيذ سياسته الحجازية عمليا ، فقام اولا بعدة اصلاحات بالحرم النبوي الشريف

(١) ، (٢) راجع (Gaston Wiet : Précis ... II p. 250 ; Histoire ... IV p. 437.)

(٣) ابن خلدون : العبر ج٧ ص ١٩٦ ، السلاوي : الاستقصا لخبار دول المغرب الاقصى ج١ ص ١٧ .

وأرسل الكسوة الى الكعبة (١) ، كما أرسل الصدقات والزيت والشموع والطيب . الخ (٢) . واخيرا أدى بيبرس فريضة الحج سنة ٦٦٧ هـ (١٢٦٩) ، فأظهر خشوعا وكرما لا ينتهى (٣) ، ولكنه لم ينس مصالحه السياسية اذ أزال أنصار الحفصيين وجعل الخطبة في في الحجاز للخليفة العباسي ثم لسلطان مصر بعده (٤) ، كما أقام الامير شمس الدين مروان ثبه مندوب له الى جانب شريف مكة (٥) . وجملة القول قوى نفوذ سلطان مصر في الاراضي الحجازية ، وصار يرمز لذلك النفوذ بالخطبة والسكة (٦) وارسال الكسوة الى الكعبة في كل عام . وكان كل ذلك من عمل بيبرس ، وهو في مجموعة من عناصر تدعيم الدولة المملوكية داخليا وخارجيا .

هذا ، ولم يكتف بيبرس بالعناية بالحرمين الشريفين ، بل امر سنة ١٢٦١ م بارسال الصناع والآلات لعمارة قبة الصخرة بالقدس ، ووجد مسجد ابراهيم الخليل عليه السلام (٧) ، وأخرج ما كان في اقطاعات الامراء من اوقافه (٨) ، كما امر سنة ١٢٦١ م ببناء مشهد على عين جالوت عرف

(١) المقرئزي : السلوك ج١ ص ٥٠٢ ، ٥٤٤

(٢) المقرئزي : السلوك ج١ ص ٥١٢

(٣) المقرئزي : السلوك ج١ ص ٥٨١ - ٥٨٢

(٤) المقرئزي : السلوك ج١ ص ٥٠٤

(٥) ، (٦) المقرئزي : السلوك ج١ ص ٥٧٩

(٧) قبر ابراهيم الخليل ومسجده في بلدة الخليل بفلسطين واسمها الاصلي حبرون وهى قرب بيت المقدس . راجع (ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص ٤٢٨)

(٨) المقرئزي : السلوك ج١ ص ٤٤٥ - ٤٤٦ ، ٥٠٢ .

مشهد النصر (١) ، تخليداً لذكرى ذلك الانتصار العظيم الذي حققه المسلمون هناك .

ولم يقتصر بيرس على ذلك بل أخذ في بناء المساجد وتأسيس المدارس ، ففي ربيع الآخر سنة ٦٦٠ (١٢٦١ م) بدأ في بناء مدرسته المشهورة على انقاض إحدى قاعات القصر الكبير الفاطمي . وتم بناء هذه المدرسة سنة ٦٦٢ هـ (٢) (١٢٦٣ م) . وبالرغم من تدهم تلك المدرسة في عهد المقرئ نفسه (ت ٨٤٥ هـ = ١٤٤٢ م) ، فإن الجزء الأكبر منها ظل باقياً حتى سنة ١٨٧٤ م ، عندما اخترقها الشارع الممتد من ميدان بيت القاضي الى سوق النحاسين المقابل لضريح السلطان قلاوون . وتهدمت منارة تلك المدرسة سنة ١٨٨٢ م ولم يبق منها اليوم الا كتلة مساحتها ١١/٥ متراً (٣) .

وتقرب بيرس الى العلماء ورجال الدين ، ويؤثر عنه انه زار الاسكندرية أربع مرات ، وأنه كان يترك بها في كل زيارة أثراً يدل على اهتمامه بها مثل تحصين أسوارها ، وتقوية اسطولها ، وتطهير خليجها من الرمال الذي طمرته ، وزيارة كبار المتصوفة من علمائها أمثال الشيخ القباري (٤) ، والشيخ الشاطبي (٥) . وبذلك الوسائل الوسائل وغيرها

(١) المقرئ : السلوك ج ١ ص ٤٤٦ ، العيني : عقد الجمان ، الجزء الخاص بحوادث سنة ٦٥٦ - ٦٧٣ هـ ورقة ٤٥٨ .
(٢) المقرئ : الخطط ج ٢ ص ٣٧٨ ، على مبارك : الخطط التوفيقية ج ١ ص ٢٩ ، ج ٦ ص ٩ .

(٣) راجع (Creswell : The Madrasa of Baibars, Op. cit. p. 131—132.)

(٤) هو الشيخ ابو القاسم محمد بن منصور المالكي الاسكندراني المعروف بالقباري نسبة الى صناعة القباري أي حفر القبور ودفن الموتى ،

تزعم بيبرس العالم الاسلامى شرعا وعرفا ، وقدم ملوك المسلمين الى القاهرة ودمشق للقيام بخدمته وتقديم فروض الطاعة والتبعية لشخصه ، مما ضمن قيام دولة المماليك على أسس ثابتة (١) .

٣ - التلخص من العناصر الايوبية المناوئة :

لم يبق بعد ذلك من المشاكل التي واجهت بيبرس وهددت دولة



وتطلق كلمة القبار ايضا على مساعد صائد السمك (السلوك ج١ ص ٤٤٩) أخذ القبارى عن الشيخ الحسن الشاذلي مؤسس الطائفة الشاذلية ، وأقام بمزرعة صغيرة يزرعها ويعمل فيها بيده ويقتات منها . وكان يكلم الناس من طاقة منزله . ويقال ان السلطان بيبرس عندما زاره لم يتمكن من الطلوع اليه ولم يكلمه الا وهو في البستان والشيخ في عليته وقد نصحه بتحسين أسوار الاسكندرية . وتوفي القبارى بظاهر الاسكندرية سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٤ م) ولا يزال يطلق اسمه على الحى الذي كان يعيش فيه هناك . راجع : (ابو شامة : الدليل على الروضتين ص ٢٣١ ، المقرئى : السلوك ج١ ص ٥٢٣ ، السندوبى : ابو العباس المرسى ومسجده ص ٢٠) (٥) هو الشيخ الزاهد ابو عبدالله محمد بن سليمان المعافرى الشاطبى الاسكندري ، وأصل هذا الشيخ من مدينة شاطبة Jātiba في شرق الاندلس ثم هاجر الى الاسكندرية وعاش فيها ايام السلطان الظاهر بيبرس . وقد اشتهر بالعبادة والتقوى ومات ودفن بها سنة ٦٧٢ هـ (١٢٧٣ م) وقبره يزار بالقرب من مبنى ادارة جامعة الاسكندرية في الحى المعروف باسمه . وهو غير الشيخ ابى القاسم الرعينى الشاطبى الذي عاش في القاهرة في عهد صلاح الدين الايوبي ، وعين استاذا في المدرسة الفاضلية وألف كتبا كثيرة في تفسير القرآن وقراءاته السبع ، ونخص بالذكر قصيدته المشهورة بالشاطبية في القراءات وهى في ١١٧٣ بيتا . وتوفي بالقاهرة ودفن بقرافتها سنة ٥٩٠ هـ . راجع (ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٣ ص ٢٣٤ ، المقرئى : نفع الطيب ج٢ ص ٢٢٩ ، السندوبى : ابو العباس المرسى ص ١٢٨) .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٣٩٧ - ٣٩٩ .

المماليك سوى بقايا الايوبيين على الرغم من اعلان المنصور صاحب حماة ،
والاشرف موسى صاحب حمص ولاءهما لبيبرس . ذلك ان الملك المغيـث
عمر بن العادل بن الكامل صاحب حصن الكرك (١) ، لم يقلع يوما عن
مناوأة سلاطين المماليك منذ عهد ابيك التركماني ، اعتقادا منه انه أحق
منهم في ملك مصر والشام . فلما جاء بيبرس الى السلطنة عزم على القضاء
على المغيـث عمر وازالته (٢) وأعد حملة كافية لتحقيق ذلك المشروع لولا
ان المغيـث بعث برسالة الى الخليفة الحاكم بأمر الله بالقاهرة يسأله الشفاعة،
فكتب الخليفة الى بيبرس يشفع فيه ، فقبل الشفاعة ، وابقى على المغيـث
والكرك معا (٣) . غير انه يبدو ان المغيـث ظل على نيته القديمة نحو
المماليك وسلطنتهم ، فكتب الى هولاءكو سرا يحضه على فتح الشام ،
ويطلب اليه أن يقبضه عليها ملكا تابعا (٤) ، ولكن بيبرس علم بأمر هذه
المكاتبات المتبادلة بين هولاءكو والمغيـث عمر . ويقال ان هذه المكاتبات لم
تحدث ، وان بيبرس اختلق القصة كلها لغرض في نفسه وهو التخلّص من
أحد الورثة الشرعيين للعرش الايوبي المناوئين لسلطانه (٥) . ومهما يكن

(١) يروى ياقوت (معجم البلدان ج٤ ص ٢٦١ - ٢٦٢) ان هناك
ثلاثة امكنة تسمى بالكرك : الاولى قرية في جنوب لبنان ، والثانية قلعة
خصينة في البلقاء وسط الجبال بين بحر القلزم (الاحمر) وبيت المقدس
وهي المقصودة هنا ، والثالثة قرية بالقرب من بعلبك .

(٢) يعزو ابو الفداء (المختصر في اخبار البشر ج٣ ص ٢٦٦) هذا
العداء الى اعتداء وقع من المغيـث على امرأة الظاهر بيبرس بالكرك .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٤٠٠ .

(٤) انظر (Blochet : Histoire des Sultans Mamlouks p. 382)

(٥) يقول ابن واصل في هذا الصدد (مفرج الكروب ج٢ ص ٤١٤) :
وفيها (اي سنة ٦٦١ هـ) استقبل الظاهر بيبرس الملك المغيـث استقبالا
رائعا ثم قبض عليه ، وأخرج فتوى يبرر فيها عمله بان الملك المغيـث كان على
اتصال بهلاوون الذي وعده بوعود حسنة منها : « قد اقطعتك من بصرى

من شيء ، فقد عمد بيبرس الى السياسة والمداراة ، فأرسل الى عمر رسالة أكد له فيها الايمان والمواثيق ، وأنه يرعى ذمته ولا يمسه بأذى (١) ، وطلب اليه الحضور الى معسكره بفلسطين * وعلى الرغم من تشكك المغيث في موثيق بيبرس ، فانه اضطر الى الذهاب الى حضرة بيبرس في معسكره عند ييسان حتى لا يبدو جاحدا لحسن المعاملة ، ناكرا لجميل الخليفة والسلطان * وفي جمادى الاولى سنة ٦٦١ هـ (مارس سنة ١٢٦٣م) وصل المغيث عمر الى الدهليز السلطاني عند ييسان ، فقابله بيبرس وأكرم وفادته ، وساق الى جانبه حتى قارب الدهليز ، وهناك قبض عليه واعتقله * ثم جمع بيبرس مجلسا حضره كبار الامراء الشاميين وقاضي قضاة دمشق المؤرخ شمس الدين بن خلكان ، وأوقفهم على الكتب المتبادلة بينه وبين هولاء ، كما أحضر القصاد الذين حملوا تلك الكتب ، ثم أخرج بيبرس فتاوى الفقهاء بوجود قتل المغيث عمر (٢) ، وأرسله مصفدا في الحديد الى القاهرة حيث قتل في ابريل سنة ١٢٦٣ م (٣) ، واستولى بيبرس على الكرك في نفس السنة ، وعين بها واليا من قبله * وبذا خلا الجو لدولة المماليك من آخر مناوىء لها من ناحية الايوبيين *

»→

الى غزة » ثم يعده بامداده بالجيوش والفرسان لكي يفتح بها مصر . وبهذه الكتب برر الملك الظاهر قبضة على المغيث .

(١) يقال ان بيبرس حلف للمغيث اربعين يمينا من جملتها الطلاق من ام الملك السعيد . ويقال انها بعد ذلك استحلّت بمملوك ، ولم ير ذلك المملوك بعدها . راجع (مفضل بن ابي الفضائل : النهج السديد ص ٤٥٠) (٢) مفضل بن ابي الفضائل : النهج السديد ص ٥٥٠ ، المقريري : السلوك ج١ ص ٤٨٢ ، ٤٩١ - ٤٩٢ .

(٣) يروى ابو الفداء (المختصر في اخبار البشر ج٣ ص ٢٢٦) ان المغيث حمل الى امرأة الظاهر بيبرس التي قيل انه اعتدى عليها بالكرك ، بقلعة الجبل ، فأمرت جواريتها فقتلنه بالقباقيب .

٤ - محالفات بيبرس مع الدول الاوربية :

لم يكن من المنتظر ان يقف بيبرس عند هذا الحد من التمكين للدولة المملوكية في الداخل والخارج ، وهو يعلم ان المغول سوف يتحركون لمسح غار عين جالوت ، وأن الصليبيين سوف يعملون كذلك على اثاره ملوك أوروبا الى مثل ما قام به لويس التاسع ملك فرنسا اواخر ايام الايوبيين ، وان في هذين الخطرين أحدهما او كلاهما ما يعرض الدولة المملوكية للزوال . لهذا عمد الى عقد المحالفات مع الدول الاوربية وغيرها استعدادا لذلك الخطر المزدوج :

فحالف ميخائيل الثامن باليولوج Michael VIII Palaeologus امبراطور الدولة البيزنطية سنة ١٢٦٢ م (٦٦٠ هـ) ، وارسل اليه - بناء على طلبه - بطريقا من الملكانية ليشرف على الملكانيين (١) في دولته . وكان صحبة هذا البطريق - واسمه الرشيد الكحال - الامير فارس الدين أقوش المسعودي ، وعدة من الاساقفة . فلما وصلوا القسطنطينية ، احتفى بهم الامبراطور وكرمهم ، واطلع الامير أقوش على المسجد الذي جدد بناءه (٢) في عاصمته كى يصلى فيه المسلمون من التجار والصناع

(١) ملكانيون جمع ملكاني Malkaniy وهي كلمة سريانية ، وتقابلها في العربية ملكيون وملكى Melkites وبال يونانية Basilikoi اي ملكي . وقد اطلق اسم ملكانية على المسيحيين العرب الذين انضموا الى الكنيسة البيزنطية متبعين مذهب الامبراطور الرسمى . راجع :

(Concise Encyclopaedia of Arabic Civilization p. 361.)

(٢) بنى مسلمة بن عبد الملك هذا المسجد في سنة ٧١٤ م (٩٦ هـ) في خلافة الوليد بن عبد الملك على اثر صلح بين البيزنطيين والعرب ينص على بناء مسجد بالقسطنطينية . وقد هدمه الصليبيون اثناء غاراتهم على القسطنطينية . ويقال ان صلاح الدين حاول تجديد بنائه فلم يجبه

←

وغيرهم المقيمين أو المارين ببلاده • ولما علم بيبرس بما قام به الامبراطور البيزنطي من التجديدات في بناء هذا المسجد ، امر بتأثيثه وتجهيزه بالحصر والسجاجيد والقناديل المذهبة والمباخر والمسك والعنبر والعود وماء الورد ••• الخ (١) •

كذلك حالف السلطان بيبرس امبراطور الدولة الغرية وملك صقلية ونابلى منفرد بن فردريك الثاني هو هنشتاوفن ، وأرسل له في اوائل حكمه سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) هدية من جملتها عدد من الزراف وجماعة من أسرى عين جالوت من التتار بخيولهم التتيرية وعدتهم ، فاعجب الامبراطور بالهدية ، وأحسن الى الرسل واکرمهم • وكان على رأس السفارة المصرية المؤرخ الحموي الكبير جمال الدين بن واصل الذي أمدنا بعض أخبار تلك السفارة في كتابه « مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » حيث يقول : « توجهت رسولا الى منفريد من السلطان الاعظم الملك الظاهر ركن الدين بيبرس - رحمه الله - في شهر رمضان سنة تسع وخمسين وستمائة ، فأقمت عنده مكرما بمدينة من مدائن ابنولية (٢) يقال لها برلت (Barletta) ، واجتمعت به فوجدته متميزا محبا للعلوم العقلية ، يحفظ عشر مقالات من كتاب اقليدس في الهندسة • وبالقرب من البلد التي كنت نازلا بها مدينة تسمى لوجارة (Lucera) أهلهم

»→

البيزنطيون الى ذلك . (ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٤٠٢ ، العيني : عقد الجمان ورقة ٤٨١) .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٤٠٢ - ٤٠٣ ، المقرئزي : السلوك ج١ ص ٤٧١

(٢) يريد بذلك مقاطعة ابوليا في جنوب ايطاليا .

كلهم مسلمون من أهل جزيرة صقلية (١) ، وتقام الجمعة فيها ، ويعلن فيها بشعائر الاسلام ، وهى على هذه الصفة من عهد أبيه الامبراطور (٢) ، وكان قد شرع في بناء دار علم بها ليشتغل فيها بجميع انواع العلوم النظرية . واكثر أصحابه الذين يتولون أموره الخاصة مسلمون ، ويعلن في معسكره بالآذان والصلاة » (٣) . ويضيف الصفدى في ترجمته لابن واصل ان منفرد قال لجمال الدين في مجلسه : « يا قاضي أنا ما عندي ما أسألك عنه في الفقه والعربية ثم سأله ثلاثين سؤالاً في علم المناظر (البصريات) ، فبات تلك الليلة وصبحه بالجواب عنها ، فصلب الانبرور على وجهه وقال : « هكذا يكون قسيس المسلمين ، لان القاضي لم يكن معه كتب في تلك السفارة وانما أجابه عن ظهر قلب » (٤) . كذلك ألف ابن واصل أثناء اقامته في ايطاليا رسالة في المنطق سهاها « الرسالة الانبرورية » وأهداها الى منفرد (٥) .

وتروى المصادر الاسبانية المعاصرة أن ملك قشتالة الفونسو العاشر

(١) يروى المؤرخون ان الامبراطور فردريك الثاني نقل معظم عرب جزيرة صقلية الى مدينة لوجارة Lucera في ابوليا جنوبي ايطاليا سنة ١٢٤٩ م وكان ذلك على اثر مصادمات عنيفة وقعت بين العرب والمسيحيين في صقلية ، فنقلهم الامبراطور معه الى مدينة لوجارة حيث كان يقضي اغلب اوقاته متخذاً اياهم حرساً أميناً له . راجع (مارتينو ماريو مورينو : المسلمون في صقلية ص ٢٥) .

(٢) يقصد الامبراطور فردريك الثاني الذي كان اتصاله بملوك وعلماء المسلمين ، وفضله في نشر الثقافة العربية في اوربا حديث الكتاب والمؤرخين في كل عصر .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب (مخطوطة باريس) ص ١٢٢ أ ، جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الاسلامية ج ٢ ص ٢٠٦ - ٢١٤ .
(٤) ، (٥) الصفدى : نكب الهميان في نكت العميان ص ٢٥١ ، جمال الدين الشيال : نفس المرجع السابق .

المعروف بالعالم ^(١) El Sabio أرسل الى السلطان بيبرس البندقداري - وتسميه Alvandexaver - هدية من الخيول العربية الاصلية ، وذلك في سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) . وقد رد عليه بيبرس بهدية مسائلة من بينها زرافة ، و سن فيل ، وتساح محنط لا يزال الى اليوم معلقا في مدخل الباب الشرقي لكتدرائية اشبيلية . Puerta del Lagarto وتضيف الرواية ان السلطان بيبرس طلب الزواج من ابنة الملك الاسباني الفونسو العاشر ولكن طلبه لم يتحقق ^(٢) .

ولم تقتصر مساعي بيبرس على ملوك اوربا فحسب ، بل حالف أيضا خان القبيلة الذهبية Golden Horde ^(٣) أو مغول القبشاق ، واسه بركة خان ، وهو اول من اعتنق الاسلام من اولاد جنكيزخان ، وكانت بلادهم تمتد من تركستان شرقا الى شمال البحر الاسود غربا ، وتعرف ببلاد القبشاق او القفجاق ، وعاصمتها مدينة صراي Sarai في شمال غرب بحر قزوين .

(١) سمي بالعالم او الحكيم لانه اشرف على كتابة الحولية التاريخية الكبرى في تاريخ اسبانيا Primera Cronica General de Espana واستعان على تأليفها بعدد من العلماء المسلمين واليهود والمستعربين المسيحيين ، واعتمد هؤلاء على عدد كبير من المصادر العربية والبيزنطية واللاتينية وعلى جميع الحوليات الاسبانية السابقة . كذلك نشطت حركة الترجمة في طليطلة في عهد هذا الملك الذي اشتهر بحبه للعلم والعلماء .

(٢) راجع (Sacheverell Sitwell : Spain p. 21) وكذلك (بدرو مونتاث : علاقة قشتالة بمصر في القرن الثالث عشر الميلادي ، من الابحاث التي القيت في عيد القاهرة الالفى) ، عبد العزيز سالم : القصور الاسلامية في الاندلس (سلسلة اقرا) .

(٣) يقال ان هذه التسمية ترجع الى لون مخيماتهم .

فالسُلطان بيبرس تحالف مع عاهل هذه الدولة الإسلامية المغولية بركة خان وتبادل معه البعوث والهدايا (١٢٦١ - ١٢٦٣ م) كما تزوج ابنته ، وأمر بالدعاء له على منابر القاهرة والقدس ومكة والمدينة (١) . ولا شك ان هذا الحلف كان موجها بطبيعة الحال ضد عدوهما المشترك الممثل في دولة ايلخانات فارس التي يحكمها هولاكو واولاده ، وكانت تشمل فارس والعراق وعاصمتها تبريز او مراغه (٢) ، فيروى المقرئزي ان بيبرس أخذ يحرض بركة خان على قتال هولاكو ويرغبه في ذلك (٣) .

ولم يكتف بيبرس بذلك ، بل حالف في سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦٢ م) سلطان السلاجقة الروم عز الدين كيكائوس بن كيخسرو ، ووعدته بالمساعدة ضد أخيه ركن الدين قلج أرسلان وضد هولاكو وأطماعه في آسيا الصغرى . وأرسل بيبرس جنوده الى دمشق وحلب استعدادا لتأييد السلطان عز الدين ضد أخيه ركن الدين وضد المغول (٤) .

ومن الواضح ان المعاهدات التي أبرمت والسفارات التي تبودلت بين

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٤٠٩ ، مفضل بن ابي الفضائل : النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ص ٤٥٤ - ٤٦٢ .

(٢) راجع (Barthold : Histoire de Turcs D' Asie Centrale p. 138. adaptation francaise par Madame Danskis)

(٣) المقرئزي : السلوك ج١ ص ٤٦٥

(٤) راجع تفاصيل النزاع بين هذين الاخوين وتدخل هولاكو في آسيا الصغرى في (ابن ابي الفضائل : النهج السديد ص ٤٥٥ وكذلك

مقدمة ناشر الكتاب بلوشى - Blochet : Hist, des Sultans Mam-louks p. 385.)

راجع كذلك (ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٤٠١ ، المقرئزي :

السلوك ج١ ص ٤٦٩) .

سلطان مصر المملوكي وبين ملوك الدول المحيطة به شرقا وغربا ، جعلت دولة المماليك في شيء من الامن مما يهدد كيانها من ناحية المغول والصليبيين، وان كان من المعروف ان خلو عهد بيبرس من حملة صليبية على مصر انما يرجع لانصراف الدول الاوربية الى شئونها ومشاكلها في الغرب ، كما أن قلة الغارات المغولية في عهده انما يرجع الى ما طرأ على المغول من حالة سكون مؤقت بعد عاصفة جنكيزخان وهولاكو في البلاد الشرقية على الاقل .

٥ - تحصين الاطراف والثغور والعناية بالبريد :

لم يعوز الدولة المملوكية بعد ذلك دعامة من دعومات القوة والبقاء سوى تأمين حدودها ضد الغزو الخارجي ، وتنظيم جيوشها وتقوية اسطولها استعدادا لما يتطلبه مركز الزعامة في العالم الاسلامي من هجوم او دفاع ، ولذا كان ما قام به بيبرس في هذا المضمار من اهم ما تحتاجه الدولة للقيام على أساس متين . واول ذلك ان السلطان جند العشائر العربية سنة ١٢٦١ م (٦٥٩ هـ) وهي العشائر المقيمة على الحدود القرائية مثل عرب خفاجة وحشم على قتال هولاكو بعد ان غرهم بالخلع والهدايا والاموال (١) . ويقال ان هؤلاء العربان قاموا بمهمتهم خير قيام حتى وصلت اغاراتهم ابواب مدينة بغداد (٢) .

ولم يكتف بيبرس بذلك ، بل أمر نوابه بحلب سنة ١٢٦٢ م (٦٦٠ هـ) باحراق المروج والاعشاب التي جرت عادة هولاكو ان يعسكر

(١) المقرئزي : السلوك ج١ ص ٤٦٥ ، ٤٨٠ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥١٠ ، ٥١٢ ، وكذلك :

(Wiet : Le Sultan Baibars , Revue du Caire, t. III , 1939 — 1940, p. 418)

(٢) المقرئزي : السلوك ج١ ص ٥١٠ — ٥١٢ .

على مقربة منها أثناء هجومه على الشام • فجهزت التمداحات والصوفات وآلات النار سرا ، واحرقت تلك المروج جميعها ، وهي مسيرة عشرة أيام من آمد الى خلاط • وبذا قطع بيبرس على هولاكو وجنوده السبل والطرق المؤدية الى الشام (١) • وقد شرح لنا كل من العمري والقلقشندي طريقة هذا الاجراق بقوله : « كان من عادة التتر انهم لا يكلفون علوفة لخيولهم بل يكلمونها الى ما تنبت الارض ، فاذا كانت تلك الارض مخصبة سلكوها ، واذا كانت مجدبة تجنبوها ، وكانت أرض هذه البلاد مخصبة تقوم بكفاية خيل القوم اذا قصدوا بلادنا ، فاذا احرقوا زرعها ونباتها ضعفوا عن قصد بلادنا وحصل بذلك الدفع عن مباغته الاطراف ومهاجمة الثغور • وكان طريقهم في احراقها ان يجهزوا اليهم الرجال ومعهم الثعالب الوحشية وكلاب الصيد ، فيكمنون عند أمناء النصاح في كهوف الجبال وبطون الاودية ، ويرتقبون يوما تكون ريحه عاصفة وهواؤه زعزع ، تعلق النار موثقة في أذنان تلك الثعالب والكلاب ، ثم تطلق الثعالب ، والكلاب في أثرها وقد جوعت ، لتجد الثعالب في العدو ، والكلاب في الطلب ، فتحرق ما مرت به من الزرع والنبات ، وتعلق الريح النار منه فيما جاوره ، مع ما يلقيه الرجال بأيديهم في الليالي المظلمة ، وعشاء الايام المعتمة » (٢) •

ثم امر بيبرس سنة ١٢٦٣ م بعمارة القلاع التي خربها المغول من حمص الى حوران ، وزودها بالمؤن والذخيرة ، فأقام بذلك خطا تحصينيا من شرق الاردن الى نهر العاصي ، فضلا عن أبراج المراقبة التي أقامها على

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٤٠٥ - ٤٠٦ ، وكذلك :

(Wiet : Le Sultan Baibars, Revue du Caire, III, 1939—

1940, p. 422.

(٢) راجع (العمري : التعريف ص ٢٠١ ، القلقشندي : صبح

الاعشى ج١٤ ص ٤٠١)

طول الاطراف الصليبية لحفظ الطرقات من اعتداءات الفرنج (١) .
كذلك اهتم بيبرس بعمارة سلسلة المناور او المنائر التي تربط أطراف
الدولة بالعاصمة * وهي عبارة عن أبراج للمراقبة يربط فيها الحراس
والمرابطون ليل نهار . فاذا كشفوا عدوا مقبلا من البر كالمغول ، أو من البحر
كالصليبيين ، اشعلوا النار على قمم هذه المناور اذا كان الوقت ليلا ، او
أثاروا فيها الدخان اذا كان الوقت نهارا . ثم سرعان ما تنتقل هذه الاشارات
النارية او الدخانية من منارة الى اخرى تحذر الاهالي الى أن تصل الى
العاصمة * فهي تشبه صفارات الانذار في وقتنا الحاضر . وكثيرا ما استعمل
المنورون اشارات نارية او دخانية بطرق او حركات معينة للاخبار عن حالة
العدو او عدده او جنسيته او غير ذلك . وان كانت المراجع للاسف لم
تشرح لنا طريقة ارسال هذه الاشارات .

ولعل الوصف الذي اورده ، المقدسي (ق ٤ هـ) ، والعمري (ق ٨ هـ)
عن دور هذه المناور في مقاومة الصليبيين والمغول ، يعطينا فكرة عن
أهميتها الدفاعية في الشرق العربي * فيقول المقدسي : « وكفر سلام من
قرى قيسارية كبيرة أهلة ، بها جامع على الجادة ، ولهذه القصبه رباطات
على البحر ، يقع بها النفير ، وتقلع اليها شلنديات الروم وشوانبهم ومعهم
أسارى المسلمين للبيع كل ثلاثة بمائة دينار . وفي كل رباط قوم يعرفون
لسانهم ، ويذهبون في الرسائل ، ويحمل اليهم أصناف الاطعمة ، وقد
ضج بالنفير لما تراءت مراكبهم فان كان ليلا او قادت منارة ذلك الرباط ،
وان كان نهارا دخنوا ، ومن كل رباط الى القصبه عدة منائر شاهقة ، قد
رتب فيها أقوام ، فتوقد المنارة التي للرباط ثم التي تليها ثم الاخرى ، فلا

(١) انظر (Wiet : Précis de l'histoire d' Egypte, II, p.)
252—253; Le Sultan Baibars, Revue du Caire, III, p. 419.)

يكون ساعة الا وقد انفر من بالقصبة وضرب الطبل على المنارة ، ونودي الى ذلك الرباط وخرج الناس بالسلاح والقوة » (١) .

اما العمري فيصف مناور الجبهة الشرقية المواجهة للمغول بقوله : « والمناور هي مواضع رفع النار في الليل ، والدخان في النهار . وذلك ان مملكة ايران لما كانت بيد هولاء من التتار ، وكانت الحروب بينهم وبين هذه المملكة ، ان جعلوا اماكن مرتفعة من رؤوس الجبال توقد فيها النار ليلا ، ويثار الدخان نهارا ، للاعلام بحركة التتار اذا قصدوا دخول البلاد لحرب او اغارة . وهذه المناور تارة تكون على رؤوس الجبال ، وتارة تكون على أبنية عالية . ومواضعها معروفة (٢) من اقصى ثغور الاسلام كالبيرة والرحبة ، الى حضرة السلطان بقلعة الجبل ، حتى ان المتجدد بالفرات ان كان بكرة علم به عشاء ، وان كان عشاء علم به بكرة . ولما يرفع من هذه النيران او يدخن من هذا الدخان أدلة يعرف بها اختلاف حالات رؤية العدو والمخبر به باختلاف حالاتها ، تارة في العدد ، وتارة في غير ذلك . وقد ارصد في كل منور الديادب والنظارة ، لرؤية ما وراءهم وايراء ما امامهم ، ولهم على ذلك جوامك مقرررة كانت لا تزال دارة (٣) .

ولم يقتصر بيبرس على ذلك بل أمر في سنة ١٢٦٤ م بتجديد بناء القلاع التي على الحدود الفراتية ولا سيما قلعة البيرة التي أرسل اليها

(١) المقدسي : كتاب احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ١٧٧ ، نشر دي خويه (ليدن ١٩٠٦) .

(٢) أورد العمري والقلقشندي اسماء تلك المواضع . راجع (العمري : التعريف ص ٢٠٠ - ٢٠١ ، القلقشندي : صبح الاعشى ج٤ ص ٣٩٩)

(٣) العمري : نفس المرجع والصفحة ، القلقشندي : نفس المرجع ص ٣٩٨ .

آلات القتال والأسلحة من مصر والشام ، وعبأ فيها كل ما يحتاج اليه أهلها في الحصار لمدة عشر سنين (١) كي تظل شوكة في جنب المغول .
اما في مصر فان السلطان أمر بردم مصب النيل عند دمياط ورمى فيه صخورا عظيمة ليحول دون مرور سفن الصليبيين وتكرر مأساة دمياط من جديد، كما شيد برجاً للمراقبة في رشيد، وعمر أسوار الاسكندرية وجدد بناء المنار الذي بها (٢) .

على ان يبهرس لم يكتف بتلك الاستعدادات الدفاعية لضرورة ما تتطلبه الظروف الحربية من سرعة في تلقي الاخبار واصدار الاوامر ، ولهذا وضع للبريد (٣) نظاما ربط به جميع انحاء مملكته بشبكة من خطوط البريد البرية والجوية . وكان مركز هذه الشبكة قلعة الجبل بالقاهرة ، ومنها تنفرع سائر الخطوط وتصدر المراسيم السلطانية الى انحاء المملكة ، واليها ترد الرسائل من الحكام ، والتقارير من ولاة الاعمال

(١) المقرئبي : السلوك ج١ ص ٥٢٥ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ج١ ص ١١١ ، تاريخ ابن الفرات ج٧ ص ٨٤
(٣) البريد نظام يتعلق بأمن الدولة مثل نظام المخابرات اليوم ، مهمته التجسس على عمال الدولة واعدائها وابلاغ العاصمة كل ما يقع في الولايات من أحداث . فهو اذن بريد الدولة وليس بريد الجمهور مثل البوستة اليوم .
ويقال ان اصل كلمة بريد لاتيني بيزنطي Veridus ثم انتقل هذا النظام الى الدولة الاسلامية في عهد معاوية بن ابي سفيان نقلا عن الروم في الشام .
واطلق لفظ البريد في اول الامر على الدابة التي تركب لمهمة رسمية ثم اطلق على الراكب نفسه ثم على المسافة التي يقطعها الراكب وهذه على حسب تقدير علماء المسالك والفقهاء أربعة فراسخ . ولما كان الفرسخ أربعة اميال ، فان مسافة البريد تكون ١٢ ميلا على هذا الاساس .

وعامل البريد كان يسمى أيضا بصاحب البريد كما كان يسمى في الهند بملك البريد على حد قول ابن بطوطة . أما في المغرب والاندلس فكان يطلق عليه اسم الرقاص . ولا شك ان ادارة البريد بما فيها من سجلات وقوائم باسماء المحطات وتقدير المسافات ، قد اعطت الرحالة والجغرافيين العرب مادة خصبة في كتاباتهم الجغرافية المعروفة باسم المسالك والممالك .

والنيابات في سرعة وانتظام (١) ، حتى صار البريد يصل من دمشق الى القاهرة ومن القاهرة الى دمشق في ثلاثة أيام (٢) ، ولم يتأت ذلك الا بعد ان اتفق بيبرس اموالا ضخمة في سبيل ترتيبه (٣) . وزود بيبرس مراكز البريد بكل ما يحتاج اليه عمال البريد من زاد وعلف ، كما راعى فيها توفر المياه او وجود قرية بجوارها كي يستأنسوا بها (٤) . وأعد في كل مركز منها خيولا لا يسمح بركوبها الا بمرسوم سلطاني (٥) . وكان البريديون ينتخبون عادة من خدم السلطان ذوى الكفايات والذكاء لابلاغ الرسائل الشفوية عند الاقتضاء ، وكانت لهم مكانة محترمة . ويشرف على ادارة البريد صاحب ديوان الانشاء ، اذ عهد اليه حفظ الواح (٦) البريد بالديوان . فاذا خرج بريدي الى جهة من الجهات ، اعطى لوحا من تلك الالواح ليعلقه بعنقه في ذهابه وايابه .

(١) كان يتفرع من قلعة الجبل اربعة طرق برية يمتد احدها جنوبا الى قوص بالوجه القبلي وما يلي ذلك من بلاد النوبة ، وآخر شرقا الى عيداب وسواكني على البحر الاحمر ، وثالث غربا الى الاسكندرية وبرقة ، ورابع شمالا الى دمياط ومنها الى غزة حيث يتفرع البريد الى سائر البلاد الشامية . راجع (القلقشندي : صبح الاعشى ج١٤ ص ٣٧٢-٣٨٣) .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية مادة بيبرس الاول .

(٣) المقرئزي : السلوك ج١ ص ٤٤٦ - ٤٤٧ ، ابن اياس : بدائع

الزهور ج١ ص ١٠٨

(٤) القلقشندي : صبح الاعشى ج١٤ ص ٣٧٢

(٥) ابن اياس : نفس المرجع ج١ ص ١٠٨

(٦) كانت هذه الالواح من الفضة وقد نقش على احد وجهي كل لوح منها عبارة : لا اله الا الله محمد رسول الله ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون - ضرب بالقاهرة المحروسة . وعلى الوجه الاخر :

« عز لولانا السلطان سلطان الاسلام والمسلمين »

راجع (القلقشندي : صبح الاعشى ج١٤ ص ٣٧١)

ولم يقتصر الامر على البريد البرى ، فهناك أيضا ما نستطيع ان نسميه بالبريد الجوي ونعنى بذلك الحمام الزاجل الذي كان يستخدم في الحالات المستعجلة . وكان لهذا الحمام ابراج خاصة بالقلعة ومراكز معينة في سائر انحاء المملكة مثل مراكز البريد البرى ، لكنها تزيد عنها في المسافة . فاذا نزل الحمام في مركز منها ، نقل البراج الرسالة التي بجناحه الى طائر آخر ليوصلها الى المرحلة التي تليها وهكذا . وكان الايجاز والتركيز من أهم مميزات الرسائل التي ينقلها الحمام الزاجل ، اذ يستغنى فيها عن البسمة والمقدمات والالقاب الكثيرة ، ويكتفى بذكر التاريخ والساعة وإيراد المطلوب في صيغة مختصرة (١) . وكان الخط المستعمل في هذه الرسائل هو المعروف باسم « الغبار » لانه دقيق صغير يشبه ذرات الغبار . لهذا كان حجم الرسالة في بعض الاحيان لا يزيد طولها عن سلامة الاصبع .

مما تقدم نرى ان النظام الدقيق الذي وضعه بيبرس للبريد كان من الضروريات الحربية اللازمة للوقوف على كل ما يتجدد في انحاء مملكته فيأخذ حذره ويستعد للطوارئ .

٦ - تقوية الاسطول والجيش :

ولم تقف مجهودات بيبرس الحربية عند هذا الحد ، بل عمل على انشاء قوة بحرية يستعين بها في صد اعدائه الذين يغيرون على بلاده من جهة البحر . ويعتبر بيبرس في الواقع هو مؤسس اسطول المماليك ، اذ يشير المقرئزي الى كثرة ركوب هذا السلطان في بحر النيل ، والى اهتمامه بدور صناعة السفن التي في القسطنطينية (مصر) وجزيرة الروضة ، والاسكندرية، ودمياط، لدرجة انه كان يشرف بنفسه على بناء الشوانبي (٢)،

(١) الفلقشندي : نفس المرجع ج١٤ ص ٣٨٩ - ٣٩٤
 (٢) راجع (المقرئزي : الخطط ج٢ ص ١٨٠ ، ٢٩٧) .

وتجهيزها بالآلات ، ولعبها في البحر (١) ، ويسوق المقريري في هذا الصدد رواية طريفة تدل على مبلغ - عناية بيبرس بالاسطول ، وهي ان رسل ملك قبرص جاءت الى السلطان بيبرس سنة ٦٧٠ هـ للشفاعة في صاحب عكا ، فوجدته جالسا في الصناعة بين الاخشاب ، والصناع والامراء تحمل بأنفسها آلات الشواني وهي تمد ، فراعهم ما شاهدوا (٢) .

وقد حرص بيبرس على توفير أعواد الخشب التي تصلح لبناء السفن فمنع الناس من شرائها . ويفهم من كلام المؤرخين امثال الاسعد بن ممتى (ت ١٢٠٩ م) وعثمان بن ابراهيم النابلسي (ت ١٢٥٨ م) والمقريري (ت ١٤٤٢ م) أن حراج السنط acacia التي كان خشبها يستخدم في بناء السفن ، والتي كانت توجد بكثرة في جنوب الدلتا ، وصعيد مصر ، وشبه جزيرة سيناء على عهد الفاطميين والايوبيين (٣) ، قد أخذت تقل تدريجيا منذ اواخر العصر الايوبي ، وأن العوام والخواص صاروا يقطعون منها ما يحتاجونه من السواقي وآلات المعاصر وغيرها ، وما يوقدون به في بيوتهم ومعاصرهم بالجمال الكثيرة (٤) بحيث لم ينته القرن الثالث عشر

(١) الشواني جمع شيني او شوني او شونة وهي من اهم القطع التي كان يتألف منها الاسطول ، وهي مراكب حربية كبيرة كانوا يقيمون فيها ابراجا وقلاعا للدفاع والهجوم . وكانت هذه الابراج مكونة من عدة طبقات ، تقف في الطبقة العليا منها العساكر المسلحة بالقوس والسهام ، وفي الطبقة السفلى الملاحون بالمجاديف ، وتحتوي على مخازن لخزن الطعام ، ومستودعات لخزن المياه .

(٢) المقريري : الخطط ج ١ ص ٦٠١

(٣) الاسعد بن ممتى : قوانين الدواوين ص ٣٤٥ - ٣٤٧ .

(٤) عثمان بن ابراهيم النابلسي : كتاب لمع القوانين المضية في دواوين

الديار المصرية ص ٤٥ - ٦٠ منشور في مجلة (Bulletin D'études Orientales Tome XVI annes 1958—1960, Damas 1961 .)

الميلادي الا وكانت حراج الدلتا حول القاهرة في المطرية و قليوب والجيزة قد اختلفت تماما ، ثم تلتها حراج الصعيد في البهنساوية والاشمونين واسيوط واخميم وقوص ، فاختفت هي الاخرى في اواخر القرن الرابع عشر الميلادي وتحولت الى اراضي زراعية ، ثم يأتي المقريري في القرن الخامس عشر فيؤيد ذلك بقوله : « وقد بطل هذا جميعه ، واستولت الايدي على تلك الاشجار فلم يبق منها شيء البتة » (١) .

من هذا نرى ان مصر حينما حكمها الظاهر بيبرس في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، لم يكن يوجد بها الا بقايا مبعثرة من حراج السنط في الوجه القبلى ، وحول مدينة السويس في صحراء سيناء (٢) ، وهي في مجموعها لا تكفي حاجة الدولة . وقد يؤيد ذلك ان بيبرس اختكر الخشب المحلى الصالح لبناء السفن ومنع الناس من بيعه او شرائه (٣) ، كما انه اضطر الى قطع شجر الجميز Sycamore بجزيرة الروضة لاستخدام خشبه - رغم قلة جودته - في بناء اسطول جديد عوض الاسطول الذي كان قد سيره الى جزيرة قبرص وتحطم هناك على سواحلها سنة ١٢٧١ م (٤) . ولعل العبارة التي وجهها بيبرس الى ملك قبرص في احدى رسائله ، ويقول

(١) المقريري : الخطط ج١ ص ١١٠ ، ج٢ ص ١٩٤ ، وكذلك

(Aly Bahgat : Les Forets en. Egypte, Bulletin de l' Institut Egyptien, Le Caire 1900.)

(٢) سعيد عاشور : مدينة السويس منذ الفتح العربي الى بداية العصر الحديث ص ٧٧ (الفصل الثاني من كتاب تاريخ السويس سلسلة بلادنا . القاهرة ١٩٦٦) .

(٣) المقريري : السلوك ج١ ص ٤٤٧

(٤) المقريري : الخطط ج٢ ص ١٨٥

فيها : « وأنتم خيلكم مراكب ، ونحن مراكبنا الخيل » (١) ، تدل على العجز الذي كانت تعانيه البحرية المملوكية في أهم خاماتها ، وهو الخشب . وكيفما كان الامر ، فان بيبرس عمل على تلافى هذا العجز باستيراد الخشب والحديد من آسيا الصغرى (٥) وايطاليا ، وتمكن بذلك من اعداد اسطول من خمسين قطعة (٣) .

ولم يكن اهتمام بيبرس بتقوية جيشه أقل من اهتمامه بالمسائل البحرية السالفة الذكر ، ولذا أكثر من شراء المماليك من بنى جنسه القفجاق (٤) ، اذ « مالت الجنسية الى الجنسية » على قول الفلقشندي ، ووقعت الرغبة في الاستكثار من القفجاق على عهد بيبرس ، « حتى اصبحت مصر بهم أهلة المعالم ، محمية الجوانب ، منهم زعماء جيوشها ، وعظماء

(١) المقرئزي : السلوك ج١ ص ٥٩٤ حاشية ٥ ، عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر ص ١٩١ .

(٢) يروى ابن بطوطة (ق ١٤ م) ان مدينة العلايا الواقعة على ساحل الاناضول كانت كثيرة الخشب ومنها يحمل الى الاسكندرية ودمياط (رحلة ابن بطوطة ج٢ ص ٢٥٧) . كذلك يروى ابن اياس انه جرت العادة ان يخرج جماعة من الامراء والجنود في عدد من المراكب الى مكان يسمى اللجون او اللجون لاحضار الاخشاب على العادة ، ومن المرجح ان المقصود باللجون هو مدينة بابر Babar التركية الواقعة على ساحل الاناضول (آسيا الصغرى) راجع (ابن اياس : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ص ٣٧ حاشية ، بدائع الزهور ج٢ ص ١٨٢)

(٣) المقرئزي : السلوك ج١ ص ٤٤٧ .

(٤) المعروف ان بيبرس ولد ببلاد القفجاق او القيشاق سنة ١٢٢٣ م (٦٢٠ هـ) وقضى بها شطرا من حياته الاولى انى ان بيع لاحد النخاسين على اثر هجوم المغول على تلك البلاد في سنة ١٢٤٢ م (٦٤٠ هـ) . راجع (دائرة المعارف الاسلامية ، مادة بيبرس الاول) .

أرضها ، وحمد الاسلام مواقفهم في حماية الدين حتى انهم جاهدوا في
الله اهلهم » (١) .

وبينما يروى القلقشندي أن معظم هؤلاء المماليك من أجلاب
القبشاق وهو لفظ يدل على القبيلة الذهبية GoldenHorde، يروى المقرئزي
أنهم اتوا بالاخص من بلاد تركستان . ونستطيع ان نوفق بين الروايتين
في سهولة لان القبيلة الذهبية تملك على جزء من تركستان وهو شمال
خوارزم وأراضي السهوب الشمالية ، ولهذا سماها القلقشندي « مملكة
توران خوارزم والقبشاق » (٢) . واذا سلمنا جدلا بأن هؤلاء المماليك من
أصل تركستاني ، فانهم في الواقع اتوا الى مصر من بلاد القبشاق جنوبي
الفلجا .

وكيفما كان الامر فالراجح ان حسن العلاقة بين بيبرس وبركة خان
سهلت الحصول على أولئك المماليك القفجاق دون غيرهم . غير ان الحصول
على هؤلاء المماليك تتطلب الوصول الى السواحل الشمالية للبحر الاسود
في سهولة ، واستطاع بيبرس بسفاراته وهداياه ان يحصل من الامبراطور
البيزنطي ميخائيل باليولوج على اذن لمروور سفينتين مصريتين مشحوتين
بالمماليك عبر البسفور الى البحر الاسود ذهابا وايابا مرة في السنة (٣) .
ثم ان بلاد القفجاق كانت أصلح البلاد للحصول على أعداد كثيرة من

(١) القلقشندي : صبح الاعشى ج٤ ص ٤٥٨

(٢) القلقشندي : نفس المرجع ج٤ ص ٤٦٩ ، وكذلك

(Poliak : La Caractere Colonial de l'État Momelouk
dans ses rapports avec la Horde D' Or. Revue des Etudes
Islamiques 1935, Cahier III p. 231—233.)

(٣) انظر Heyd : Histoire du Commerce du Levant au
Moyen age, tome II p. 556—557.)

الممالك ، اذ كانت شعوب تلك الجهات بدائية رحل يصيفون بأرض ويشتون بأخرى لقلّة المراعي الدائمة وقسوة المناخ ، ويعانون ضيقا في العيش ونقصا في المواد الغذائية . وكان من الطبيعي أن يبيع بعض الاهالي اولادهم وبناتهم او يستبدلونهم بالغلل لسد جوعهم^(١) . يضاف الى ذلك ان القفجاق كانوا يغيرون على جيرانهم من الشراكسة والروس والمجر واللان، ويأسرون منهم ما استطاعوا للبيع في اسواق النخاسة البيضاء^(٢) . ومن ثم صارت قاعدة مملكتهم مدينة صراي^(٣) Sarai فرضة عظيمة للتجار ورقيق الترك والشراكسة والروس والمجر واللان^(٤) ، وهذا هو بعض السر في كثرة الاجناس التي تكونت منها الطبقة المملوكية في مصر . ومن هذه الاجناس التي كثر فيها عنصر القفجاق ، ملا يبيرس صفوف جيشه حتى بلغت عدته أربعين ألف فارس^(٥) . فيحدثنا المؤرخون في هذا الصدد ان جماعات من مغول القفجاق وفدت مستأمنة الى مصر في عهد يبيرس

(١) القلقشندي : صبح الاعشى ج٤ ص ٤٥٧ - ٤٥٨ ، وكذلك :

(Heyd : Op. cit. II p. 556) .

(٢) راجع (Heyd : Op. cit. II, p. 557.)

(٣) كانت صراي تقع في شمال غرب بحر قزوين . وقد تم بناؤها في عهد بركة خان . وتصفها الروايات العربية بانها مدينة كبيرة ذات أسواق وحمامات ومساجد ، وفيها طوائف مختلفة من الناس مثل الروس والمغول والروم والشركس ، كل طائفة منهم تسكن على حدة . كان التجار الغرباء من اهالي العراق ومصر والشام وغيرها يقيمون في مكان خاص محاط بسور حفظا على أموالهم وبضائعهم . ولما انتشر الاسلام في تلك الجهات ، صارت هذه المدينة مقصد العلماء والادباء امثال قطب الدين الرازي ، وسعد الدين التفتازاني ، وغيرهما . راجع (الرمزي : تليق الاخبار ج١ ص ٤١١ - ٤١٣ ، القلقشندي ج٤ ص ٤٥٧) .

(٤) القلقشندي ج٤ ص ٤٥٧ .

(٥) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٧ ص ١٩٧

وانضمت الى جيشه • وسميت تلك الجماعات بالوافدية والتتر المستأمنة :
وصل منهم أول الامر مائتي فارس سنة ١٢٦٢ م (اواخر سنة ٦٦٠ هـ)
ثم ما يزيد عن الالف وثلاثمائة فارس بعائلاتهم في سنة ١٢٦٣ م هذا خلاف
اعداد أخرى جاءت الى مصر سنة ١٢٦٤ م (١) •

وقد رحب بيبرس بهؤلاء الجند ، وخلق عليهم واکرمهم وانزلهم في
دور بنيت لهم خصيصا بالقرب من اللوق بظاهر مدينة القاهرة وقتذاك ،
ثم أمر كبراءهم ، وانزل باقيهم في جملة بحرته ومماليكه (٢) • وجلب
هؤلاء التتار معهم نظمهم وعاداتهم التي كان لها أثر كبير في النظم المملوكية
بدليل قول المقرئزي : « ثم كثرت الوافدية ايام الملك الظاهر بيبرس ،
فغصت أرض مصر والشام بطوائف المغل وانتشرت عاداتهم وطرائقهم (٣) •
وعلى هذا الاساس تكون جيش المماليك من عدة فئات من الغرباء يقودهم
قائد منهم يعرف بأتابك العسكر • وكلمة أتابك ، كما اسلفنا - معناها
الامير الاب ثم صارت تعنى قائد الجيش على اعتبار أنه ابو العساكر ، اذ

(١) راجع (ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٦٠٦ - ٤٠٧ ،

المقرئزي : السلوك ج١ ص ٤٧٣ - ٤٧٤) وكذلك (Poliak : La Gar-
actere Colonial de l'Etat mamelouk, R. E. I. 1935, Cahier III,
p. 233.)

(٢) المقرئزي : السلوك ج١ ص ٥٠٠ - ٥٠١

(٣) المقرئزي : الخطط ج٢ ص ٢٢١ ويضرب بوليياك
مثلا على ذلك بقوله : « أخذ المماليك المباديء الاساسية الاقطاعية من
الامبراطورية المغولية • ومن ثم صارت قوانينهم الاقطاعية لا يبت فيها
بواسطة القضاة ووفق احكام الشريعة الاسلامية ، وانما بواسطة الحجاب

وعلى أساس احكام جنكيزخان - الياسة - راجع (Poliak: Some Not-
es on the Feudal system of the Mamlouks, J. R. A. S. 1937
p. 97.)

أن هذا المعنى يتفق مع طابع دولة المماليك التي اعتمدت في المقام الاول على العلاقة بين الاستاذ ومماليكه (١) . اما الفئات التي تكون منها الجيش فهي كالآتي :

المماليك السلطانية : وهم عبارة عن مماليك السلاطين السابقين ثم مماليك السلطان القائم الذين يجلبهم لنفسه ، ولهذا عرفوا باسم الاجلاب والجلبان ، ومنهم طائفة الخاصكية . او الاحداث ، وتمتاز عن بقية المماليك السلطانية بانضواء افرادها وهم صغار السن في خدمة السلطان ، فهو الذي يتولى تربيتهم وعنتهم . وكانت المماليك السلطانية اعظم الجنود شأنًا وأشدهم الى السلطان قربا وأوفرهم اقطاعا ، ومنهم تؤمر الامراء (٢) .

جند الحلقة : وهم من محترفي الجندية من اولاد المماليك ، وقد عرفوا أيضا باسم « اولاد الناس » ، فهم على هذا الوضع احرار وليسوا من المماليك . وهم كثرة الجيش وعامته في حالة الحرب ، وأصحاب حرف وصناعات في وقت السلم . ولكل أربعين نفسا مقدم منهم ليس له عليهم حكم الا اذا خرج الجيش الى الحرب ، فهم أشبه باحتياطي الجيش وبمضي الزمن صار معظم جند الحلقة من أهل مصر ، كذلك كان يوجد جند حلقة في الشام ، يؤخذون من أهل الشام ، ويوزعون على نياباتها .

مماليك الامراء : وهم يشبهون المماليك السلطانية غير انهم تابعون مباشرة لامرائهم ومنهم تتكون الوحدات الحربية التي يذهب بها الامراء

(١) عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك ص ١٤٤ .

(٢) القلقشندي : صبح الاعشى ج٤ ص ١٥ .

مع السلطان في حروبه (١) .

وهكذا كان تحصين ببيرس للثغور والعواصم المملوكية باطراف الدولة ، وتنظيمه للجيش وفتاته ، وعنايته بالاسطول والبريد ، من أهم الدعائم اللازمة لاقامة الدولة المملوكية على أسس ثابتة ، والدليل على ذلك أن ببيرس استطاع بفضل ذلك الجيش والاسطول والتحصينات ، أن يقوم بالدور الذي حلاله ان يقوم به ، وهو محاكاة صلاح الدين الايوبي في الجهاد ضد الصليبيين وحلفائهم في الشام وفي النوبة فضلا عن جهاد المغول .

٧ - جهود ببيرس في مكافحة الخطر الصليبي :

اولا : الامارات الصليبية في الشام .

سبقت الاشارة الى أن اقامة الملك لويس التاسع في فلسطين كانت توافق الايام الاولى لقيام دولة المماليك حينما كانت مطالبة الايوبيين بعرش مصر على أشدها والحرب قائمة بينهم وبين المماليك . واستطاع لويس التاسع بدهائه ان يستغل هذا النزاع لصالحه ، وان يصلح في هدوء ما أحدثته هزيمة المنصورة . وبفضل هذه السياسة المرنة تمكن لويس التاسع من اطلاق عدد كبير من أسرى جيشه ، والغاء ما تبقى عليه من أموال القدية فضلا عن حصوله على وعد من السلطان ابيك بتسليمه بيت المقدس اذا ما انضم الى جانبه ضد الايوبيين . ثم جاء تدخل الخليفة العباسي الذي حسم النزاع بين الطرفين المتنازعين مخيبا لآمال الصليبيين المستعمرين .

(١) القلقشندي : صبح الاعشى ج١ ص ١٥ - ١٦ ، المقرئبي : السلوك ج١ ص ١٢٢ ، ص ٢٨١ ، عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك ص ١٥٠ . وكذلك (Demombynes : La Syrie a l'epoque des mamelouks p. XXX.)

واضطر لويس التاسع ان يعود الى بلاده خائب السعى سنة ١٢٥٤ م بعد ان فشل في تغيير الاوضاع السياسية في فلسطين وتدعيم مركز الصليبيين فيها ، وان كان قد استطاع باقامته هناك ان يرفع الروح المعنوية بين الصليبيين في الشام بعد ان انقطعت عنهم سبل الامدادات العسكرية من اوروبا . والفترة التي تلت رحيل لويس التاسع الى ان تولى بيبرس سلطنة مصر والشام (١٢٥٤ - ١٢٦٠ م) كانت فترة هدوء ومسالمة بين الصليبيين والمسلمين بسبب انشغال كل فريق بمشاكله الداخلية التي فصلنا الكلام عنها في الفصول السابقة .

على أن هذا الموقف لم يلبث ان تغير تماما في عهد بيبرس وخلفائه ، اذ نجد ان السياسة المصرية نحو الصليبيين في الشام تتسم بطابع العنف والقسوة . والسبب في ذلك يرجع الى ان الصليبيين أخذوا يتعاونون مع مغول فارس ضد دولة المماليك ، ويعملون كأدلاء ومرشدين لجيوشهم المغيرة على الاراضي الشامية . وقد ساعدتهم على ذلك موقعهم الجغرافي في الشام الذي اتاح لهم معرفة تحركات الجيوش المصرية والشامية واحاطة المغول علما بها مما سهل عليهم احباط خطط المسلمين في كثير من الاحيان . ولم يقتصر الامر على ذلك النحو ، بل نجد أن بعض الامارات الصليبية قد سمحت لعدد من الحاميات المغولية بالنزول في حصونها من باب التعاون العسكري او الدفاع المشترك ضد المسلمين . ولم تلبث هذه الحاميات المغولية أن فرضت ارادتها على الصليبيين في كثير من الاحيان ، وصارت تملئ عليهم ارادة الخان المغولي المقيم في تبريز او مراغة او بغداد .

ومعنا يكن من شيء فان هذه الحركة الماكرة من جانب الصليبيين في الشام ، كانت بلا شك السبب الحقيقي لتلك السياسة العنيفة التي اتبعها بيبرس وخلفاؤه نحو الصليبيين اذ عز عليهم ان يكونوا مراقبين من الفرنج

لحساب المغول ، فصمموا على طردهم من الشام (١) .

بدأت الحرب بين بيبرس والصليبيين على شكل مناوشات محلية ،
ويفهم من كلام المقريري ان بيبرس ذهب بنفسه الى الشام سنة ١٢٦٣ ،
وكانت حركاته وقتئذ تدل على أنه كان يتفقد قواته ويوزعها توزيعا
استراتيجيا خاصا ، وعندما سارعت اليه وفود الامارات الصليبية تطلب
منه السلام والمهادنة ، قابلهما بمنتهى الجفوة مما يدل على تصميمه على
القتال (٢) .

وفي اوائل سنة ١٢٦٥ م دخل بيبرس في عمليات حربية واسعة النطاق
ضد الامارات الصليبية الساحلية ، فاستولى على مدينة قيسارية ثم على
مدينة ارسوف في جنوبها . وفي السنة التالية ١٢٦٦ م هاجم بيبرس قاعدة
استراتيجية صليبية خطيرة في الشام وهي قلعة صغد التي كانت قاعدة
لفرسان الداوية وبعد قتال عنيف تمكن بيبرس من الاستيلاء عليها . ويقال
ان بيبرس استولى على صغد بعد تأمينها ثم نكث بوعده وأمر بقتل حمايتها
لاسباب غامضة ، مما جعل المصادرة الصليبية تتهمه بالخيانة والغدر . ولا
مجال للكلام هنا عن الخيانة والغدر مع أناس مثل الصليبيين كان الغدر
هو شيمتهم طوال تاريخهم الطويل وحسبنا أن تصفح أخبارهم لنجد
أمثلة مشابهة كثيرة في هذا المجال .

(١) راجع (مفضل بن الى الفضائل : كتاب النهج السيد ص ١٩٢
- ١٩٥ ، المقريري : السلوك ج١ ص ٥٨٤ ، ٦٠٠) وكذلك

(D' Ohsson : Histoire des Mongols, III p. 496, 543.)

(٢) قال بيبرس لرسل الصليبيين : « ردوا ما أخذتموه من البلاد
وفكوا أسرى المسلمين جميعهم فاني لا أقبل غير ذلك » ثم طردهم من
مجلسه . راجع (المقريري : السلوك ج١ ص ٤٨٥ - ٤٨٦ ، سعيد عبد
الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ١١٤) .

وكيفما كان الامر ، فان سقوط قلعة صنفد في يد المسلمين قد أصاب الصليبيين بضربة قاسية ، وحطم معنوياتهم الى حد كبير بدليل أن بعض القوى الصليبية سارعت الى عقد هدنة مع السلطان بيبرس على أساس مبدأ المناصفة أو المشاركة معه في غلات بلادهم ومنتجاتها (١) ولعل من أطرفها تلك الهدنة التي أبرمت بين السلطان بيبرس وبين ملكة بيروت ازابيلا Isabella بنت الملك جون الثاني ابلين John II Ibelin ، التي تطلق عليها المراجع العربية اسم الدبونة ، وهو تعريب لاسم البيت الحاكم في بيروت D'Ibelin (٢) .

وقد خلفت ازابيلا أباهما بعد وفاته سنة ١٢٦٤ م على بيروت وجبالها (لبنان) باعتبارها ابنته الكبرى . وكانت هذه الملكة قد تزوجت وهي طفلة من الملك الطفل هيو الثاني ملك قبرص الذي مات قبل أن يعقد عليها . وحاول خليفته هيو الثالث الوصي على قبرص ان يستغلها كوريثة لعرش قبرص لتنفيذ مشاريعه الصليبية في الشرق ولكنه لم ينجح (٣) . وذلك لان الملكة ازابيلا عقدت هدنة مع السلطان بيبرس سنة ٦٦٧ هـ (١٢٦٨ م) مدتها عشر سنوات . وقد أورد القلقشندي نصوص هذه الهدنة ، وهي في مجموعها مفيدة لانها تبين لنا حدود مملكة بيروت ونواحيها فضلا عن أنها تدل على ما كان للسلطان بيبرس من نفوذ في تلك

(١) راجع امثلة على ذلك في (القلقشندي : صبح الاعشى ج١ ص ١٤

ص ٤٢ - ٥١ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٧ ص ١٥٠) .

(٢) تاريخ ابن الفرات ج٧ ص ٣٥ تحقيق قسطنطين زريق .

(٣) أنظر (Steven Runciman: A History of the Crusades Vol

3 p . 326,342 - 343)

& Grousset : Hist, des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem, III p. 569)

البلاد (١) . ويضيف ابن الفرات في تاريخه ان هذه الملكة كانت كلما عزمت على السفر ومغادرة بيروت ، ذهبت الى السلطان بيبرس بنفسها واستودعته بلادها الى ان تعود (٢) .

وفي سنة ١٢٦٨ م (٦٦٦ هـ) استولى بيبرس على مدينة يافسا في اقصى الجنوب ، ثم وجه ضربة حاسمة في نفس السنة الى أهم امارة صليبية وهي انطاكية في اقصى الشمال . فيروى المؤرخون انه هاجمها بثلاث فرق : احداها اتجهت الى ميناء السويدية لتقطع الصلة بين انطاكية والبحر ، والثانية سدت الممرات بين قليقية والشام لمنع وصول امدادات من أرمينية الصغرى ، والثالثة ، وهي القوة الرئيسية بقيادة بيبرس ،

(١) راجع نصوص هذه الهدنة في الفلقشندي : صبح الاعشى ج١ ص ٣٩ وما بعدها ، وقد أوردناها كضميمة في آخر هذا الكتاب نظرا لاهميتها .

(٢) تاريخ ابن الفرات ج٧ ص ٣٥ . ونضيف على سبيل الاستطراد ان هذه الملكة تزوجت سنة ٦٧٠ هـ (١٢٧٢ م) رجلا انجليزيا يدعى هامو الغريب Hamo L'estrangle كان من اتباع الامير الانجليزي ادوارد (ادوارد الاول ملك انجلترا فيما بعد) ووهبته نفسها ومملكتها . على ان هذا الزوج لم يلبث ان مات في العام التالي ، ويبدو أنه كان لا يثق في نوايا هيو الثالث ملك قبرص فأوصى قبيل وفاته بوضع زوجته ومملكة بيروت تحت حماية السلطان بيبرس . ولما علم هيو الثالث بذلك اقدم على محاولة جريئة وهي اختطاف الملكة ازايلا كي يزوجها في قبرص من الشخص الذي يختاره لها . ولكن السلطان بيبرس احتج على هذا العمل وهدد بضرورة تنفيذ وصية هامو Hamo واعادة الملكة ازايلا الى بيروت في الحال . واضطر الملك هيو الثالث ان يعيد ازايلا الى بيروت حيث اتخذت لنفسها حرسا من المماليك . وعاشت هذه الملكة بعد وفاة بيبرس ، وتزوجت مرتين ثم ماتت سنة ١٢٨٢ م تاركة حكم بيروت الى اختها اشيفا Eschiva . واستمرت بيروت في حكم اسرة Ibelini الى ان سقطت نهائيا في يد السلطان الاشرف خليل ابن قلاوون عقب سقوط عكا سنة ١٢٩١ م .

(Runciman : op.cit. III p. 342 - 343)

هاجمت المدينة نفسها واستولت عليها في مايو سنة ١٢٦٨ م (رمضان سنة ٦٦٦ هـ) . وقد بلغ من كثرة الغنائم التي غنمها المسلمون من انطاكية « أن قسمت النقود بالطاسات ! » كما بلغ من كثرة الاسرى انه « لم يبق غلام الا وله وغلام . . . وبيع الصغير باثنى عشر درهما ، والجارية بخسة دراهم ! » (١) .

كان سقوط امارة انطاكية في الواقع كارثة كبرى على القوى الصليبية لانها كانت بحكم موقعها الجغرافي سندا قويا للدولة الصليبية منذ اوائل الحروب الصليبية . وتشير المراجع المعاصرة الى الرسالة التي كتبها بيبرس الى اميرها بوهيند السادس الذي كان مقيما وقتئذ في امارته الثانية طرابلس في جنوب انطاكية . وكانت هذه الرسالة مليئة بعبارات السخرية والتهكم ، وليس الذي يعنينا هنا هو السخرية او التهكم ، وانما استنتاج ما وصلت اليه احوال الصليبيين من ضعف حتى استطاع بيبرس ان يوجه أمثال تلك العبارات الى صاحب اكبر امارة صليبية في الشام في ذلك الوقت (٢) . ثم أخذ بيبرس بعد ذلك في مهاجمة امارة طرابلس سنة ١٢٧٠ م (٦٦٩ هـ) فاستولى على المنافذ المؤدية الى المدينة والحصون المحيطة بها ومن أهمها حصن الاكراد وحصن عكار ، فأصبح في مقدوره بذلك حصار مدينة طرابلس نفسها والاستيلاء عليها ، ولكن الانباء الواردة بخروج الحملة الصليبية الثامنة من فرنسا بقيادة لويس التاسع انقذت طرابلس من هذا المصير (٣) . ذلك لان السلطان بيبرس عاد أدراجه مسرعا الى مصر ،

(١) المقريري : السلوك ج١ ص ٥٦٨ سعيد عاشور : المرجع السابق ج٢ ص ١١٤٩ وكذلك (Runciman : A history of the Crusades, Vol. III. p. 324—325.)

(٢) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٧ ص ١٤٧

(٣) السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي ص ٦٩ ، ٢ ، انور زقلمة : المماليك في مصر ص ٣٧ .

اذ كان يخشى أن يعيد ملك فرنسا قصة المنصورة مرة أخرى ، ولذا اهتم بتتبع اخبار تلك الحملة ، واعلن حالة التعبئة والاستعداد في الموالي والثغور المصرية •

ويبدو ان ملك فرنسا كان يريد فعلا ان يكون اتجاه هذه الحملة الصليبية نحو المعقل الاسلامية في الشرق العربي ، لولا ان اخاه شارل دي انجو الذي كان ملكا على جزيرة صقلية ، اراد استخدام تلك الحملة في تدعيم ملكه ، وذلك بالاستيلاء على مملكة تونس التي كانت تحت حكم الحفصيين في ذلك الوقت • والمراجع التونسية ترجع اسباب تلك الحملة الى عامل الانتقام الشخصي ، فيقول ابو القاسم الرعيني القيرواني المعروف بابن ابي دينار : « وسبب نزول الفرنسيين تونس ، قيل انه ذكر اسمه يوما بحضرة الخليفة المستنصر بالله الحفصي ، فهضم من جانبه ، وقال هو الذي أسره هؤلاء وأطلقوه (يشير الى المماليك) ، فبلغت هذه المقالة الفرنسيين (أي لويس التاسع) فحقد لها وعزم على غزو تونس » (١) • والواقع ان هذه الرواية - ان صحت - لا تعدو أن تكون سببا مباشرا فقط ، اما السبب الحقيقي فيرجع الى أهية موقع تونس بالنسبة لصقلية التي كان يحكمها شارل اخو الملك لويس كما هو معروف ، ويكفي ان نبه الاذهان في هذا الصدد الى ان غزو المسلمين لصقلية قد تم من تونس في عهد الاغالبة وعلى يد قاضي القيروان اسد بن الفرات سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) • وكل هذا يفسر مدى خطورة موقع تونس بالنسبة لصقلية • ولهذا نجح شارل في اقناع اخيه لويس بتحويل تلك الحملة الى تونس •

ولم تكد مراكب الفرنسيين تصل الى الشواطىء التونسية حتى اصيب الملك لويس التاسع بحمى شديدة مات على أثرها ، وتولى اخوه

(١) راجع (ابن ابي دينار : المونس في اخبار افريقية وتونس ص ١٢٩

شارل قيادة الحملة ، فأخذ يسيرها وفق اغراضه حتى ازال عنها صفتها الصليبية . و انتهى امر هذه الحملة باجراء مفاوضات مع الخليفة المستنصر الحفصي الذي تعهد بدفع مبلغ من المال مقابل انسحاب الفرنسيين . وهكذا عادت الحملة تجر أذيال الخيبة بتلك النتيجة المادية الضعيفة التي اغضبت معظم الذين اشتركوا فيها (١) .

أما السلطان بيبرس ، فانه بعد أن اطمأن على نتائج تلك الحملة الصليبية ، غادر مصر وعاد الى مقاتلة الصليبيين في طرابلس من جديد سنة ١٢٧١ م ، فأرسل اليه اميرها بوهمند السادس يطلب الصلح والمسألة ، هذا في الوقت الذي وصلت فيه حملة صليبية انجليزية بقيادة الامير ادوارد الى عكا ، فاضطر السلطان بيبرس ان يجيب صاحب طرابلس الى طلبه ويعقد معه صلحا لمدة عشر سنوات (٢) . ومن الطريف ما يحكى في هذا الصدد من أنه في اثناء المفاوضات التي دارت بين رسل بيبرس وبوهمند السادس ، كان بيبرس نفسه مندسا بين أعضاء الوفد الذي يمثل بلاده ،

(١) يقول في ذلك احد الشعراء التونسيين :

يا فرنسيس هذه اخت مصر فتها ليا اليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبر وطواشيك منكر ونكير
والمقصود بالطواشي هنا صبيح المعظمى - نسبة الى المعظم تورانشاه -
الذي تكفل بالملك لويس التاسع في دار ابن لقمان بمدينة المنصورة . راجع :
(جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على مصر ص ٦٠) .

(٢) هذا الامير ادوارد هو ادوارد الاول ملك انجلترا فيما بعد ، وكان قد اتى الى الشام على رأس قوة صغيرة من الف محارب على أمل التعاون مع خان مغول فارس ابغا بن هولوكو على غزو مصر والشام . ولكن هذا المشروع لم يتحقق نتيجة لانشغال ابغا بمحاربة مغول التركستان . ولم يلبث ادوارد نفسه ان طعنه احد الحشيشية بخنجره ولكن الطعنة لم تكن قاتلة ، فاضطر الى العودة الى بلاده بعد ان عقد هدنة مع بيبرس مدتها عشر سنوات (سعيد عاشور : نفس المرجع ص ١١٥٩) .

ومتنكرا في زي خادم كي تتاح له حرية التنقل بين حصون طرابلس ومعرفة مواضع القوة والضعف فيها تمهيدا لفتحها فيما بعد .
هذه الجرأة التي اتصف بها بيبرس جعلته يقوم بمحاولة أخرى جريئة قبيل هذا الوقت بقليل حينما أرسل اسطولا لغزو جزيرة قبرص سنة ١٢٧٠ م وكان يحكم هذه الجزيرة الملك هيو الثالث لوزجانان الذي اشتهر باطماعه الصليبية في الشام ، وبعداوته الشديدة لدولة المماليك . غير أن معظم هذا الاسطول تحطم للأسف عند شاطئ الجزيرة على أثر عاصفة شديدة هبت عليه (١) .

وعلى الرغم من أن ملك قبرص حاول ان يجعل من فشل هذه الحملة البحرية نصرا صليبيا كبيرا ، الا انه يبدو بوضوح أن هذه الهزيمة لم تؤثر في قوة بيبرس تجاه الصليبيين كما انها لم ترفع من روح الصليبيين المعنوية في الشام بدليل أنهم أصروا على مفاوضة بيبرس ومصالحته .
وأخيرا تم الصلح بين بيبرس والامارات الصليبية بوجه عام ١٢٧١ م . وكانت شروط الصلح تدل على أن كلا الطرفين كان في حاجة الى هدنة ، اذ اشترط كل منهما على أن موت احد الطرفين المتعاقدين ينقض ما أبرم من صلح بينهما . واستمر الوضع على هذا الحال الى وفاة بيبرس سنة ١٢٧٧ م .

ثانيا : أرمينية الصغرى .

سميت بأرمينية الصغرى للتمييز بينها وبين أرمينية القديمة . وكانت أرمينية قديما تقع في المنطقة الجبلية الممتدة جنوب القوقاز والبحر الاسود أي بين بلاد فارس والعراق شرقا وبلاد الروم غربا . وقد أدر عليها هذا الموقع بأرباح طائلة نتيجة لمرور طريق التجارة بين الشرق والغرب بأراضيها . غير أن هذا الطريق لم يلبث ان تحول نحو الجنوب في القرن العاشر الميلادي

(١) المقريزي : السلوك ج١ ص ٥٩٤ .

وصار يمر بحلب وانطاكية في شمال الشام نظرا لصعوبة الطريق القديم
الذي كان يمر بجبال أرمينيا الى البحر الاسود •

ولا شك أن هذا التحول الجديد قد أفقد أرمينية أهميتها الاقتصادية
فأخذت تضعف تدريجيا الى أن استولت عليها الدولة البيزنطية في القرن
العادي عشر الميلادي •

غير أن الارمن وهم عنصر اقتصادي مكافح لم يستسلموا لهذا
الوضع ، بل غادروا بلادهم وانتقلوا جنوبا مع انتقال الطرق التجارية من
ناحية ، وتحت ضغط هجرات السلاجقة والمغول من ناحية اخرى ،
واستقروا في جنوب الاناضول وقلقية اي في المنطقة الممتدة من الرها شرقا
الى أطنة غربا • وهناك في جنوب آسيا الصغرى اسسوا مملكة أرمينية
الصغرى المعروفة زمن الحروب الصليبية والمماليك ، واتخذوا مدينة
سيس عاصمة لهم (١) •

ولقد لعبت هذه المملكة السيجية دورا خطيرا ضد دولة المماليك في
مصر والشام ، اذ انها لم تكتف بمساعدة الامارات الصليبية في الشام ،
بل تحالفت مع مغول فارس وأخذت تحرض هولاكو وابنه أبغا او أباقا
على غزو الشام ومصر ، هذا الى جانب الحصار الاقتصادي الذي فرضته
على دولة المماليك بمنع تصدير الخشب والحديد من آسيا الصغرى الى
مصر (٢) •

واضطر السلطان بيبرس أن يتبع مع مملكة ارمينية الصغرى نفس
سياسة العنف والقسوة التي اتبعها مع الامارات الصليبية في الشام • فأرسل
اليها سنة ١٢٦٦ م حملة تأديبية بقيادة الامير قلاوون ، أغارت على مدنها

(١) أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٣٣٤

(٢) سعيد عاشور : المرجع السابق ج٢ ص ١١٤٧ وكذلك

(Mes Latrie : Hist. Chypre I p. 412.)

الرئيسية مثل سيس وأطنه وطرسوس والمصيصة ، وعانت فيها فساد، وتخريبا مدة عشرين يوما ثم عادت بغنائم كثيرة ، وعدد كبير من الاسرى من بينهم ابن هيثوم الاول ملك ارمينية الصغرى^(١) . واضطر الملك هيثوم لكي يطلق سراح ولده ان يتنازل للماليك عن عدة مواقع استراتيجية هامة تتحكم في طرق المواصلات التي تربط ارمينية بخلفائها المغول في الجزيرة شمالي العراق من ناحية ، وبالصليبيين في انطاكية من ناحية اخرى . كذلك تعهد هذا الملك بدفع جزية سنوية لسلطان مصر والشام في مقابل مسالته . وظلت ارمينيا الصغرى بعد ذلك محدودة القوى ضعيفة التأثير في مجرى أحداث الشرق العربي الى ان قامت بحركة عصيان اخرى في عهد السلطان الناصر محمد ابن قلاوون (ق ١٤ م) انتهت بخضوعها واعترافها بسيادة سلطان مصر والشام^(٢) .

ثالثا : مملكة النوبة :

كانت النوبة مملكة مسيحية في اعالي النيل تدين بالطاعة لسلطان مصر ، وتؤدي له الجزية السنوية المعروفة بالقط^(٣) منذ الاتفاقية التي عقدها معها القائد العربي عبدالله بن ابي سرح سنة ٦٥٠ م . غير أن هذه

(١) يقول احد الشعراء في تحطيم مدينة سيس قاعدة ارمينيا الصغرى:
يا ملك الارض الذي عزمه كم عالم للكفر منسه خرب
قلبت سيس فوقها تحتها والناس قالوا سيس لا تنقلب
(تايخ ابن الفرات ج٧ ص ٣١) .

(٢) المقريري : السلوك ج١ ص ٥٥٢ ، سعيد عاشور : المرجع السابق ج٢ ص ١١٤٨ . ويلاحظ أن ارمينيا في الوقت الحاضر مقسمة الى منطقتين : منطقة روسية باسم جمهورية ارمينيا الاشتراكية ، ومنطقة تركية من عدة ولايات أهمها ولاية أرضروم .

(٣) هذه الكلمة بقط اما مأخوذة من الكلمة المصرية القديمة باق Bak بمعنى عبد ، او من الكلمة اللاتينية Pactum ومعناها عقد او اتفاق ، او انها عربية الاصل بمعنى قطعة او فرقة . راجع (السيدة الكاشف : مصر في فجر الاسلام ص ١٥) .

التبعية كانت اسمية في غالب الاحيان ، اذ ان هذه الدولة كانت كثيرا ما تعجنح الى العصيان وعدم دفع الجزية ، وتغير على الاراضي المصرية الجنوبية . وقد اهتمت السياسة المصرية بوضع هذه المملكة المسيحية ابان الحروب الصليبية بصفة خاصة ، عندما صارت قوافل الحجاج والتجار تتجه جنوبا عن طريق النيل الى مدينة قوص ، ومنها الى عيذاب وجدة في البحر الاحمر بدلا من طريق السويس - العقبة في سيناء ، الذي صار محفوظا بالمخاطر بسبب الحركات الصليبية على سواحل الشام وفلسطين وقيام الامارات الصليبية (١) .

ويبدو أن صلاح الدين الايوبي قد خشي من أن تكون هناك صلة بين غارات النوبيين على اسوان وبلاد الصعيد ، وبين غارات الصليبيين على سواحل بحر القلزم (الاحمر) حتى بلغت عيذاب وتوغلت الى قوص (٢) . لهذا ارسل صلاح الدين أخاه تورانشاه على رأس حملة تأديبية توغلت في بلاد النوبة حتى دنقلة ثم استقر قسم منها في قلعة ابريم (٣) لحماية قوافل الحجاج والتجارة في هذه الاطراف المصرية الجنوبية .

وعند قيام دولة المماليك تكررت اعتداءات النوبيين على الاراضي المصرية ، وانتهاز ملك النوبة المدعو داود فرصة انشغال الظاهر بيبرس بحروبه ضد المغول والصليبيين ومملكة ارمينية الصغرى ، وهاجم ثمر

(١) راجع (مصطفى مسعد : الاسلام والنوبة في العصور الوسطى

ص ١٤٢)

(٢) المقريري : السلوك ج١ ص ٧٩ .

(٣) ابريم بلدة قديمة على الضفة الشرقية للنيل في منطقة النوبة المصرية التي عرفت في العصر الروماني باسم Nubatai وفي المراجع القديمة باسم مريس .

انظر (مصطفى مسعد : المرجع السابق ص ٢٧ ، ٩٣ ، ٩٦)

(٤) ابو شامة : كتاب الروضتين في اخبار الدولتين ج١ ق ٢ ص

٥٣٢ ، الباز العريني : مصر في عصر الايوبيين ص ٣٩) .

أسوان سنة ١٢٧٢ م • ويبدو أن داود قام بهذه الأعمال الاستفزازية مدفوعا بروح صليبية وكرامية دينية ، بدليل أنه هاجم أيضا ميناء عذاب لا يقصد تهديد التجارة المملوكية في البحر الاحمر فحسب ، بل لقطع طريق الحج في هذه المنطقة (١) •

وقد رد بيبرس على ذلك برسالة حملتين متتاليتين الى بلاد النوبة في سنتي ١٢٧٣ م ، ١٢٧٥ ، بقيادة الاميرين آقسنقر الفارقاني ، وعزالدين الافرم • وشاركت البحرية النيلية في هذه الحملات بنقل الجنود والآلات والاقوات حتى مدينة أسوان • وتمكن الامير عزالدين الافرم من اختراق الجنادل بمراكبه قرب الشلال الثاني ، والاتصارع على الملك داود وأسره واقامة عمه شكندة الذي تعهد بدفع الجزية في كل عام • هذا وكان السلطان بيبرس قد احتل مدينة سواكن المنفذ البحري لممالك النوبة على البحر الاحمر سنة ١٢٦٥ م مما ادى الى تهديد المعامل المسيحية في بلاد النوبة فضلا عن احكام السيطرة المصرية على البحر الاحمر وتجارته • وقد أنشأ السلطان بيبرس عقب هذه الانتصارات ديوانا خاصا للنوبة في القاهرة تحت اشراف الوزير بهاء الدين بن حنا لمراقبة وصول الجزية من النوبة بانتظام (٢) •

ويلاحظ ان الحملات المستمرة على بلاد النوبة قد شجعت بعض القبائل العربية على مصاحبته بغية الاستقرار الى جوار النوبيين والاختلاط بهم وخاصة في منطقة شمال النوبة أو أرض المريس • ونذكر على سبيل المثال عرب ربيعة الذين تزوجوا بنات رؤساء النوبيين ،

(١) سعيد عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ٧٨ •
(٢) تاريخ ابن الفرات ج٧ ص ٤٥-٥١ المقريري : السلوك ج١ ص ٦٢١ - ٦٢٢ ، مصطفى مسعد : المرجع السابق ص ١٤٨ ، حسن احمد محمود : الاسلام والثقافة العربية في افريقيا ص ٢٨٠ •

فاصبحت لهم مصالح مادية لا تتفاهم بنظام الوراثة المعروف عند النوبيين وهو توريث ابن البنت او ابن الاخت (١) .

وهكذا اخذت هذه الملكة المسيحية تصطبغ بالصبغة العربية الاسلامية وتفقد طابعها المسيحي تدريجيا بحيث لم يكد يمر على وفاة بيبرس نصف قرن تقريبا (ق ١٤ م) حتى كان النوبيون قد اعتنقوا الاسلام ، وانتقل الملك فيهم الى بنى كنز ، فسقطت عنهم الجزية لان بنى كنز عرب مسلمون من ربيعة وهم الكنوز الحاليون .

٨ - حروب بيبرس ضد المغول :

كانت المشكلة الكبرى التي واجهت السلطان بيبرس منذ بداية حكمه هي مواجهة مغول فارس ، ذلك لان خطرهم كان واضحا تماما خصوصا بعد واقعة عين جالوت التي تعد بداية لا نهاية لعلاقات دولة ايلخانات فارس بالمماليك . ولعل بيبرس لم ينس الكلمات التي تفوه بها كتبغانوين قائد المغول في عين جالوت قبيل مصرعه على يد قطز وهي : « انى ان هلكت على يدك ، فانى أعلم ان الله لا أنت هو الذي أراد قتلى . فلا تنخدع بهذا النصر المؤقت ، لانه لا يكاد يصل الى هولاكوخان خير موتى ، حتى يغلي غضبه كالبحر المضطرب فتطأ أرجل الخيل المغولية أرض البلاد ابتداء من أذربيجان الى أبواب مصر » (٢) .

(١) مصطفى محمد مسعد : الاسلام والنوبة في العصور الوسطى ص ١٣٤ ، تاريخ ابن الفرات ج٧ ص ٥١

(٢) اصل هذه التسمية يرجع الى ايام الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله حينما استعان بأمير ربيعة ابى المكارم هبة الله في القبض على الثائر ابى ركوة الذي فر بعد هزيمته الى جنوب مصر . ونجح ابو المكارم في القبض عليه سنة ١٠٠٦ م فكافاه الخليفة الحاكم بلقب كنز الدولة وتوارث ابناؤه هذا اللقب وعرف بنو ربيعة ببنى كنز . انظر (مصطفى مسعد : نفس المرجع ص ١٣٥) .

(١) راجع (فؤاد عبد المعطى الصياد : مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمداني ص ٥٥) .

فمثل هذه الكلمات الجريئة القوية تصور مدى الخطر الذي كان ينتظر دولة المماليك من هولالكو بعد أن هزم جيشه وقتل قائده وصهره كتبغا . ثم ازداد هذا الموقف خطورة عندما ارتبط الخطر المغولي بخطر الصليبيين الذين حاولوا استئالة المغول ومحالفتهم طمعا في نشر المسيحية بينهم والاستعانة بهم في غزو مصر والشام .

ولمجابهة هذا الموقف تحالف بيبرس مع مغول القفجاق وتزوج ابنة زعيمهم بركة خان الذي اعتنق الاسلام وصار حربا على بني جنسه مغول فارس . ويظهر ذلك بوضوح في الرسالة التي بعث بها الى السلطان بيبرس سنة ١٢٦٣ يقول فيها : « فليعلم السلطان اني حاربت هولالكو الذي من لحبي ودمي لاعلاء كلمة الله العليا تعصبا لدين الاسلام » (١) .

على أن بيبرس لم يعتمد فقط على هذا التحالف ، بل أخذ يحصن أطراف دولته المواجهة لدولة مغول فارس على نهر الفرات ، لا سيما قلعة البيرة التي زودها بمعدات تكفيها لمقاومة الحصار مدة عشر سنوات كي تظل شوكة في جنب المغول في هذه الجبهة الشرقية . كذلك عمل على افساد الطرق والوديان المؤدية الى الشام كي لا يجد المغول أثناء زحفهم ما يحتاجون اليه من أقوات أو أعشاب لدوابهم (٢) .

وفي عام سنة ١٢٦٥ م (٦٦٣ هـ) مات هولالكو خان ، غير أن وفاة الاشخاص في دولة فتية مثل الدولة المغولية ، لم يؤثر مطلقا في عزم التنازل على تحقيق ما بدأه هولالكو من التقدم نحو غزو دولة المماليك في مصر والشام ، بل ان الخان الجديد لدولة ايلخانات فارس واسمه اباقا او أبغا

(١) العيني : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (الجزء الخاص بحوادث ٦٥٦ - ٦٧٣ هـ) ص ٤٩٤ ، سعيد عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ٤٠ .

(٢) راجع الجزء الخاص بتحسين الثغور والاطراف من هذا الباب .

(١٢٦٥ - ١٢٨٢ م = ٦٦٣ - ٦٨٠ هـ) زاد على سياسة أبيه هولوكو بأن اهتم بمسألة الحلف مع الصليبيين ، فكان يعطف على المسيحيين ويتبادل السفارات والهدايا مع البابوات وملوك أوروبا . وكان الهدف المشترك من تلك المفاوضات هو تنظيم حملة مشتركة للقضاء على دولة المماليك والاستيلاء على بيت المقدس . وقد ظهر أثر هذا التحالف واضحا عندما انتهز اباقا خان فرصة انشغال بيبرس بمحاربة الصليبيين للاغارة على الحدود الاسلامية . مثال ذلك ما حدث سنة ١٢٦٦ حينما اغارت الجيوش المغولية على مدينة الرحبة على الحدود الفراتية في الوقت الذي كانت فيه جيوش بيبرس تهاجم مدينة صند الصليبية .

ولكن على الرغم من هذا الجو العدائي ، فانه يبدو أن اباقا خان حاول أن يجرب الصلح مع بيبرس على شروط تلائم المغول فقط ، أو بمعنى آخر حاول ان يستخدم الاساليب الدبلوماسية في بسط سيطرته على دولة المماليك فأرسل الى الظاهر بيبرس رسالة سنة ١٢٦٨ م يعرض عليه الصلح ويطلب منه الخضوع والرضوخ ، مثل قوله : « فأنت لو سعدت السماء أو هبطت الى الارض ما تخلصت منا ، فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحا » (١) . غير أن هذه اللهجة المغولية الآمرة في طلب الصلح لم تعجب بيبرس فرد على الرسول المغولي بقوله : « اعلم اني وراءه بالمطالبة ، ولا أزال اترزع من يده جميع البلاد التي استحوذ عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الارض » (٢) .

وفي سنة ١٢٧٢ م توجه بيبرس لملاقاة التتر في أرضهم ، فحمل معه عدة مراكب مفصلة اجزاء على ظهور الجمال ، وأنزلها في نهر الفرات

(١) المقرئزي : السلوك ج١ ص ٥٧٤

(٢) العينى : نفس المرجع ص ٥٤٩ ، سعيد عاشور : نفس المرجع

لتعبر بها جيوشه ، واستطاع بيبرس وجنوده عبور النهر والانتصار على الجيوش المغولية ومطاردة فلولها في الاراضي العراقية سنة ١٢٧٣ م .
ويبدو ان نجاح بيبرس في هذه الحملة ممكنه من جذب عدد من كبار رجال الدولة المغولية الى جانبه ، اذ يروى مؤرخ المغول رشيد الدين أن أباقا خان نكب أسرة الجوينيين الذين كانوا يحكمون العراق في عهده بتهمة الاتصال بملك مصر الظاهر بيبرس ، والاتفاق معه على تسليم العراق له ، ومن بين هؤلاء المؤرخ عطا مذك الجويني حاكم العراق ، واخوه الخواجه شمس الدين محمد وزيره ، وابناؤهما . وكلهم أهل فضل وأدب ، وأرباب جود وكرم ، وكانت مجالسهم محط رحال الادباء والكتاب والشعراء ومناط آمالهم . بذلوا كل ما في وسعهم لتعمير ما خربه المغول ، ولم يتأخروا عن تنفيذ كل ما هو نافع وصالح (١) .

هذه الحادثة التي تذكرنا بنكبة البرامكة أيام هارون الرشيد ، تدل بوضوح على أن بيبرس استطاع أن ينتصر على اعدائه في هذه الجبهة، وأن يؤمن بذلك حدوده الشرقية من الخطر المغولي .

على أن الصراع بين دولتي المغول والمماليك لم يقف عند هذا الحد ، اذ سرعان ما انتقل الى ميدان آخر وهو بلاد آسيا الصغرى في الشمال . والسبب في هذا التحول هو أن بيبرس بعد أن أمن حدوده الشرقية ، أراد تأمين حدوده الشمالية المتاخمة لبلاد سلاجقة الروم في آسيا الصغرى . وكانت هذه البلاد تابعة للمغول منذ أن انجاز ملوكها الى هولاكو ، وكانت مقاليد الحكم فيها بيد الوزير معين الدين سليمان البرواناه ، والبرواناه لفظ فارسي معناه الحاجب .

وكان هذا البرواناه يعمل الى جانب أصحاب السيادة في البلاد وهم

(١) فؤاد عبد المعطى الصياد : مؤرخ المغول رشيد الدين ص ٥٨-٥٩

المغول ، فلما تغلب بيبرس على المغول ، مال البرواناه الى جانب المنتصر وأخذ يرأسل بيبرس معلنا انضمامه اليه ، فتقدم بيبرس بجيوشه الى آسيا الصغرى ، وانتصر على الجيوش المغولية انتصارا ساحقا عند بلدة ابلستين أو ابلستان^(١) Abulustayn سنة ١٢٧٧ م (٦٧٥ هـ) ، اذ فقد من المغول في تلك المعركة ما يقرب من ٧٠٠٠ نفس . ثم دخل بيبرس مدينة قيصرية عاصمة سلاجقة الروم حيث نزل بدار السلطنة وجلس على عرش سلاجقة الروم وخطب له على المنابر واستقبله الاهالي استقبالا رائعا ، ثم عاد بيبرس الى الشام^(٢) .

ولما علم اباقاخان بما حل بجيشه في الاناضول ، سارع الى ميدان المعركة في ابلستين ، ويقال انه بكى عندما شاهد أشلاء القتلى من جنوده ، ثم صب جام غضبه على أهالي البلاد فقتل منهم عددا كبيرا لترحيبهم بسلطان مصر^(٣) ، كما أمر بقتل البرواناه أيضا بعد أن قام نساء القتلى من المغول بثورة كبيرة مطالبين بدمه لانه كان السبب في هذه الكارثة^(٤) .

ويأخذ بعض المؤرخين على بيبرس أنه لم يعد الى بلاد سلاجقة الروم لحمايتها وطرد المغول منها بحكم انها صارت تابعة لدولة المماليك

(١) تقع ابلستين في شرق مدينة قيصرية .

(٢) يقال في هذا الصدد ان أول ما فتحه بيبرس قيسارية الشام وأخر ما فتحه قيسارية الروم (تاريخ ابن الفرات ج٧ ص ٨٤) هذا وقد اورد القلقشندي نص "الرسالة الرسمية التي من انشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر الى الوزير بهاء الدين ابن حنا يصف فيها فتح قيسارية الروم من ايدي التتار واستيلاء بيبرس على ملكها وجلوسه على تخت بنى سلجوق . (صبح الاعشى ج١٤ ص ١٣٩ - ١٦٥) .

(٣) فؤاد الصياد : المرجع السابق ص ٥٩ وكذلك

(Browne : A Literary Hist of Persia Vol. III p. 19) .

(٤) تاريخ ابن الفرات ج٧ ص ٨٤ - ٨٥ نشر قسطنطين زريق .

رسمياً • ولكن ربما كان السبب في ذلك أن بيبرس في ذلك الوقت تولاه التعب أو المرض بدليل انه مات في نفس تلك السنة (١) بعد مقتل البرواناه بوقت قصير سنة ١٢٧٧ م (٦٧٦ هـ) •

وهكذا تنتهي حياة السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري الصالحي الذي تصفه المراجع بأنه كان طويل القامة ، أسمر اللون ، أزرق العينين ، جهوري الصوت ، شجاعا بطلاهما ، عسوقا عجولا ، في عينه أثر بياض بقدر خرم ابره ، وكان هذا من اسباب عدم الاقبال على شرائه • ثم اشتراه الامير أيديكين البندقداري فبقي في خدمته الى أن أخذه منه الملك الصالح نجم الدين ايوب •

كذلك يؤثر عن السلطان بيبرس انه كان خفيف الركاب طول أيامه راكبا على الهجن وخيول البريد دايرا على الممالك والقلاع حتى انه كان يلعب الكرة (البولو) في الجمعة يومين ، يوم بمصر ويوم بدمشق • وفي ذلك يقول سيف الدولة المهندار يمدحه :

يوما بمصر ويوما بالحجاز ويوما بالشام ويوما في قرى حلب (٢)
ولا شك ان هذا السلطان العظيم استطاع بأعماله واصلاحاته الواسعة النطاق أن يحول دولة المماليك ، من دولة ناشئة الى دولة قوية مدعمة الاركان ، وان يمهّد الطريق لخلفائه من بعده كي ينموا رسالته ، ويصلوا الى الهدف المنشود وهو القضاء على المغول والصليبيين (٣) •

(١) تاريخ ابن الفرات ج٧ ص ٨٥ - ٨٧ حيث ترد روايات المؤرخين حول اسباب وفاته ويعتقد البعض انه مات مسموما .
(٢) تاريخ ابن الفرات ج٧ ص ٨١ - ٨٤ .

(٣) جاء بعد بيبرس ، الملك المنصور قلاوون الذي ترسم خطاه في مكافحة هذين الخطرين ، فانتصر على المغول في حمص سنة ١٢٨١ م كما انتصر على الصليبيين واستولى على امارة طرابلس سنة ١٢٨٩ م . ثم ←

لهذا بعد صيته ، واشتهرت سيرته دوناً عن سائر السلاطين : لدرجة أن أخباره امتزجت فيها حقائق التاريخ بخيال القصص ، ونذكر على سبيل المثال تلك الملاحم الشعبية المعروفة بالسيرة الظاهرية أو سيرة الظاهر بيبرس (٢) التي تصور شخصية بيبرس وكأنها شخصية عصر أكثر مما هي شخصية انسان ، اذ تنعكس فيها صورة هذا الوضع الجديد أو هذه التقلّة الجديدة التي تحولت فيها دولة المماليك في مصر والشام الى دولة قوية راسخة الاقدام .



خلفه ولداه على التوالي : الاشرف خليل بن قلاوون الذي استولى على الإمارة الباقية للدولة الصليبية في الشام وهي إمارة عكا سنة ١٢٩١ م ، فانهى بذلك الفصل الختامي من تاريخ الحروب الصليبية في الشام . ثم تبعه الناصر محمد بن قلاوون الذي انتصر على مغول فارس عند مرج الصفر جنوبي دمشق سنة ١٣٠٣ م وعقد مع ملكهم أبى سعيد خان صلحا نهائيا ، انهى العداء بين مصر والشام ومغول فارس .

(٢) للظاهر بيبرس سيرتان احدهما للقاضي محيي الدين بن عبد الظاهر ، والاخرى لمحمد بن شداد . وقد أورد ابن الفرات نماذج منها في تاريخه . راجع (تاريخ ابن الفرات ج٧ ص ٨٤ - ٨٨ نشر قسطنطين زريق) وتجدر الاشارة هنا الى السيرة الظاهرية التي كتبها حديثا المرحوم بريم التونسي .

الضمائم

ضميمة رقم ١ -

رسالة خاطب بها أبو عامر بن غرسية أبا عبدالله بن الحداد يعاتبه فيها ويفضل العجم على العرب •

ضميمة رقم ٢ -

خطاب التهديد الذي أرسله هولوكو خان مغول فارس الى سلطان مصر سيف الدين قطز قبيل موقعة عين جالوت •

ضميمة رقم ٣ -

رواية صارم الدين ازبك بن عبدالله الاشرفي ، في وصف التتار وعاداتهم وموقعة عين جالوت •

ضميمة رقم ٤ -

الرسالة التي وجهها الملك المظفر سيف الدين قطز الى ملك اليمن يشره فيها بهزيمة التتار •

ضميمة رقم ٥ -

نص الهدنة التي عقدت بين الظاهر بيبرس وبين ملكة بيروت وجبالها (لبنان) من البلاد الشامية •

قوائم المراجع العربية والاورية والخرائط والصور •

ضميمة رقم - ١ -

رسالة (١) خاطب بها أبو عامر بن غرسية أبا عبدالله بن الحداد (٢)
يعاتبه (٣) فيها ويفضل العجم على العرب

سلام عليك ذا الروى المروى الموقوف فريضه على حلقة بجانة
أرش (٤) اليمن ، بزهد الثمن كأن ما في الارض انسان الا من غسان

(١) راجع ما سبق ان قلناه عن هذه الرسالة في ص ٥٦ من هذا
الكتاب . وتتفق نسخة الاسكوريال مع نسخة الذخيرة في الفاظها ومعانيها
وروحها مما لا يثير شكاً في أن المؤلف واحد وهو ابن غرسية كما نصت على
ذلك كلتا النسختين ، وجميع الرسائل التي تناولت الرد عليه بعد ذلك .
على أننا نلاحظ اختلافاً شديداً بين النسختين في ترتيب سياق العبارات
وصياغتها لدرجة يصعب معها مقابلة النص بالآخر، هذا فضلاً عن أن
نسخة الذخيرة تنقص بكثير من التفاصيل عن نسخة الاسكوريال كما
تحتوي على بعض الالفاظ المحرفة . ولهذا اتخذنا نسخة الاسكوريال -
رغم كونها مجهولة النسخ - أصلاً للنشر وأن كانت هي الأخرى لم تبرز
من التحريفات . هذا وقد ذكرنا في الحواشي ما ورد في نسخة الذخيرة من
فروقات في الالفاظ والعبارات التي لا تتفق مع المتن .

(٢) راجع ترجمته وترجمة ابن صمادح في (ابن بسام : الذخيرة ق ١
ج ٢ ص ٢٠١ ، ٢٣٦) .

(٣) العتاب هنا - كما ذكرنا آنفاً وكما ورد في نسخة الذخيرة -
بسبب تركه مدح مجاهد واقتصاره على مدائح ابن صمادح .

(٤) أرش اليمن يقصد بها الارض الممنوحة الى اليمنيين ، وقد اطلقت
على الاقليم الساحلي لمدينة بجانة والمرية . وأصل هذه التسمية ترجع الى
أن بنى أمية لما دخلوا الاندلس ، انزلوا بني سراج القضاعيين في هذا الاقليم
وجعلوا اليهم حراسة ساحله ولهذا سمي أرش اليمن أي عطيتهم .
ويحتمل أن يكون هؤلاء القوم هم أجداد بني سراج Abencerages المعروف
نفوذهم في تاريخ مملكة غرناطة في القرن الخامس عشر .

←

أو من آل ذي حسان (١) . وان كان القوم أقنوك وعن العالم أغنوك
على حسب المذكور فما هذا الاعمال للكور ، وترك الكور ، وقل ما
تأخذ الشعرة (٢) في الرحيل ، الا عن الربع المجيل (٣) . ولو أن القوم
خلطوك بالآل (٤) ، لما أحوجوك الى الخبط في الآل (٥) . مه مه من
أحوجك الى ركوب المهمة (٦) ، وثقف ، وودك لا تقف ، على من اضترك
الى الايغال ، وباعك بيع المسامح بك (٧) لا المغال ، وعوضك من الاندية،
بجوب (٨) الأودية ، ومن المآلف ، بقطع (٩) المتالف ، وحملك على مخالفة
التحصان، ومخالفة الحصان، ووكلك بمسح الأرض ذات الطول والعرض .
فاذا (١٠) يمت تباله (١١) ، تتباله ، وصرت ضغثاً على إباله ، تتعل باليمين
ضنا بالعلق الثمين .

أحسبك أزررت ، وبهذا الجيل البجيل (١٢) ازدرت ، وما دريت ،



Lévi Provençal : La Péninsule Iberique au moyen — Age
d'après le Kitàb Ar—Rawd Al mi'tàr. p. 37 (texto àrabe)
y 47 y notas (traduccion).

- (١) عبارة من « آل ذي حسان » وضعت في « نسخة الذخيرة » في
غير موضعها في السطر الذي يليها .
(٢) جاء في لسان العرب والشعرة بالكسر الركب للنساء خاصة .
(٣) النحيل ، والمتن أصح .
(٤) (٥) الآل الاولى بمعنى الأهل والثانية بمعنى السراب .
(٦) المهمة : الصحراء الواسعة .
(٧) غير موجودة في نسخة الذخيرة .
(٨) بقطع ، وفي جولدزبهر بجوف والمتن أصح .
(٩) بجوب (١٠) أمت .
(١١) تباله موضع بلاد اليمن (ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٣٥٧)
(١٢) بجيل أي عظيم القدر ، قال ابن جنى « ومنه اشتق الشيخ
البحال والرجل البجيل والتبجيل » .

أنهم الصهب الشهب ، ليسوا بعرب ذوي أينق (١) جرب ، أساورة أكاسرة ،
 'مجد' 'نجد' بهم (٢) ، لا رعاة شويهاث ولا بهم ، شغلوا بالماذى. (٣)
 والمران (٤) ، عن رعى البعران ، وبجلب العز ، عن حلب المعز ، جابرة
 قياصرة ، ذوو (٥) المغافر والدروع ، للتنفيس (٦) عن روع المروع ، حماة
 السروح ، نامة (٧) الصروح ، صقوره ، غلبت عليهم شقوره (٨) ، وشقورة
 الخرصان (٩) ، لكنهم خطبة بالخرصان (١٠) ، شعر :

ما ضرهم أن شهدوا أمجاداً أو كافحوا يوم الوغى الأندادا
 أن لا يكون لوفهم سواداً (١١)
 أرومة رومية ، وجرثومة أصفرية ،

(١) اينق جمع نوق جمع ناقة .

(٢) بهم بضم الباء جمع بهممه وهو الفارس الذي لا يدري من أين يؤتى لشجاعته

(٣) الماذي: كل سلاح من الحديد. والماذى أيضا العسل الأبيض الجيد

(٤) المران: شجر تصنع منه الرماح، وقيل كذلك الرماح اللدنة في صلابته.

(٥) وردت في النسختين ذو (٦) نقلها جولدزيهر « للتنفير » .

(٧) أي رافعوا الصروح وقد استبدلها جولدزيهر بكلمة « كماه » .

(٨) شقورة: لم ترد هذه الكلمة في لسان العرب ولعله يريد بها معنى

الشقورة .

(٩) كذا ، وبهذا الشكل وردت في جولدزيهر ولم يفسرها معلقا عليها

بأنه لا يستطيع تأويلها ، ولعلها تحريف عن خرسان ، قال في لسان العرب

« وخراسان كورة النسب اليها خراساني ، قال سيويوه وهو أجود ،

وخراسي وخرسي ويقال هم خرسان كما يقال هم سودان وبيضان . وليس

ذلك بمستغرب إذ أن ابن غرسيه سوف يتمدح بعد ذلك بفضل الفرس

وماثر الدول الأناضولية والمملكة الأردشيرية . . الخ .

(١٠) الخرص : سنان الرمح وقيل هو الرمح وجمعه خرصان .

(١١) ورد في الذخيرة : أبا رباب الملوك أزدريت وعلى وعندي الجيل

أزدريت ، وما دريت بهذا أحسبك أزديت ، وما دريت أنهم الصهب

الشهب ، ليسوا بعرب ذوي اينق جرب ، بل هم القياصرة الأكاسرة ، نجد

←

نمتهم ذوو (١) الأحساب والمجد والعلی

من الصهب لا راعو غضى (٢) وأبان (٣).

من القوم الملس الأدم ، لم تعرف فيهم الأقباط (٤) ولا الأنباط ،

حسب حرى ، ونسب سرى •

أمكم لأمنا كانت أمة ، إن تنكروا ذلك تلقوا (٥) ظلمه ، فلا تهايل ،

في التكايل ، فما سسنا قط قروداً ، ولا حكنا بروداً ، ولا أكلنا عروداً (٦) •

فلا تهاجر بنى هاجر (٧) ، أتم أرقاؤنا وعبدتنا ، وعنقاؤنا وحفدتنا ،

مننا عليكم بالعتق ، وأخرجناكم من ربق الرق ، وألحقناكم بالأحرار ،

فغمطتم النعمة ، فصنعناكم صنفاً يشارك سفعاً (٨) ، اضطرركم إلى سكنى

الحجاز والجبأكم (٩) الى ذلق المجاز ، رزن رصن (١٠) •

جمال ذي الأرض كانوا في الحياة وهم

بعد الممات جمال الكتتب والسير

وإذا قامت الحرب على ساق ، وأخذت في اتساق ، وقرعت

»»»→

مجد صحة السروح ونماء الصروح :

ما ضرهم ان شهدوا امجادا الا يكون لونهم سوادا

(١) في الاصل « ذو » . (٢) الفضى : شجر خبيث الذئاب .

(٣) ابان : جبل بجزيرة العرب . وقد وردت العبارة في جولدزيهر .

لا راعوا غنما وافنان ، وهي محرفة وقد اوردها على انها نثر لا شعر .

(٤) الاقماط في اللخيرة . (٥) في جولدزيهر : تلفوا .

(٦) العرد : هو الصلب الجاف ويكنى بذلك عن خشونة العيش .

(٨) السفع : هو الجذب من الناصية .

(٧) في جولدزيهر في هاجر .

(٩) وردت العبارة في جولدزيهر محرفة هكذا : اضطرركم الى سيء

المنحاز وانحاكم الى ذلق المجاز .

(١٠) تركت بياض في جولدزيهر .

←

الظنابيب^(١) وأشرفت الأنابيب ، وقلصت الشفاه ، وففر الميدان فاه،^(٢)
وولى قفاه ، ألفتهم^(٣) ذمرة: ^(٤) الناس ، عند احمرار الباس ، الطعن
بالأسل ، أحلى عندهم من العسل^(٥) .

مستلثمين^(٦) إلى الحتوف كأنما بين الحتوف وبينهم أرحام
من أمنياتهم ، حلول منياتهم ، لهم على القدمة^(٧) اليدان على
التنائي^(٨) والتدان .

من الأولى غير زجر الخيل ما عرفوا
إذ تعرف العُربُ زجر الشاء والعكر^(٩)

بصر^(١٠) مصبّر" تزدان بهم المحافل والجحافل ، يقول على خيول ،
كأنها فيول ، كواكب المواكب ، نجوم الرجوم ، من العجم ضراغمة
الأجم ، بنو غاب ، منتفون من كل غاب ، لم تلدهم صواحب الرايات
بل تفجحت^(١١) عليهم سارة الجمال ربة الآيات ، شمشُخ" بذخ ، بررة

(١) الظنبوب : حرف الساق اليابس وقيل هو عظم الساق ، وقرع
الظنبوب كناية عن التهؤ وسرعة الاجابة . وقد وردت في جولدزهر
« الظنابيب » بالطاء .

(٢) وردت في جولدزهر . « فماه » . (٣) القيتهم في جولدزهر .

(٤) ذمرة لعلها جمع ذمر وهو الرجل الشجاع .

(٥) يشير بهذا الى البيت المعروف : نحن بني ضبة أصحاب الجمل

الطعن أحلى عندنا من العسل

(٦) استلأم : استعد ولبس كل ماله من سلاح .

(٧) القدمه : الاقدام . (٨) النأي في الذخيرة .

(٩) العكرة القطعة من الابل وقيل العكر ما فوق الخمسمائة من الابل .

(١٠) في جلدزهر : نصر .

(١١) في جلدزهر تبجحت ، والتفجح هو انفجار ما بين الساقين ويكنى

بذلك أن سارة ولدتهم .

أقيال ، جرة أذيال ، بخ بخ أحلتهم سيوفهم بسطة الارضين ، فما قنعوا
بذلك ولا رضين حتى دوخوا المشارق والمغرب ، واستوطنوا من المجد
الذروة والغارب .

بضرب يزيل الهام عن سكناته وطعن كنشهاق العفا^(١) هم بالنهق^(٢)
شروها برنات السيوف ، لا بربات الشنوف ،^(٣) وبركوب السروج
عن الكلب والفروج ، وبالنفير عن النفير ، وبالجنائب عن الجبائب ،
وبالخب^(٤) عن الحب^(٥) وبالسليل^(٦) عن السليل ،^(٧) وبالامر والذمر
عن معاقره الخمر والزمر ، وباللقيان عن العقيان وعن قنيان القيان ، طياتهم
خطياتهم^(٨) ، وغلاتهم آلاتهم ، وحصونهم حصنهم ، أقيال ، آباؤهم من
بين الأنام أقتال^(٩) .
أولئك قومي إن بنوا شيدوا البنا
وإن حاربوا جدوا وإن عقدوا شدوا^(١٠)

(١) العفا ولد الحمار .

(٢) هذا البيت لحنظلة بن شرقي المعروف بأبي الطمحان القيني
(الاغاني ج ١٠ ص ١٤ ، ج ١١ ص ٢٥ - ١٢٩) .

(٣) وردت هذه العبارة في جلدزيهر هكذا : شروها برقات السيوف ،
لا برقات الشنوف وهو تحريف .

(٤) الخب : ضرب من السير السريع ويقصد به الاسراع للحرب .

(٥) في الاصل : الحب .

(٦) ، (٧) السليل : الاسراع ، والسليل : من معانيه الولد ، ولعله

يقصد أنهم اشتغلوا بالاسراع الى الغزو والحرب عن الخلف والولد .

(٨) الخطية : الرماح . منسوبة الى الخط وهو اسم مكان ، فيقال

« رماح خطية » و « رماح الخط » .

(٩) كذا ، وقد وردت في القاموس بمعنى اعداء .

(١٠) هذا البيت للحطيئة في مدح بني بفيض (الاغاني ج ٢ ص ٤١

ووضّح "ربّج" لا حفزة عكر ، ولا قفزة (١) آكر ملوك جلة ، لا محرقوا (٢) جلة ، ندس ، (٣) غنوا بالاستبرق والسندس ، عن البيت (٤) المقيظ المشتى ، المجموع من النعيجات الست ، بسئل ، لا حراس مسل ، (٥) ولا غراس فسئل ، (٦) ملاك كفصاح (٧) ، ليس منهم في ورد ولا صدر شراب درّ اللقاح ، (٨) بل شرايهم النييد ، وطعامهم الحنيد ، لا زهيد الهيد (٩) في البيد ، ولا مكون (١٠) الوكون ، (١١) ولا منهم من احتشى بمذموم الكششى ، (١٢) ولا في سائر الأبخاش من وليد وناش ، (١٣) من اغتذى بالأحناش ، فلا يقعق لهم بالشنان ، (١٤) ولا يدعدع (١٥) لهم

-
- (١) ورد في جولدزيهر عبدة اكر .
(٢) محرقو ، وورد في جولدزيهر مجوقو ، ولعله تحريف .
(٣) ندس : جمع ندس وهو الفطن الذكي ووردت في جولدزيهر هكذا « قدس ؟ » .
(٤) وردت جولدزيهر : البيت .
(٥) مسل : مسايل الماء .
(٦) الفسل جمع الفيسل وهي صفار النخل .
(٧) وردت في الذخيرة وفي جولدزيهر لقاح .
(٨) اللقاح : جمع لقحة وهي الناقة ، ودر اللقاح لبن النوق . وفي جولدزيهر وضعت كلمة ذي بدلا من در وهو تحريف .
(٩) الهيد : الحنظل وقيل حبوبه ، وهذا كناية عن شظف العيش ، ووردت في جولدزيهر البيد وهو تحريف .
(١٠) مكون : جمع مكن هو بيض الضب والجراد ، قال ابو الهندي : ومكن الضباب طعام العريب ولا تشتيه نفوس العجم
(١١) الوكون : الحجور .
(١٢) الكشي : جمع كشية ، وكشية الضب اصل ذنبه .
(١٣) ناش أي ناشيء .
(١٤) الشنان : جمع شن وهو القربة الخلق وفي المثل « لا يقعق لى بالشنان » .
(١٥) يدعدع : من دع يدع وهو الدفع العنيف ، وفي الذخيرة : يززعع .

بالتشنان. (١) وكف أيها الشان، (٢) فلهم عَظْمُ الشان ، واليد الطولى إذ تخلصوكم من أكف الجبشان ، صنيع منيع ، (٣) ومنة لا يشوبها منة ، فيالها منحة ، لكنها أعقبت محنة ، إذ صادفت كفررة لا شكررة ، ربما إذا تأبطتم تبيها معشر البداة العراة اعتقدتم غلا ، فاسترتم صلا. (٤) أما علمتم أن الدولة النوشروانية والمملكة الأردشيرية ، بقروا أجوافكم ، وخلصوا أكتافكم ، ثم عطفوا ورأفوا وملكوكم الحيرة بعد عظيم الحيرة . قلا ذللا ، تتخيرون البنات عند البيات ، مبهورات ، لا ممهورات ، فبرم من ذلك غسانكم ونعمانكم ، وكان برمه سببا لرزه أمانكم ، فأصبح بعد جر الذبول مدوسا بأخفاف الفيول والكرام بنو الأصفر ، الأطهر الأطهر ، عطفتم عليكم الرحم الابراهيمية ، والعمومية الاسماعيلية ، فسمحوا لكم من الشام بأقصى مكان ، بعد ما كان من سيل العرم ما كان يؤدي نعمانكم وغسانكم لقروم الأعاجم الاتاوة على الجماجم (٥) .

-
- (١) الشنان : وهي لغة الشنان اي الكراهية ولعله يريد انهم قوم لا يدفع في وجوههم باظهار الكراهية هيبة وقوة .
(٢) يقصد بها الشاني اي الكاره .
(٣) كذا في الاصل وفي نسخة الذخيرة ، وورد في جلدزبير مهيع ولعله تحريف .
(٤) الحية الخبيث .

(٥) ما ورد في الذخيرة في هذا المعنى هو هكذا : جمح طمح ، طعامهم الحنيد وشرابهم النبيد ، ما منهم من اختشى مذ مشى بمدموم الكشى ، ولا تغلوا بزهد البيد ، ولا اوطنوا بيوت الشعر ولا غنوا عن الحطب بالجملة والبعر ، ولا فيهم وليد وناش ممن افتلدى بالاحناش ، ملك لقحاح ليس منه في ورد ولا صدر شراب در اللقاح ، سرج وهج قروم الاعاجم ، يؤدي

هذى المكارم لا قعبان من لبن شيئا بباء فعادا بعد أبوالا (١)

مهلا بنى الاماء ، عن الغمز والايماء ، فنحن عرق "عرق" في الأنساب
الصميمة ، والأحساب العميمة ، فمن يهولنا او يروعنا ، وقد رسخت في
المجد أصولنا وفروعنا ، ومن يطولنا وكل الورى قد شمله فضلنا وطولنا .

شرف ينطح النجوم بروقية وعز يقلقل الأجل

محلّم (٢) علم ذوو (٣) الآراء الفلسفية الأرضية والعلوم المنطقية
الرياضية كحلمة الاسترلوميقي والموسيقى والعلمة بالأرتطاطيقي
والجومطريقي والقومة (٤) بالألوطيقي والبوطيقي ، ما شئت من تدقيق
وتحقيق حسبوا أنفسهم على العلوم البدنية والدينية لا على وصف الناقة
الفدنية ، فعلمهم ليس بالنفساف كفعل نائلة وأساف ، أصغر بشأنكم إذ
بزق خمر باع الكعبة أبو غبشانكم ، وإذ أبورغالكم قاد فيل الحبشة الى
حرم الله لاستيصالكم :

أزيدك أم كفاك وذاك أنسى رأيتك في اتتحالك كنت أحقق

فلا فخر معشر العربان الغربان بالقديم ، المفري للاديم ، ولكن
الفخر بابن عمنا الذي بالبركة عمنا ، الابراهيمي "النسب ، الاسماعيلى"
الحسب، الذي انتشلنا (٥) الله تعالى به وإياكم من العماية والغواية . أما

→»

الى نعمانكم وغسانكم الاتاوة على الجماجم فلا يقعق له بالشنان ولا يززع
له بالشنان .

- (١) هذا البيت لابي الصلت الثقفي في مدح سيف بن ذي يزن .
- (٢) في جلدزيهر : فخام . (٣) في الاصل « ذو » .
- (٤) كذا في الذخيرة ووردت في جولدزيهر « المقدمة » .
- (٥) وردت في جولدزيهر « أنشأنا » وهي تحريف .

نحن فمن أهل التثليث وعبادة الصلبان ، وأتتم من أهل الدين المليث ،
وعبادة الأوثان ، لا غرو إن كان منكم حبره وسبره ، ففي الرغام يلقى
تبره ، والمسك بعض دم الغزال ، والنطاف العذاب مستودعات بمسك (١)
العزالي (٢) .

لله مما قدر صفوة
وصفوة الصفوة من بينهم محمد البدر (٣) أبو القاسم

بهذا النبي الأُمى أفاخر من تفخر (٤) ، وأكثر من تقدم (٥) وتأخر
الشريف السالفين ، والكريم (٦) الطرفين ، الملتقى (٧) بالرسالة ، والملتقى
للاداء (٨) والدلالة ، (٩) أصلى عليه عدد الرمل ، ومدد النمل ، وكذلك
أصلى على وأصلى جناحه ، سيوفه ورماحه ، أصحابه الكرام ، عليهم من
الله أفضل السلام .

يا بن الأعراب ما علينا باس لم أحك إلا ما حكاه الناس

(١) وردت العبارة في الدخيرة هكذا : حلم علم أصحاب العلوم الرياضية
والآراء الفلسفية الأريضية ، حملة الاسترلوميكا ، والجومطيقا ، والعلمة
بالارتطامطيقا ، وأنولوطيقا ، والقومة بالموسيقا ، والبوطيقا ، والنهضة بعلوم
الشرائع ، والطبائع ، والمهرة في علوم الأديان والابدان ،
هم ملكوا شرق البلاد وغربها وهم منحوكم بعد ذلك سودها
فلا فخر معشر العربان الغربان بالقديم ، فعلى فرى الأديم اصغر
بشأنكم اذ بزق خمر باع الكعبة أبو غبشانكم واذا أبو رغالكم قاد فيل
الجبشة الى حرم الله لاستيصالكم ، غضوا الابصار فهذا الذكر الى الفحش
أصار .

(٢) العزالي : جمع عزلاه وهي رباط القرية .

(٣) « النور » في الدخيرة . (٤) فجر

(٥) جميع من تقدم . (٦) المنيق الطرفين .

(٧) في الدخيرة : الملتقى . (٨) في جولدزير : للدعاء .

(٩) في جولدزير : في موضع هذه الكلمة بياض .

هذا ،

ولم أشتم لكم عرضا ولكن حدود بحيث يستمع الحداء

ثم احج بشاعر غسان لاسابان في هذا العيد بالوعيد ^(١) ، وأجر في هذا الفصل بعدم الوصل لقد غم آخرك ، لكن بالرغم آخرك ، إذ أضربت عن مديح علقنا الربيع معز الدولة (المولى الأعظم والموئل الأعصم ^(٢)) ، شهمنا الرئيس ، وشهمنا النفيس ، قيل الأمم ، وسيل الأمم ، معنى المعاني ، ومعنى المعاني ، ذي الرياسة الساسانية ، والنقاسة النفسانية ، فاذهب ياغب ^(٣) المذهب ، وابتغ ^(٤) في الأرض نفقا أو في السماء مرتقى ، فهذه إليه ^(٥) ، جلبت عليك بليه ، أو حك من البسيط المديد ، ما تستجير به من بطشنا الشديد ^(٦) ، إذ نحن معشر الموالي ، لا نوالي إلا من هو لعظيمتنا ^(٧) موالي ، وحذار حذار أن تفرع سن الندم ، ولات حين مندم ^(٨) ، قبل أن تجمع ذنوبك على ذنوبك ، ^(٩) وكرهك في

(١) عبارة الذخيرة هكذا : ثم احج في هذا العيد بالوعيد .

(٢) الزيادة عن الذخيرة .

(٣) في جلدزهر : ياغب .

(٤) في جلدزهر : وابتن .

(٥) اليه : القسم أو الحلف .

(٦) عبارة الذخيرة مضطربة وغير مستقيمة : « أوحك واليسيط في الملك الخلق البسيط ما تستجير به من بطشنا » وكذلك وردت في جلدزهر معرفة : « أوحك من البسيط والمير ما تستجير به من بطشنا الشرير » .

(٧) « لعظيمنا » في الذخيرة .

(٨) جلدزهر : تندم .

(٩) الذنوب : الدلو الممتلئ .

كربك (١) ، فمن أبصر أقصر ، وما جرب (٢) من صديقه خوِّف (٣) :
 فلا تتبشع (٤) ممض العتاب يلقاك يوماً بليقاه (٥) لاق
 فإن الدواء حميد الفعال وإن كان مرأ كربه المذاق
 يا معتقل علم الشعر ، والمستقل بقلم النظم والنثر :

قد استحيت منك فلا تكلني إلى شيء سوى عذر جميل
 وقد أنفدت ما حقى عليه قبيح الهجو أو شتم الرسول
 وذاك على انفرادك قوت يوم إذا أنفقت إنفاق البخيل
 وكيف وأنت علوى السجايا وليس إلى (٦) اقتصادك من سبيل
 وقد يقوى الفصيح (٧) فلا تقابل ضعيف البر إلا بالقبول
 وإن الوزن وهو أصح وزن (٨) يقام صغاه بالحرف العليل
 فإن يك ما بعثت به قليلاً فلي حال أقل من القليل
 والسلام عليك ما سبح الفلك وسبَّح الملك ورحمة الله وبركاته ،

-
- (١) الكرب : حبل يشد على عراقي الدلو وفي ذلك يقول الشاعر :
 اخضر الجلدة من بيت العرب يملأ الدلو الى عقد الكرب
 (٢) في جلدزهر : خرف وهو تحريف .
 (٣) وردت هذه العبارات في الذخيرة هكذا : فاستأخر او تقدم وحذار
 ان تفرع سن الندم قبل ان تجمع ذنوبك وكروبك فمن أبصر أقصر ، وما
 خاف من صديقه اخاف .
 (٤) وردت في الذخيرة : تتشنع .
 (٥) وردت في الذخيرة : فيلقا .
 (٦) « الى » محذوفة في الذخيرة .
 (٧) كذا في الذخيرة وقد كتب على هامشها « يغوى النصيح » وهي
 أحسن .
 (٨) ورد المصراع الاول من هذا البيت في الذخيرة هكذا « فان الشعر
 وهو أتم وزن » وهو أحسن من المتن .

ضميمة رقم - ٢ -

خطاب التهديد الذي ارسله هولوكوخان الى سلطان مصر سيف الدين قطز قبيل موقعة عين جالوت (١)

من ملك الملوك شرقا وغربا ، القان الأعظم •

باسمك اللهم باسط الارض ، ورافع السماء • يعلم الملك المظفر قطز الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا الى هذا الاقليم (٢) ، يتنعمون بانعامه ، ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك • يعلم الملك المظفر قطز ، وسائر امراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال ، أنا نحن جندالله في أرضه ، خلقنا من سخطه ، وسلطنا على من حل به غضبه ، فلکم بجميع البلاد معتبر ، وعن عزمننا مزدجر ، فاتعظوا بغيركم ، وأسلموا الينا أمرکم ، قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ ، فنحن ما نرحم من بكى ، ولا نرق لمن شكى • وقد سمعتم اننا قد فتحنا البلاد ، وطهرنا الارض من الفساد ، وقتلنا معظم العباد • فعليكم بالهرب وعلينا بالطلب ، فأبي أرض تأويكم ، وأبي طريق تنجيكم ، وأبي بلاد تحميكم ؟ فما لكم من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص ، فخيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق ، وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال ، وعددنا كالرمال • فالحصون لدينا لا تمنع ، والعساكر لقتالنا لا تنفع ، ودعاؤكم علينا لا يسمع • فانكم أكلنم الحرام ، ولا تعفون عند كلام ، وختمتم العهود والايمان ، وفشا فيكم العقوق

(١) المقريري : السلوك ج١ ص ٤٢٧ - ٤٢٩ ، وراجع ما قلناه عن هذه الرسالة في ص ١٥٨ من هذا الكتاب .

(٢) اشارة الى أصل قطز ، وقد تقدم القول بأنه كان من الخوارزمية .

والعصيان ، فأبشروا بالمذلة والهوان ، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الارض بغير الحق وبما كنتم تفسقون وسيعلم الذبيح ظلموا أي منقلب ينقلبون . فمن طلب حربنا ندم ، ومن قصد أماننا سلم ، فان اتهم لشرطنا ولامرنا أطعتم ، فلکم ما لنا وعليکم ما علينا ، وان خالفتهم هلكتهم ، فلا تهلکوا نفوسکم بأيديکم ، فقد حذر من أنذر ، وقد ثبت عندکم أن نحن الکفرة ، وقد ثبت عندنا انکم الفجرة ، وقد سلطنا علیکم من له الامور المقدره والاحکام المدبره . فكثيرکم عندنا قليل ، وعزیزکم عندنا ذلیل ، وبغير الأهنة ما ملوککم عندنا سبیل . فلا تطيلوا الخطاب ، وأسرعوا برد الجواب ، قبل أن تضرم نار الحرب نارها ، وترمی نحوکم شرارها ، فلا تجدون مناجاها ولا عزا ، ولا كافيا ولا حرزا ، وتدهون منا بأعظم داهية ، وتصبح بلادکم منکم خالية . فقد انصفناکم اذ راسلناکم ، وایقظناکم اذ حذرناکم ، فما بقي لنا مقصد سواکم . والسلام علینا وعلیکم ، وعلى من أطاع الهدی ، وخشى عواقب الردی ، وأطاع الملك الاعلی .

ألا قل لمصرها هلاوون^(١) قد أتى بحد سيوف تنتضي وبواتر
يصير أعز القوم منها أذلة ويلحق أطفالا لهم بالاكابر

(١) صيغة لاسم هولاءو تورد كثيرا في كتب المؤرخين المعاصرين .

ضميمة رقم - ٣ -

رواية صارم الدين ازبك بن عبدالله الاشرفي ، في وصف التتار
وعاداتهم وموقعة عين جالوت (١)

قال الامير شهاب الدين قرطاي العزي الخازنداري في تاريخه منا
صيغته :

قال الصارم أزبك مملوك الملك الاشرف الايوبي صاحب حمص :
لما نزل هلاوون على حلب ، كنت غائبا عنها ، فتخبأت في مغارة من مغارات
حلب مدة ثلاثة أيام ، وأنا اسمع حنين حوافر الخيل فوق رأسي . فلما
انقطع الحنين ، طلعت من المغارة ، فوجدت على بابها رجلا من التتار ميتا ،

(١) راجع ما قلناه عن هذه الموقعة في ص ١٦٤ من هذا الكتاب . هذا
وقد ورد هذا النص في تاريخ قرطاي العزي الخازنداري الذي لا نعرف عن
صاحبه سوى انه كان من كبار امراء المماليك وشغل عدة وظائف كبيرة مثل
امير دمشق وحاجب حلب ونائب طرابلس ومات فوق سن السنتين سنة
٧٣٤ هـ (١٣٣٣ م) . وقد كتب تاريخا نقله المؤرخ المصري ناصر الدين
محمد بن الفرات (ت ٨٠٧ هـ = ١٤٠٥ م) في تاريخه الكبير « الطريق
الواضح المسلك الى معرفة تراجم الخلفاء والملوك » ، الذي لم يستطع
اتمامة . ويوجد من هذا التاريخ الكبير لابن الفرات تسعة اجزاء (تشمل
اخبار سني ٥٠١ - ٧٩٩ هـ) نشر منها الدكتور قسطنطين زريق الاجزاء
٧ ، ٨ ، ٩ التي تضم اخبار سني ٦٧٢ - ٧٩٩ هـ . اما الجزء الذي يهمننا
هنا فهو الجزء السادس الذي يضم اخبار سني ٦٢٥ - ٦٥٩ هـ ويتضمن
تاريخ قرطاي العزي واخبار صارم الدين ازبك التي وردت هنا في المتن .
وهذا الجزء موجود بمكتبة الفاتيكان وقد نشر منه المستشرق Della Vida

اخبار صارم الدين في L' Invasione dei Tarsi in Syria Nel 1260 di un testimone oculare . Orientalia ,
Vol. IV, Roma 1935.

فلبست قماشه ، وتزيّات بزي التتر ، وقصدت دهليز هلاوون • ومن جملة عدل التتار أنهم اذا نزلوا بأرض ، نصبوا قريبا من الدهليز الذي للملك صاريا ، وفي رأس الصاري وضعوا صندوقا صغيرا معلقا بالحبال ، وعند الصاري وقف من يحرسه وهم جماعة من أكبر أمناء التتار • فاذا كان لرجل شكوى أو ظلامه ، يكتب ظلامته في قصة ويختتمها ويضعها في ذلك الصندوق ، فاذا كان يوم الجمعة ، يطلب الملك الصندوق الى بين يديه ، ويفتحه بمفتاح من عنده ويكشف ظلمات الناس • قال الحصارم : فكتبت قصة شرحها : « المملوك الصارم » ولم أقل أزبك ، وخفت أن اكتب في قصتي أزبك فلا ينادوني التتريومند « يا صارم » ، بل يتادوني « يا أزبك » • فكتبت في القصة : المملوك الصارم مملوك الملك الاشراف صاحب حمص ، يقبل الارض ويسأل الحضرم بين يدي القان • فلما طلبني وحضرت بين يديه ، رأيت ملكا جليل القدر عظيم الشأن ، كثير الحرمة ، قصير القامة ، كبير الوجه ، جهر الصوت ، حنون عينيه على وجهه ، والخواتين جالسات الى جانبه ، والست طقز خاتون عن شماله • قال الصارم : لما وقفت بين يدي هلاوون ، تكلم معي من حجاب أربعة ، وقال لي في جملة كلامه : « أنت مملوك الملك الاشراف صاحب حمص ، بهادر المسلمين ؟ - يعني فارس المسلمين - قلت نعم • وجعل يحدثني من حاجب الى حاجب ، والحاجب الرابع يتحدث معي بلسان التركية • فلما رأني فصيح اللسان ، قوى الجنان ، سريع الجواب ، قربني اليه ، وأمر أن لا يكون بيني وبينه غير حاجب واحد • ثم قال لي : « تشرب الخمر ؟ » قلت : نعم • فأمر لي بهناب (كأس) مملوء خمرا ، وأشار الى الحاجب فناولني • فقبلت الارض ورقصت وعلت أشياء كأن يعملها الحرفاء بين يدي ملوك الاسلام لما كانت البلاد لهم • فاعجب ذلك الخواتين وانشرحن وتبسمن • فأما هلاوون ، فانه لم يرفع رأسه من الارض ، ثم أمر لي

بالجلوس فجلست ، وبالشرب فشربت ، وبالاكل فأكلت . فلما رأني أي أمر أشار به امتثلت ، أمرني بالجلوس فوق ندمائه في اعز مكان وأعلاهم مرتبة . وصار لا يأكل الا وأنا حاضر ، ولا يشرب الا وأنا حاضر . وان نام هلاوون ، طلبتني الست طقز خاتون زوجته . فأقمت على تلك الحال أول ليلة وثاني ليلة وثالث ليلة ، ونحن نحاصر حلب . ثم سألتني هلاوون عن أمر من الامور ، فجوابته جوابا كذبا وددت لو ابتلعتني الارض ولم انظف به . سألتني على لسان حاجبه : في كم من الوقت نملك هذا البلد ؟ - يعني حلب - قلت : في عشرين . فأطرق هلاوون برأسه الى الأرض غضبا مني . وقال لحاجبه أسئلة : في كم مقدار ما نملك هذه القلعة ؟ - يعني قلعة حلب . قلت : في ثلاثين سنة . وقصدت في كلامي أن هلاوون اذا سمع هذا الكلام يرحل عن حلب . فتبسّم هلاوون وقال لحاجبه : لولا سابق خدمته لى ضربت عنقه ، أما يستحي من هذا الكلام ؟ أيكون هذا همة ملوكهم - يعني ملوك المسلمين - المختلفة آرائهم ، المشتغلين ببعضهم البعض !؟ « كل هذا بلسان التتار ، وأنا لم أعلم ما يقول . قال الصارم : فسكت ، وندمت على جوابي له ، وذلك لما رأيت من الغيظ الذي تبين في وجهه . فلم يفرغ هلاوون من كلامه الا وقد دخل عليه رجل من التتار ، وفي يده رأس مقطوعة من رؤوس بني آدم ، معلقة بشعره . وهي مخضبة بالدم . فرماها بين يدي هلاوون وتحدث معه بلسان التتار ، ثم أخذ الرأس وخرج . فالتفت الحاجب نحوي وقال لي : يا صارم ! تعرف ما هذه الرأس ، وما هذا الرجل ، قلت : لا . قال : هذا أكبر مقدمي التتار ، وكان في نقب من بعض النقوبات التي تحت القلعة ، وخرج يزيل حقنه ، وجعل ولده مكانه ، فكشفهم الحلييون وهجموا عليهم في النقب ، فهرب ولده ومعه جماعة من التتار . فبلغ ذلك أباه ، فعبر النقب وقطع رأس ولده بيده ، وجاء بها الى القان . قال الصارم : فعند

ذلك علمت أن التتار لا بد لهم من حلب ، وأن بنيننا وبناتنا ومن يلينا في أيدي التتار ، وهذا أمر أراد الله تعالى فلا راد لمشيئته •

وكنت ليلة عند هلاوون ونحن نشرب ، اذ ورد عليه جماعة من مقدمي التتار ومعهم أصناف كثيرة من جملتها زبيب وحب قطن وقمح ونجارة خشب وفحم وخروب ، فجعل هلاوون ينظر الي ويتسم ، ولا أعلم ما في نفسه ، ثم أمر لنا بأن نشرب بالاقداح الكبار وبالزبادي • فلما خرجت اقضي شغلا ، لحقني الحاجب وكان يحبني واحبه محبة عظيمة ، وقال يا صارم : أتدري ما هذا الذي جاء به المقدمون ؟ قلت : لا والله • قال: انهم قد وصلوا في النقب تحت القلعة الى أن وصلوا الى هذا الذي رأيته •

ثم ان هلاوون سأل المقدمين : كم يسع النقب ؟ قالوا يسع ستة آلاف رجل • قال : « أوسعوه حتى يسع عشرة آلاف ! وان غدا بعد الظهر تأخذ التتار قلعة حلب ، وتصبح بناتكم ونساؤكم وبنات الملوك اللواتي تحصن بهذه القلعة جوارى لهذه الست طقزخاتون ، فانظر يا صارم الدين ماذا تفعل ! » •

قال الصارم : والله لما سمعت هذا الكلام ، صحوت من السكر ، ودخلت المجلس ، وجلست بين يدي هلاوون ، وقلت بطريق المصخركية : والله ان ملوك التتار مثل الحمير • فنظرت طقز خاتون نحوى وهي تبتسم وقالت : كيف هذا يا صارم ؟ قلت : « ان ملوك المسلمين ، كانوا اذا شربوا الخمر ، يكون نقلهم الفستق ، وشراب الحماض ، وأقراص الليمون ، في الزبادي الصبني ، وقماقم الماورد والريحان والبنفسج والآس المنثور والترجس ، وما يناسب هذه الاشياء العظيمة • واتم التتار ، تشربون

الخمير على الفحيم وحب القطن والزبيب ونشارة الخشب وهذه الاشياء
القيحة » •

وتبسم هلاوون وضحكت الخواتين • قال الصارم : ثم سبقت مني
كلمة كان جزائي فيها ان تضرب عنقي ، فقلت : « أنا أعلم من أين جاؤوا
هؤلاء المقدمون بهذه الاصناف » • فغضب هلاوون وقال : من أين
تعلم هذا ؟ فقبلت الأرض وقلت : « يحفظ الله القان ، وحق رأس الملك ،
أنا ادخرت هذه الذخائر كلها بيدي في هذه القلعة خوفا من التتر
واستعدادا للحصار » • وسكن هلاوون من غيظه ، وكان قد اعتقد في
نفسه ان الحاجب أوحى الي شيئا من هذا الكلام ، وكان الامر كذلك •

ثم نهضت قائما وقلبت الارض ، وقلت : « نصرالله القان ، ان
حرمتك عظيمة ومملكتك واسعة ، والملوك تخشاك ، ولا يقدر احد منهم
ان يقف بين يديك • والله والله يا خوند ، الملوك يودون لو كانوا وقوفا
بين يديك مثل ممالكك هؤلاء الوقوف ، ولكن يخافون من سطوتك » •
فاعجب هلاوون كلامي وقال لي :

يا صارم ! قلت : لبيك • قال : « تقدر أن تأتيني باستاذك الملك
الاشرف صاحب حمص ؟ » قلت : نعم • قال : اركب وآتني به • قلت :
بعد يومين • قال : نعم • فأمر لي هلاوون بالخيول ، وقال : اركب ولا
تقعد • قلت : بشرط • قال : وما هو ؟ قلت : أن لا تفتح هذه القلعة الي
أن يحضر الملك الاشرف بين يدي القان • قال : نعم • فركبت وأخذت
معي عشرة أكاديش ، وعلقت في عنقي الطغمة - يعنى لوح البريد -
وسقت ووصلت الى غزة • فبلغني ان الملوك هارين في البرية ، مشتتين

مخيرين مبعثرين • وكان قد بلغ ملوك المسلمين منزلي عند هلاوون ، فسقت ولحقت الملوك على منزلة تعرف ببركة زيزة •

فلما رأتهي الملوك ، نزلوا عن خيولهم وقبلوا يدي كما كنت أقبل أيديهم • وقبل الملك الاشرف استاذي يدي فعظم ذلك علي واستحييت من استاذي ومن الملك الناصر • ثم قلت للملك الاشرف : « القان يطلبك » • فخاف ، فقلت : ممن تخاف ؟ قال : من القان • قلت : « الضمان علي ، تعود ملكا جليلا على ما في نفسك ولا يصل اليك مكروه » • فالتفت الملك الناصر نحوي وقال : وأنا يا صارم الدين ؟ قلت : مالي معك كلام • فبكى الملك الناصر •

ولما أخذت الملك الاشرف ومضيت الى هلاوون ، وحضر بين يديه ، رسم له بشقة ينزل فيها ، وخروف وقدر وحطب • والبه ان الشقة التي ضربها هلاوون للملك الاشرف ، لا ترضى الكلاب أن تنزل فيها ، والخروف لا يرضى الذئب ان يأكله ، والحطب لا يرضى المشاعلي ان يقده في مشعله !! ، وهكذا عيش التتر دائما • فتركت الملك الاشرف في الشقة ، ومضيت الى خدمة هلاوون ، فأجلسني على جاري عادتي ، وأمرني أن آكل فأكلت ، وأمرني أن اشرب فشربت ، وسألني عن أحوال الملوك ، وما هم فيه ، وكيف تركتهم • قلت : في أنحس الاحوال ، هاربين مشتتين مبعثرين محيرين في البراري ، لا يستلذون بالنوم خوفا من حرمة القان • فأعجب هلاوون بكلامي ، وقال : كيف تركت استاذك يا صارم ؟ قلت : مالي استاذ الا القان • قال : لا ، ألا استاذك الملك الاشرف ؟ قلت : ما أعلم شيئا عن حاله • قال : كيف تركته وحده ؟ قلت : ما أفارق وجه القان نصره الله • فأطرق هلاوون برأسه زمانا وقال : « لا تقل هذا يا صارم ، بل امض الى استاذك ، وانظر أي حال هو عليه » • فأبيت

الى الملك الاشرف ، فرأيته ويده تحت خده وهو حزين ، والخروف مربوط بحبل ، والحطب ملقى على الارض • فقلت : ما بالك يا خونند ؟ فقال : ألا ترى هذا الحال يا صارم الدين ؟ وبكى • قلت : « لا تبك يا خونند ، والله والله والله هذا عيش التتر دائما ، وهذا حالهم • والله يا خونند ما فعلوا هذا استقلالا بك ، ولكن هذا خيار عيشة التتر » • فتبسم الملك الاشرف وقال : « هكذا تكون الملوك ، وبهذا الحال والرجال تملك الملوك البلاد » •

وبينما أنا اتحدث مع الملك الاشرف ، اذ ورد مرسوم هلاوون بحضوره بين يديه ، فوالله لقد رأيت الملك الاشرف تغير لونه ، وما رأيت الملك تغير لونه قبلها • ولقد كسر الملك الاشرف الخوارزمية وهم ستة آلاف وهو في ألف وخمسمائة فارس ولم يتغير لونه ، ولقد كسر التتر في وقت كان التتر في ألفي وخمسمائة فارس والملك الاشرف في ثمانمائة فارس ولم يتغير لونه •

ولما وقف الملك الاشرف بين يدي هلاوون ، وأنا ماسك بشماله والحاجب ماسك يمينه • والله لقد رأيت الملك الاشرف وهو يرتعد مثل القصبة ، ولم يستطع الوقوف على رجله وذلك خوفا من هلاوون •

وكان الملك الاشرف شابا حسن الوجه ، أسمر اللون بحمرة ، تام القامة بوجهه شامات متفرقة • وكان لابسا قباء تتريا أخضر بينود أطلس أحمر ، وخف بلغاري بكوابج ذهب وتخفيفة مزركشة • فنظرت طفز خاتون للملك الاشرف ، ونظرت الى هلاوون وقالت : « ان هذا شاب مليح وفارس المسلمين ، وهكذا تكون الملوك » • فنظر هلاوون نحوها وتبسم وقال : « انما نحن الملوك الذين نحضر هذه الملوك بين

أيدينا وقوفا أذلة خائفين من سطوتنا» • كل هذا والملك الأشرف واقف بين يدي هلاوون لا يدري ما يصنع به الدهر • ثم رفع هلاوون رأسه وقال : «يا أشرف! تمنن ما تختار؟» فقبل الملك الأشرف الأرض ثلاث مرات • قال الصارم : فقلت له : اطلب منه أن يهبك هذا البرج الذي في القلعة الذي فيه أمك واخواتك وبناتك وحريم الملوك وبنات الملك الناصر يوسف وحريمه ، ومتى لم تطلب منه هذا البرج في هذه الساعة والا في هذه الليلة تملك التتار قلعة حلب وتصبح حريم الملوك الإسلامية جواري لهذه الست طقز خاتون • قال الملك الأشرف : « لا يكون يقتلني » • فقلت له : ان التتر لا يقتلون من يكون عندهم بمنزلة الضيف •

ثم قال هلاوون لثاني مرة : « اطلب ما تختار يا أشرف سلطان » • فقال الملك الأشرف : « اتمنى على القان أن يهب لي هذا البرج الذي فيه حريمي وحريم الملك الناصر وحريم الملوك الذين هم هاربون من سطوة القان » • فأغضب هلاوون ذلك ، وأطرق الى الأرض وقال : « اطلب غير هذا » • فسكت الملك الأشرف • فنظرت طقز خاتون الى الملك هلاوون وقالت : « ما تستحي ! يطلب منك هذا الملك هذا البرج ، وتمنعه عنه ، والله لو طلب مني حلب ما منعتها عنه ، فانه فارس المسلمين » • قال هلاوون : « انما منعتك ذلك لاجلك ، لتكون بنات الملوك ونسأؤهم جواري بين يديك » • قالت : « أنا قد اعتنقتهم لوجه الله تعالى ولاجل الملك الأشرف » • فعند ذلك رسم هلاوون للملك الأشرف بما طلب • وقبل الأشرف يد هلاوون ثلاث مرات •

قال الصارم : لما قبل الملك الأشرف يد هلاوون ورجع الينا ووقف بيننا وأراد أن يقبل الأرض ، وأنا ماسك بشماله والحاجب يمينه ، والله لقد قبل الملك الأشرف الأرض وأراد القيام فلم يستطع القيام وذلك

خوفا من هلاوون ، فأقمته أنا والحاجب بباطيه ، وقلت له تثبت وقرأت
« يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة » *

قال الصارم أزيك الاشرفي : قال لي هولاکو في جملة كلامه : « يا
صارم ، تختار أن تكون مع الملك الاشراف استاذك او تكون معي ؟ » *
فقبلت الارض وقبلت يده ، وقلت : « ما أفارق وجه القان » * وكان كذبا
مني * ثم رسم هولاکو بالتوجه الى الشرق ، وجعل كتبغانويين نائبا له
بحلب وأعمالها ، وييدرا نائبا له بدمشق وأعمالها * وتوجه الى الشرق
واستصحب الصارم صحبته ، والمماليك الترك البحرية الذين كانوا
محبوسين بقلعة حلب وهم : سنقر الاشقر ، وسكز ، وبرامق ، وبكمش
المسعودي * وكانوا سبع نفر وقيل تسعة *

قال الصارم : لما وصل هولاکو الى اعزاز ووصل الى بلاد الموصل
طلبني ، وقال : يا صارم ، تختار المقام عندي وأنا اعطيك طبلخاناه (١) ،
أو تختار المقام بأرضك بالشام ؟ « فقبلت يده وقلت : « ما أفارق وجه
القان » *

قال : لا ، الشام احب اليك ، فان أهلك وأولادك وأملاكك بالشام»

(١) لا نعلم شيئا عن نظام امرة طبلخاناة في العهد المغولي ، ولعله كان
على غرار النظام المتبع في العهد المملوكي حيث كان صاحب امرة طبلخاناه
ممن يقتنون اربعين فارسا من المماليك ، ليساهم بهم في حروب الدولة .
ومن مميزات هذا الامير عن دونه مرتبة ، ان تكون له فرقة موسيقى حربية
تسمى الطبلخاناه تدق بالاتها على باب داره . ومن أمراء الطبلخاناه كان ولاية
الاعمال - المدبرون - وصغار كبار الموظفين مثل نائب الدوادار ووالي القلعة
ومقدم المماليك . راجع (القلقشندي : صبح الاعشى ج٤ ص ٨ ، ١٣ ،
١٥ ، ٥٠) .

وأمر لي بالخيل والاموال والانعام ، ورسم للملوك والامراء الذين عنده
وفي خدمته أن يعطيني كل منهم على قدره . فوالله العظيم لما انفصلت من
بين يدي هولوكو ، لم أعلم ما كان حصل لي من الاموال والتحف ،
لكن الذي عرفته من عدة الخيل ألف وخمسمائة فرس ، ومن القماش عشرة
آلاف تفصيله ما بين مروزي وكمخى ونسيج اطلس وعتابي وغير ذلك .
ولما أمرني أن اتوجه الى الشام ، قال لي في جملة كلامه « يا صارم ، أنت
تعلم ما فعلنا معك من الخير ، واولادي عندك كتبغا وييدرا هما عندي
أعز من اولادي ، يكونان تحت نظرك ، ويكون حسبك عليهما » . كل
هذا وأنا أقبل الارض وأقبل يده . ثم قال لي : « يا صارم ، اذا وصلت
الى كتبغا ، أمسك رقبته بيدك » . ومسك هولوكو رقبتي بيده ، وقال
لي : « قل لكتبغا ان بعلبك ودمشق وبلاد الشام بلادي وتحت مملكتي ،
فما يحل لنا أن نظلم الرعية ، كيف تجرأت وأخذت صندوق ذهب من
رجل من أهل بعلبك ؟ اردد اليه ذهبه والا تموت . ولا ترد يدك من
رقبته الى أن يرد الى صاحب الذهب ذهبه » .

وقال لي هولوكو لما ودعته : « يا صارم ، اذا وصلت الى كتبغا
وييدرا ساعدهم على فتح بخش الفأر (١) - يعني بذلك الديار المصرية -
فانى أمرتهم أن يفتنحوا مصر » . قل الصارم : ان التتار مثل مصر عندهم

(١) يعنى جحر الفأر . وكانت مصر تعرف كذلك عند التتار باسم
« كروان سراي » ففي الخطاب الذي وجهه هولوكو الى الملك الناصر يوسف
صاحب الشام يقول : وقد بلغنا ان تجار الشام وغيرهم انهزموا بأموالهم
وحريمهم الى كروان سراي ، فان كانوا في الجبال نسفناها ... الخ .
والمقصود بكلمة كروان سراي هو محط الرحال او فندق المسافرين . ولعل
تسمية مصر بهذا اللفظ يرجع الى انتهاء معظم الطرق التجارية اليها من
سائر جهات الشرق والغرب في القرون الوسطى . راجع (المقرئزي :
السلوك ج ١ ص ١٦٦ حاشية رقم ٣) .

مثل بخش الفأر ، اذا عبر من مكان لا يخرج الا منه وذلك لضيق المسلك .
ولما أمرني هولاءكو بما أمرني به امتثلت أمره بالسمع والطاعة ،
ثم توجهت الى الشام ، فوجدت التتار قد اجتمعوا على نهر الاردن ، فلما
رأوني نزلوا عن خيولهم ، وقبلوا بين عيني ، وذلك اجلال كون عيني
قريبة من النظر الى وجه الملك هولاءكو . ثم ابلغت كتبغا ما كان من أمر
الصندوق الذهب ، وان الملك هولاءكو رسم انك ترد الصندوق الى
صاحبه . فامتثل الامر بالسمع والطاعة ، ورد الصندوق الى صاحبه والله
أعلم .

قال الصارم : لما ودعت الملك هلاوون من بلاد الموصل ، قال لي في
جملة كلامه : «يا صارم ، اشكر نعمتي عليك » . قلت : يا خوند ، أيد
الله القان ، لك على نعم كثيرة من الله تعالى ومنك . قال : تعرف كيف
جتني ؟ قلت : نعم . قال عظمتك في أعين الملوك الى أن صرت تشفع فيهم
عندي ، ويقبلوا يدك كما كنت تقبل أيديهم » . ثم قال : « يا صارم ،
اشكر نعمتي » . فقبلت يده وقلت : يحفظ الله القان ، نعمتك على كثيرة .
قال : « ولا مثل هذه النعمة ؟ » قلت : وما هي ؟ قال : في ليلة كذا وكذا ،
ونحن على حلب ، تحدثت معك بلسان التركية ثلاث كلمات ، والله لم يكن
جرى مني هذا قبلها لاحد ، وما فعلت معك هذا الا لكي تتوصى
باولادي كتبغا وييدرا ، وتعمل معهما كما فعلت معك ، ولا يجيئني كتابك
ان شاء الله تعالى الا بعد أن تكونوا فتحتم مصر .

قال الصارم : لما قدمت الشام ، وجدت التتار مجتمعين على نهر
الاردن ، وقد خرجوا قاصدين الديار المصرية . وقد خرج المسلمون
للقائهم . فلما علمت أن التتار لا بد لهم من الديار المصرية ، بعثت غلاما

لي في صفة جاسوس ، وأمرته ان يجتمع بالملك المظفر قطز ، والامير بيبرس البندقداري ، وبلبان الرشيدي ، وسنقر الرومي ، ويعرفهم أن التتار لا شيء ، فلا تخافوا منهم ، وأن تكون ميسرة المسلمين قوية بالخييل والرجال ، وعرفهم بأن التتار في عسكر قليل . وأوصيته أن يوصي المسلمين أن يكون الملتقى عند طلوع الشمس . فلما وصل غلامي الى عسكر المسلمين ، وجدهم خائفين من التتار خوفا عظيما ، فاجتمع ببعض الامراء الذين عرفته بهم ، وعرفهم ما أوصيتهم به . وكنت قلت في جملة كلامي : قل للامراء لا تخافوا ، هأنذا وأصحابي والملك الاشرف ننهزم بين أيديكم ، والله وكذلك كان . فلما سمع الامراء كلام غلامي ، قال بعضهم لبعض : لا يكون هذا معمولية على المسلمين » .

فلما كان ملتقى الجمعين على عين جالوت ، طلعت الشمس علينا ، وظللت عساكر الاسلام . وكان أول سنجق سبق ، أحمر وأبيض ، وكانوا لابسين العدد المليحة . وأشرفت الشمس على تلك العدد ، فطلبني كتبغا وقد بهت هو والتتار الذين معه لكثرة تلك العساكر وحسن ما عليهم ، وجمالهم وهم منحدرون من الجبل . وقال لي : يا صارم ، هذا رنك (١) من ؟ قلت : سنقر الرومي . ثم ظهرت سناجق صفر . قال : هذا رنك من ؟ قلت : بلبان الرشيدي . ثم تابعت الأطلاب أولا فأولا ، وانحدروا من سفح الجبل . ودقت الكوسات (٢) والطبلخانات ، وامتلا الوادي والبر

(١) سبق أن اشرنا الى أن كلمة رنك معناها شعار فيه رسوم تدل على الوظيفة التي يشغلها صاحب هذا الشعار . وكان من عادة كل أمير مملوكي كبير أو صغير أن يكون له رنك يخصه . وبينما كانت رنوك المسلمين في المشرق تدل على الوظائف ، اذا بها في اوربا العصور الوسطى ترمز للاسر الافطاعية . فكل اسرة لها شعار خاص تتميز به عن غيرها .

(٢) الكوسات آلات نحاسية مثل الصاجات .

من العياط ، وغابت الفلاحين وأهل القرى والبلدان من كل جانب • وكنت
غرا بمعرفة رنوك المسلمين ، فصار كتبغا يسألني : هذا رنك من ؟ فصرت
أي شيء طلع على لساني قلته •

ثم ان التتار انحازوا الى الجبل ، وفتح الله ونصر هذه الملة المحمدية
بالماليك الترك البحرية ، ولم يسلم من التتر من يرد خبر الى هلاوون ،
ولكن قتل الجميع ، ولم يرد خبرهم الا من كان مقيفا بدمشق أو حلب •
اتهى ما ذكره قرطاي (١) •

(١) يلاحظ ان هذا النص فضلا عن الحيوية التي يشتمل عليها ،
والاشارات القيمة التي يتضمنها ، فان له اهمية خاصة للتاريخ السياسي
والحضاري على السواء . وقد بالغ صارم الدين ازبك في الدور الذي قام
به خلال احداث تلك الفترة ، ولكن يبدو انه لم يغير من جوهر الحقائق
التاريخية .

ضميمة رقم - ٤ -

قال القلقشندي (١) :

وهذه نسخة كتاب ، كتب بها عن الملك المظفر قطز - وصاحب اليمن يومئذ المنصور (٢) - بالبخارة بهزيمة التتار ، وأظنها من انشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر (٣) ، وهي : -

أعز الله تعالى أنصار المعز الشريف العالى ، المولوي ، السلطان ، الملكي المنصوري ، وأعلا مناره ، وضاعف اقتداره ، تعلمه أنه لما كان النصف من شهر رجب (٤) ، فتح الله بنصر المسلمين على أعداء الدين .

..... أما النصر الذي شهد الضرب بصحته ، والظعن بنصيحته ، فهو أن التتر خذلهم الله تعالى ، استطالوا على الايام ، وخاضوا بلاد الشام ، واستنجدوا بقبائلهم على الاسلام :

سعى الطمع المردى بهم لحتوفهم ومن يمسكن ذيل المطامع يعطب

(١) القلقشندي : صبح الاعشى ج٧ ص ٣٦٠ - ٣٦٢ .

(٢) لعله الملك المنصور نور الدين عمر بن علي سلطان الدولة الرسولية

باليمن .

(٣) صاحب ديوان الانشاء أيام قطز وبيبرس وقلوون والاشرف خليل وتوفي سنة ١٢٩٢ م . وله كتاب تشریف الايام والعصور في سيرة المنصور تحقيق مراد كامل (القاهرة ١٩٦١) .

(٤) هذا التاريخ يتعارض مع ما ورد في المراجع العربية الاخرى من ان موقعة عين جالوت حدثت يوم الجمعة ١٥ رمضان سنة ٦٥٨ هـ ٣ سبتمبر ١٢٦٠ م .

فأقلعت بهم طرائق الضلال ، وسارت مراكب أمانهم في بحار الآمال ،
فتلك آمال خائبة ، ومراكب للظنون عاطبه ... هذا وعساكر المسلمين
مستوطنة في مواطنها ، جاذية عقبانها في وكور ظباها ، رابضة آسبادها
في غيل أفناها ، ما تزلزل لمؤمن قدم الا وقدم ايمانه راسخة ، ولا ثبتت
لاحد حجة الا وكانت الجمعة ناسخه ، ولا عقدت برجمة ناقوس الا
وحلها الآذان ، ولا نطق كتاب الا وأخرسه القرآن ♦

ولم تنزل أخبار المسلمين تنتقل الى الكفار ، وأخبار الكفار تنتقل الى
المسلمين ، الى ان خلط الصباح فضته بذهب الاصيل ، وصار اليوم
كأمس ، ونسخت آية الليل بسورة الشمس ، واكتحلت الاعين بمرود
السثبات ، وخاف كل من المسلمين اصدار البيات :

ينام باحدى مقتلته ويتقي بأخرى الاعادي ، فهو يقظان نائم!

الى ان تراءت العين بالعين ، واضطرم نار الحرب بين الفريقين ،
فلم تر الا ضربا يجعل البرق نضوا ، ويترك في بطن كل من المشركين
شلوا ، حتى صارت المفاوز دلاصا ، ومراتع الظبا للظبا عراصا ، واقتضت
آساد المسلمين المشركين اقتناصا ، ورأي المجرمون النار فظنوا أنهم
مواقعوها ولم يجدوا عنها مناصا ، فلا روضة الا درع ، ولا جدول الا
حسام ، ولا غمامة الا نقع ، ولا وبل الا سهام ، ولا مدام الا دماء ،
ولا نعم الا سهيل ، ولا معربد الا قاتل ، ولا سكران الا قتيل ، حتى
صار كافور الدين شقيقا ، وتلون الحصباء من الدماء عقيقا ، وضرب
النقع في السماء طريقا ، وازدحمت الجنائب في الفضاء فجعلته مضيقا ،
وقتل من المشركين كل جبار عنيد ، ذلك بما قدمت أيديهم ، « وما ربك
بظلام للعبيد » ♦

وقلت (١) : وهذه النسخة تلتقتها من أفواه بعض الناس ، ذكر أنه وجدها في بعض المجاميع فحفظها منه ، وهي في غاية من البلاغة ، الا أنها لا تخلو من تغيير وقع في بعض أماكنها ، ولعله من الناقل لها ، من حيث انه ليس من أهل هذه الصناعة • ولم يسعنى ترك ايرادها لما فيها من المحاسن ، ولانفرادها بأسلوب من الأساليب التي كتب بها السى ملوك اليمن ، فأوردتها على ما هي عليه ، وجزى الله خيرا من ظفر لها بنسخة صحيحة فقابلها عليها وصححها وأصلح ما فيها •

(١) هذا كلام القلقشندي معلقا على الرسالة .

ضميمة رقم (١) - ٥ -

نسخة من الهدنة التي عقدت بين الظاهر بيبرس ، وبين ملكة بيروت من البلاد الشامية ، في شهور سنة سبع وستين وستمائة حين كانت بيدها وهي :

استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ، وبين الملكة الجلييلة المصونة الفاخرة ، فلانة بنت فلان ، مالكة بيروت وجميع جبالها وبلادها التحتية مدة عشر سنين متوالية ، أولها يوم الخميس سادس رمضان سنة سبع وستين وستمائة ، على بيروت وأعمالها المضافة اليها ، الجاري عادتهم في التصرف فيها في أيام الملك العادل ابي بكر بن أيوب ، وأيام ولده الملك المعظم عيسى ، وأيام الملك

(١) القلقشندي : صبح الاعشى ج١ ص ١٤٤ ص ٣٩ - ٤٢ ، راجع كذلك ما قلناه عن هذا النص في هذا الكتاب ص ٢٢٤ وما بعدها .
(٢) سبقت الإشارة الى ان بعض المراجع العربية اطلقت على هذه الملكة اسم الدبونة وهو تعريب للفظ D'Ibelin وهو اسم الاسرة الحاكمة في بيروت ، وهي من الاسر العريقة أصلا في جزيرة قبرص . ومن المعروف ان اسم هذه الملكة التي حكمت بيروت وجبالها - أي محافظة جبل لبنان في عهد السلطان بيبرس هو أزابيلا Isabella بنت جون الثاني ابلين John II I belin الذي مات سنة ١٢٦٤ م . وقد عقدت هذه الملكة هدنة مع بيبرس سنة ٦٦٧ هـ (١٢٦٨ م) وفق الشروط المبينة في المتن . وصارت كلما سافرت الى قبرص ، تذهب الى لقاء السلطان بيبرس وتترك مملكتها وديعة بين يديه الى حين عودتها ، كما اتخذت لنفسها حرسا من المماليك . وتوفيت سنة ١٢٨٢ م . راجع (تاريخ ابن الفرات ج٧ ص ٣٥ وكذلك (Steven Runciman, A Hist. of The Crusades Vol. 3 P 329, 342, 343.)

الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز . والقاعدة المستقرة في زمنهم الى آخر الايام الظاهرية بمقتضى الهدنة الظاهرية . وذلك مدينة بيروت واماكنها المضافة اليها :

من حد جبيل الى حد صيدا ، وهي المواضع الآتي ذكرها :

جونية بحدودها ، والعذب بحدودها ، والعصفورية بحدودها ، والرواق بحدودها ، وسن الفيل بحدودها ، والرح والشويف بحدودها ، وانطلياس بحدودها ، والحديدة بحدودها ، وحسوس بحدودها ، واليشرية بحدودها ، والدكوانة وبرج قراجار بحدودها ، وقرينة بحدودها ، والنصرانية بحدودها ، وجلدا بحدودها ، والناعمة بحدودها ، ورأس الفقيه ، والوطاء المعروف بمدينة بيروت ، وجميع ما في هذه الاماكن من الرعايا والتجار ، ومن سائر أصناف الناس أجمعين ، والصادرين منها والواردين اليها من جميع أجناس الناس ، والمترددن الى بلاد السلطان « بيبرس » وهي :

الحميرة وأعمالها وقلاعها وبلادها وكل ما هو مختص بها ، والمملكة الانطاكية وقلاعها وبلادها ، وجبله واللاذقية وقلاعها وبلادها ، وحمص المحروسة وقلاعها وبلادها وما هو مختص بها ، ومملكة حصن عكا وما هو منسوب اليه ، والمملكة الحموية وقلاعها وبلادها وما هو مختص بها . والمملكة الرحبية وما هو مختص بها : من قلاعها وبلادها . والمملكة البعلبكية وما هو مختص بها : من قلاعها وبلادها . والمملكة الدمشقية وما هو مختص بها : من قلاعها وبلادها ورعاياها وممالكها . والمملكة الشقيفية وما يختص بها من قلاعها وبلادها ورعاياها . والمملكة القدسية وما يختص بها . والمملكة الحلبية وما يختص بها . والمملكة الكركية

والشوبكية وما يختص بها من القلاع والبلاد والرايا • والمملكة النابلسية ، والمملكة الصرخدية ، ومملكة الديار المصرية جميعها : بشعورها ، وحصونها ، وممالكها ، وبلادها ، وسواحلها ، وبرها ، وبحرها ، وراياها ، وما يختص بها ، والساكين في جميع هذه الممالك : المذكورة ، وما لم يذكر من ممالك السلطان وبلادها ، وما سيفتحه الله تعالى على يده ويد نوابه وغلماؤه يكون داخلا في هذه الهدنة المباركة ، ومنتظما في جملة شروطها ، ويكون جميع المترددين من هذه البلاد واليهما آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم وبضائعهم ، من الملكة فلانة وغلماؤها ، وجميع من هو في حكمها وطاعتها : برا وبحرا ، ليلا ونهارا ، ومن مراكبها وشوانيتها . وكذلك رعية الملكة فلانة وغلماؤها يكونون آمنين على أنفسهم وأموالهم وبضائعهم من السلطان ومن جميع نوابه وغلماؤه ومن هو تحت حكمه وطاعته : برا وبحرا ، ليلا ونهارا : في جيلة واللاذقية ، وجميع بلاد السلطان ، ومن مراكبه وشوانيته •

وعلى أن لا يجدد على أحد من التجار المترددين رسم لم تجر به عادة ، بل يجرون على العوائد المستمرة ، والقواعد المستقرة من الجهتين • وان عدم لاحد من الجانبين مال أو أخذت أخيدة ، وصحت في الجهة الاخرى ردت ان كانت موجودة ، أو قيمتها ان كانت مفقودة • وان خفي أمرها كانت المدة للكشف أربعين يوما ، فان وجدت ردت ، وان لم توجد حلف والى تلك الولاية المدعى عليه ، وحلف ثلاثة نفر ممن يختارهم المدعى ، وبرئت جهته من تلك الدعوى • فان ابى المدعى عليه عن اليمين حلف الوالي المدعى ، وأخذ ما يدعيه • وان قتل احد من الجانبين خطأ كان او عمدا ، كان على القاتل في جهته العوض عنه نظيره : فارس بفارس ، وراجل براجل ، وفلاح بفلاح • وان هرب أحد من الجانبين الى الجانب الآخر بمال لغيره ، رد من الجهتين هو والمال ، ولا يعتذر بعذر •

وعلى أنه إن تاجر فرنجي صدر من بيروت الى بلاد السلطان يكون
داخلا في هذه الهدنة ، وان عاد الى غيرها لا يكون داخلا في هذه الهدنة .

وعلى أن الملكة فلانة لا تمكن أحدا من الفرنج على اختلافهم من
قصد بلاد السلطان من جهة بيروت وبلادها ، وتمنع من ذلك وتدفع كل
منطرق بسوء ، وتكون البلاد من الجهتين محفوظة من المتجرمين المفسدين .

وبذلك انعقدت الهدنة للسلطان ، وتقرر العمل بهذه الهدنة والالتزام
بعهودها والوفاء بها الى آخر مدتها من الجهتين : لا ينقضها مرور زمان ،
ولا يغير شروطها حين ولا أوان ، ولا تنقض بموت أحد الجانبين .

وعند انقضاء الهدنة تكون التجار آمنين من الجهتين مدة أربعين
يوما ، ولا يمنع أحد منهم من العود الى مستقره ، وبذلك شمل هذه
الهدنة المباركة الخط الشريف حجة فيها ، والله الموفق في تاريخ كذا .

ثبت بأسماء المراجع

اولا : المصادر العربية

ابن الأبار :
ابو عبدالله محمد بن عبدالله البلنسي (ت
٦٥٨ هـ = ١٢٦٠ م)
« التكملة لكتاب الصلة » • نشر كوديرا •
(الجزءان الخامس والسادس من مجموعة
« المعجم » (الجزء الرابع من مجموعة المكتبة
الاندلسية)

ابن أبي الفضائل :
مفضل (ت ٦٧٢ هـ = ١٢٧٣ م)
« النهج السيد والدد الفريد فيما بعد
تاريخ ابن العميد » جزءان حققه وترجمه الى
الفرنسية مع مقدمة تاريخية •
المستشرق الفرنسي بلوشيه E. Blochet
(باريس ١٩١٢)

ابن الاثير :
على بن محمد الجزري الملقب بعز الدين
(ت ٦٣٠ هـ = ١٢٣٢ م) « الكامل في
التاريخ » ، ١٢ جزءا
(بولاق ١٢٩٠ هـ)

ابن اياس

ابو البركات محمد بن احمد (ت ٩٣٠ هـ =
١٥٢٣ م) كتاب تاريخ مصر المعروف باسم :
« بدائع الزهور في وقائع الدهور » ٣ أجزاء
(بولاق ١٣١١ - ١٣١٢ هـ) .

ابن بسام :

ابو الحسن علي الشنتريني (ت ٥٤٣ هـ =
١١٤٧ م) الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة
القسم الاول في جزئين والقسم الرابع الجزء
الاول (القاهرة ١٩٣٩ - ١٩٤٥) القسم
الثالث مخطوط بالاكاديمية التاريخية بمدريد
رقم ١٢ .

ابن بطوطة :

محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي (ت ٧٧٩ هـ =
١٣٧٧ م) تحفة النظار في غرائب
الامصار وعجائب الاسفار .
تحقيق نشر وترجمة دفريري وسانجونيتي
Defremery et Sanguinetti (باريس ١٩٢٢)

ابن حجر العسقلاني :

شهاب الدين احمد بن علي (ت ٨٥٢ هـ =
١٤٤٩ م) رفع الاصر عن قضاة مصر (في
آخر كتاب الولاية والقضاة للكندي طبعة
روفن جست) .

ابن حسول :

الوزير ابو العلاء (ت ٤٥٠ هـ = ١٠٥٨ م)
كتاب تفضيل الاثر الك على سائر الاجناد
حققه الاستاذ عباس الغزاوي في المعجزة التركية

بأنقرة (الجزء الرابع عدد ١٤ - ١٥ ،
١٩٤٠) *

ابن حوقل :
ابو القاسم محمد (القرن الرابع الهجري)
كتاب صورة الارض
(ليدن ١٩٣٩)

ابن خلدون :
عبد الرحمن بن احمد (ت ٨٠٨ هـ =
١٤٠٥ م) مقدمة تاريخ ابن خلدون
العبر وديوان المتبدأ والخبر (٧ أجزاء
بالمقدمة)
(القاهرة ١٢٨٤ هـ) *

ابن خلكان :
شمس الدين ابو العباس احمد بن ابراهيم
الشافعي (ت ٦٨١ هـ = ١٢٨٢ م) وفيات
الاعيان وانباء أبناء اهل الزمان جزءان
(بولاق ١٢٨٣ هـ)

ابن دقماق :
ابراهيم بن محمد بن ايدير العلائسي (ت
٨٠٩ هـ = ١٤٠٦ م) الانتصار لواسطة عقد
الامصار * (بولاق ١٨٩٣ م)

ابن سعيد المغربي :
على بن موسى (ت ٦٧٣ هـ = ١٢٧٥ م)
العيون الدعج في حلى دولة بني طنج * من
كتاب المغرب في حلى المغرب نشر كنوت
تلكوست

(ليدن ١٨٩٨) Knut Talquist

ابن شاهين الظاهري : غرس الدين خليل (ت ٨٧٣ هـ = ١٤٦٨ م)

• زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك •

(حققه بول رافيس Paul Râvisse

• (باريس ١٨٩٥)

ابن طباطبا : محمد بن علي المعروف بابن الطلقطي (ولد

٦٦٠ هـ = ١٢٦١ م) « الفخري في الآداب

السلطانية والدول الاسلامية »

(القاهرة ١٣١٩ هـ)

ابن فضل الله العمري : شهاب الدين احمد (ت ٧٤٢ هـ = ١٣٤١ م)

• مسالك الابصار في ممالك الامصار •

(حقق الجزء الخاص بوصف افريقية

والاندلس ، حسن حسني عبد الوهاب

بتونس)

التعريف بالمصطلح الشريف

(القاهرة ١٣١٢ هـ)

جورج أبو الفرج

مختصر الدول

(بيروت ١٨٩٠)

ابن العبري :

ابو العباس احمد بن محمد (كان حيا سنة

٧١٢ هـ = ١٣١٢ م) البيان المغرب في أخبار

الاندلس والمغرب

(الجزءان الاول والثاني طبعة بيروت ١٩٥٠)

ابن عذارى :

ابن غرسية :

الكاتب

رسالة يفضل فيها العجم على العرب
(المخطوط رقم ٥٢٨ بالاسكوريال والمخطوط
رقم ١٢ بالاكاديمية التاريخية بمديرية) .

ابن الفرات المصري :

ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧هـ
= ١٤٠٥ م) تاريخ ابن الفرات المعروف باسم
الطريق الواضح المسلوكة الى معرفة تراجم
الخلفاء والملوك . تسعة اجزاء (تشمل اخبار
سني ٥٠١ - ٧٩٩ هـ)

حقق قسطنطين زريق الاجزاء ٧ ، ٨ ، ٩ التي
تضم أخبار سني ٦٧٢ - ٧٩٩ هـ (بيروت
١٩٣٩) أما الجزء السادس الخاص بأحداث
سني ٦٢٥ - ٦٥٩ هـ يوجد بمكتبة الفاتيكان
ويتضمن تاريخ قرطاي العزى وأخبار صارم
الدين أزبك التي نشرها المستشرق ليفي
دلافيدا (انظر القسم الاوربي) Levi della
. Vida

ابن الفوطى :

كمال الدين عبد الرزاق بن احمد الشيباني
البغدادي (ت ٧٢٣ هـ = ١٣٢٣ م) الحوادث
الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة
(بغداد ١٣٥١ هـ)

ابن واصل

جمال الدين ابو عبدالله محمد بن سليم
الشافعي (ت ٦٩٧ هـ = ١٢٩٧ م) مفرج

الكروب في اخبار بني أيوب
(اعتمدنا على الصور الشمسية التي بمكتبة
جامعة الاسكندرية مأخوذة عن نسخة المكتبة
الاهلية بباريس ونسخة جامعة كمبردج
بانجلترا) وقد حقق الدكتور جمال الشيال
معظم الجزء الخاص بالدولة الايوبية في ثلاثة
اجزاء وبقي الجزء الخاص بقيام دولة المماليك
ونهاية الدولة الايوبية ، مخطوطا .

ابوشامة :

عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم شهاب
الدين الشافعي 'الدمشقي' (ت ٦٦٥ هـ =
١٢٦٨ م)

١) كتاب الروضتين في اخبار الدولتين
النورية والصلاحية . جزءان .
(القاهرة ١٢٨٧ هـ)

٢) الذيل على الروضتين
تحقيق عزت العطار الحسيني الدمشقي
بعنوان : « تراجم رجال القرنين السادس
والسابع »
(القاهرة ١٩٤٧)

(وقد اعتمدنا كذلك على نسخة خطية من
هذا الكتاب بمكتبة البلدية بالاسكندرية في
ثلاثة اجزاء رقم ٣٥٥٣ د)

ابو الفداء :
اسماعيل بن على عماد الدين صاحب حماة
(ت ٧٣٢ هـ = ١٣٣١ م) المختصر في اخبار
البشر ٤ أجزاء
(القسطنطينية ١٢٨٦)

ابو المحاسن :
جمال الدين بن يوسف بن تغرى بردى
(ت ٨٧٤ هـ = ١٤٦٥ م)
١) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة
ظهر منه ١٣ جزءا
(القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٤٣)
٢) المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي
(مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١١١٣
في ثلاثة أجزاء) .

أرشيالد لويس :
القوى البحرية والتجارية في حوض البحر
المتوسط (من ٥٠٠ - ١١٠٠ م) ترجمة
احمد محمد عيسى

الاصفهاني :
أبو الفرج (ت ٣٥٦ هـ = ٩٦٧ م) كتاب
الاغاني ٢١ جزءا
(القاهرة ١٢٨٥ هـ) .

الاصفهاني :
عماد الدين محمد بن محمد بن حامد
(ت ٥٩٧ هـ = ١٢٠١ م) دولة آل سلجوق
(القاهرة ١٩٠٠)

أمارى :

ميشيل
المكتبة العربية الصقلية
(ليبسك ١٨٧٥)

البلوى :

ابو محمد عبدالله بن محمد المديني (القرن
الرابع الهجري) سيرة احمد بن طولون
نشره محمد كرد على، دمشق ١٩٣٩)

البلوى :

يوسف بن الشيخ ، المالقي الاندلسي
(ت ٦٠٣ هـ = ١٢٠٧ م) كتاب ألف باء .

الثعالبي :

ابو منصور عبد الملك (ت ٤٢٩ هـ = ١٠٣٧ م)
تسمية الدهر ٤ أجزاء
(القاهرة ١٩٣٩)

ثقة. الامام علم الاسلام :

الداعى
المجالس المستنصرية
(نشر كامل حسين في سلسلة المخطوطات
الفاطمية)
(القاهرة ١٩٤٧)

جورجي زيدان :

تاريخ التمدن الاسلامي ٥ أجزاء
(القاهرة ١٩٠٢ - ١٩٠٦)

جوزيف. نسيم :

لويس التاسع في الشرق الاوسط

(القاهرة ١٩٥٩)
العدوان الصليبي على مصر
(الاسكندرية ١٩٦٨)

حاجي خليفة :
مصطفى المسى كاتب جليبي (ت ١٠٦٧ هـ =
١٦٥٧ م) كشف الظنون على اسامى الكتب
والفنون (اسطنبول ١٢٦٠ هـ)

الحسن بن عبدالله :
(ت ٧٠٨ هـ = ١٣٠٨ م)
آثار الاول في ترتيب الدول
(القاهرة ١٣٠٥ هـ)

حسن ابراهيم حسن :
الفاطميون في مصر
النظم الاسلامية بالاشتراك مع على ابراهيم
حسن
(القاهرة ١٩٣٩)

حسن حبشي :
نور الدين والصليبيون
(القاهرة ١٩٤٨)

حسن السندوبي :
ابو العباس المرسي ومسجده الجامع
بالاسكندرية
(القاهرة ١٩٤٤)

- حسن محمود :
الاسلام والثقافة العربية بافريقية
(القاهرة ١٩٦٣)
- الخزرجي :
على بن حسن (القرن الثامن الهجري)
العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية
جزءان
(Gibb memrial vol. III fasc. 4, 5.)
- محمد الخضري :
محاضرات في تاريخ الامم الاسلامية جزءان
(القاهرة ١٩٣٠)
- الدوري :
محمد عبد العزيز
العصر العباسي الاول
(بغداد)
- الرمزي :
١٣٠٢
تلفيق الاخبار وتلقيح الآثار في وقائع قرآن
وبلغار وملوك التتار جزءان
(أور نبورغ ١٩٠٨)
- زترستين :
ك.ه ف
تاريخ سلاطين المماليك
نشرة زترستين
(ليدن ١٩١٩)

زيادة :

محمد مصطفى

بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك
في مصر مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة
المجلد الرابع سنة ١٩٣٦

السبكي :

تاج الدين ابو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين
(ت ٧٧١ هـ = ١٣٧٠ م)
طبقات الشافعية الكبرى ٥ أجزاء
(القاهرة ١٣٢٤ هـ)

سركيس :

يوسف يليان

معجم المطبوعات العربية والمعربة
(القاهرة ١٩٢٨)

سعيد عبد الفتاح عاشور :

الحركة الصليبية جزءان

(القاهرة ١٩٦٣)

مصر في عصر دولة المماليك البحرية

(القاهرة ١٩٦٩)

السلامي الناصري :

ابو العباس شهاب الدين احمد بن خالد

(ت ١٣١٥ هـ = ١٨٩٧ م) الاستقصا

لاخبار دول المغرب الاقصى ٤ أجزاء

(القاهرة ١٣٠٦ هـ)

السيد الباز العريني :

مصر في عصر الايوبيين
(القاهرة ١٩٦٠)

السيوطي :

جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر (ت
٩١١ هـ = ١٥٠٥ م) تاريخ الخلفاء امراء
المؤمنين القاسمين بأمر الامة
(القاهرة ١٢٥١ هـ)

حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة
جزءان (القاهرة ١٣٢٧ هـ)

أشباح :

يوسف
تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين
جزءان ترجمه عن الالمانية عبدالله عنان
(القاهرة ١٩٤٠)

شفيق :

أحمد
الرق في الاسلام
ترجمة احمد زكي عن الفرنسية
(القاهرة ١٣٠٩ هـ)

الضبي :

ابو جعفر احمد بن يحيى القرطبي (ت ٥٩٩ هـ
= ١٢٠٣ م بغية المتمس في تاريخ أهل
الاندلس
(مدريد ١٨٨٤)

صدر الدين ابو الحسن : على بن ناصر بن على الحسيني (توفي في
في أوائل القرن السابع الهجري) اخبار
الدولة السلجوقية *
نشره محمد اقبال في جامعة البنجاب
(لاهور ١٩٢٣)

الطبرى : ابو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ =
٩٢٣ م) تاريخ الرسل والملوك ١٣ جزءا
طبعة دي خوية De Goeje
(ليدن ١٨٧٩ - ١٨٩٠)

العبادي : احمد مختار
الصقالبة في اسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعوبية
(مدريد ١٩٥٣)
تاريخ الاندلس لابن الكردبوس ووصفه
لابن الشباط نصاب جديدان
(مدريد ١٩٦٦)
دراسات في تاريخ المغرب والاندلس
(الاسكندرية ١٩٦٨)
الموحدون والوحدة الاسلامية
(مجلة التربية الوطنية بالرباط ١٩٦٢)

العبادي : عبد الحميد
المجمل في تاريخ الاندلس
(القاهرة ١٩٥٨)

صور وبحوث في التاريخ الاسلامي
(الاسكندرية ١٩٤٨)

عباس العزاوي :

تاريخ العراق بين احتلالين ٣ أجزاء
(بغداد ١٩٣٥)

ابو بكر (عاش في القرن الثامن الهجري)
كنز الدرر وجامع الغرر أو الدررة الزكية في
اخبار الدولة التركية تسعة أجزاء في ٢٧
مجلد (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم
٢٥٧٨)

عبدالله بن أيك :

طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي
(الاسكندرية ١٩٦٧)
تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس
(بيروت ١٩٦٢)

عبد العزيز سالم :

النزعات الاستقلالية في الخلافة العباسية
(القاهرة ١٩٤٦)

عبد الفتاح السرنجاوي :

الناصر صلاح الدين الايوبي
(القاهرة ١٩٥٨)

عبد المنعم ماجد :

نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في
مصر (القاهرة ١٩٦٤)

العذرى :

احمد بن عمر بن أنس المعروف بابن الدلاي
(ت ٤٧٨ هـ = ٩٨٨ م) ترصيع الاخبار
وتنويح الآثار والبستان في غرائب البلدان
والمسالك الى الممالك . نشر عبد العزيز
الاهواني (مدريد ١٩٦٥)

علي ابراهيم حسن :

دراسات في عصر المماليك
(الناصر محمد ، سيرته ونظم الحكم في
عهده)
(القاهرة ١٩٤٢)

ابو الحسن نجم الدين اليمنى (ت ٥٦٩ هـ
= ١١٨٧٤ م)
تاريخ اليمن نشره كاي Kny
(لندن ١٣٠٩ هـ)

عمارة اليمنى :

محمد عبدالله
الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية
(القاهرة ١٩٣٧)
دولة الاسلام في الاندلس
(القاهرة ١٩٤٣)

عنان :

بدر الدين ابو محمد بن أحمد (ت ٨٥٥ هـ
= ١٤٥٢ م)

العيني :

عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان
الجزء الخاص بحوادث سنة ٦٥٦ - ٦٧٣ هـ
(مخطوط بمكتبة دار الكتب المصرية رقم
١٥٨٤)

فؤاد عبد المعطى الصياد :
مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله
الهمداني (القاهرة ١٩٦٧)

القلقشندي :
ابو العباس احمد (ت ٨٢١ هـ = ١٤١٨ م)
صبح الاعشى في صناعة الانشاء ١٤ جزءا
(القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٩ م)

القرماني :
ابو العباس احمد بن يوسف (ت ١٠١٩ هـ
= ١٦١٠ م) اخبار الدول وآثار الاول
(القاهرة ١٢٩٠ هـ)

الكتبي :
فخر الدين محمد بن شاکر (٧٦٤ هـ =
١٣٦٢ م) فوات الوفيات
جزءان (بولاق ١٢٩٩ هـ)

محمد
خطط الشام
٦ أجزاء
دمشق ١٩٢٥ م)

كليسيا سارنلي :

مجاهد العامري
(القاهرة ١٩٦١)

الكندي :

ابو عمر محمد بن يوسف (ت ٣٥٠ هـ =
٩٦١ م) الولاة والقضاة
طبعة روفن جست R. Guest
(بيروت ١٩٠٨ م)

لسان الدين بن الخطيب :

الوزير محمد بن عبدالله (ت ٧٧٦ هـ =
١٣٧٤ م) الاحاطة في اخبار غرناطة جزءان
(القاهرة ١٣١٩ هـ)

اعمال الاعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من
ملوك الاسلام (الجزء الخاص بتاريخ اسبانيا
حققه ليفي بروفسال (بيروت ١٩٥٦)
(والجزء الخاص بتاريخ المغرب وصقلية حققه
احمد مختار العبادي ، وابراهيم الكتاني ،
الدار البيضاء ١٩٦٤)

نفاضة الجراب في علالة الاغتراب تحقيق
احمد مختار العبادي
(القاهرة ١٩٦٧)

مبارك :

علي
الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة
٢٠ جزءا (بولاق ١٣٠٥ - ١٣٠٦ هـ)
آدم

متز :

الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري
جزءان ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريده
(القاهرة ١٩٤٠ - ١٩٤١)

ابن ماتي

الاسعد (ت ١٣٠٩ م)
قوانين الدواوين ، نشر عزيز سوريال
(القاهرة ١٩٤٣)

محمد جمال الدين سرور :

الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عهده
(القاهرة ١٩٣٨)
دولة بني قلاوون في مصر
(القاهرة ١٩٤٧)

مختار :

اللواء محمد
التوفيقات الالهامية
(بولاق ١٣١١ هـ)

المراكشي :

محي الدين عبد الواحد بن علي التميمي
(ولد سنة ٥٨١ هـ = ١١٨٥ م) المعجب في
تلخيص أخبار المغرب * نشره دوزي
(ليدن ١٨٨١ م)

المقري :

ابو العباس احمد بن محمد التلمساني (ت
١٠٤١ هـ = ١٦٣٢ م) نفح الطيب من غصن
الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين
بن الخطيب ١٠ أجزاء نشر الشيخ
محي الدين عبد الحميد
(القاهرة ١٩٤٩)

المقريزي :

تقي الدين احمد بن علي (٨٤٥ هـ = ١٤٤٢ م)
السلوك لمعرفة دول الملوك تحقيق محمد
مصطفى زيادة
(القاهرة ١٩٣٦)

المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار
جزءان (بولاق ١٢٧٠ هـ)

البيان والاعراب فيمن دخل مصر من الاعراب
(القاهرة ١٣٣٤ هـ)
اغاثة الامة بكشف العمّة

تحقيق محمد مصطفى زيادة وجمال الدين
الشيال (القاهرة ١٩٤٠)

اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا
(القاهرة ١٩٤٨)

كتاب أخبار مجموعة في فتح الاندلس وذكر
أمرائها نشر وترجمة لافوتتي الكنترا
(مدريد ١٨٦٧)

الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية
نشر علوش
(الرباط ١٩٣٦)

مؤلف مجهول :

مؤلف مجهول :

ميخائيل عواد :

المآصر في بلاد الروم والاسلام
(بغداد ١٩٤٧)

عثمان بن ابراهيم (ت ١٢٥٨ م)
كتاب لمع القوانين المضية في دواوين الديار
المصرية *

Buletin Des Etudes Orientales, Tome
XVI 1958 - 1960 (Damas 1961)

شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (ت
٧٣٢ هـ = ١٣٣٢ م) نهاية الارب في فنون
الادب

(مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩)

النابلس

النويري :

النوري :
محمد بن القاسم السكندري المالكي (عاش
في القرن الثامن الهجري) الامام بالاعلام لما
جرت به الاحكام المقضية في واقعة
الاسكندرية
(مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤١٩٣)

ياقوت :
شهاب الدين ابو عبدالله الحموي الرومي
(ت ٦٢٦ هـ = ١٢٢٩ م) معجم البلدان
في معرفة المدن والقرى والخراب والعمار
والسهل والوعر في كل مكان • ثمانية أجزاء •
(القاهرة ١٩٠٦)

اليقوبي :
احمد بن ابي يعقوب (القرن الرابع الهجري)
كتاب البلدان نشر دي خويه •
(ليدن ١٨٦٠ م)

Ameer Ali : S.

A Short History of the Saracens
(London 1900).

Aristole :

The Politics of Aristole, Book I
tr. by J.E. Welldon
(London 1932).

Arnold : Sir Thomas W.

The Caliphate
(Oxford 1924).

Atiya : A. S.

The Crusade in the Later middle ages
(London 1938).

Barthold : W.

Histoire des Turcs d'Asie Centrale
Adaptation Française par Mme. Danskt's
(Paris 1946).

Blochet : E.

Histoire des Sultans Mamlouks par Mufazzal Ibn Abil
Fazail.

Texte Arabe publié et traduit en français.
(Patrologia Orientalis, XII 3) 2 vols.
(Paris 1912).

Brockemann : Carl.

Geschichte der Arabischen Litteratur.
(Weimer et Berlin, 1898 - 1902).

Browne : Edward G.

A Literary History of Persia. 4 Vols.
(Cambridge 1909-1930).

Camb. Med. Hist.

Cambridge Medieval History, Vols. IV, VI,

Chabas : R.

Mochehid Hijo de Yusuf, y Ali Hijo de Mochehid.
en el Homenaje a Don Francisco Codera.
(Zaragoza 1904).

Codera : F.

Mochehid conquistador de Cerdena.
en el centenario di Michele Amari
(Palermo 1910).

Creswell :

The Works of Sultan Bibars Al-Bunduqdari in Egypt.
Bulletin de l'Istitut Française d'Archeologie Orientale,
tome 26, fasc. 2

Czaplicka : M.

The Turks of Central Asia in History and the present day.
(Oxford 1918).

Davis : E. J.

Invasion of Egypt in A. D. 1249 (A.H. 647) by Louis IX of
France.
(London 1899).

Davis : Fox

A Complete guide to Heraldry.

Demombynes : G. M.

La Syrie a l'Epoque des Mamelouks.
(Paris 1922).

Dozy : Reinhart.

1) Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la conquete
des Almoravides Tr. in English by Francis Griffin.
(London 1913).

2) Supplement aux Dictionnaires Arabes. 2 Vols.
(Leiden 1881).

3) Dictionnaire des Noms des Vetements chez les Arabes.
(Amesterdam 1845)

Devonshire : R. L.

Rambles in Cairo.
(Cairo 1931).

Ency. Isl. :

Encyclopedia of Islam

Ency. Brit. :

Encyclopaedia Britannica

Felix Pareja : M.

Islamologia 2 tomas
(Madrid 1952-1954).

Garcia Gomez : E.

El Collar de la Poloma de Ibn Hazm.
(Madrid 1952).

Guillaume :

Legacy of Islam.

(Oxford 1931).

Gibb : H. A. R.

The Arab Conquests in Central Asia.
(R.A.S., London 1923).

Goldziher : I.

Die Su'ubijja unter den Muhammedanern in Spanien
(Z. D. M. G. 1899).

Heyd : W.

Histoire du Commerce du Levant au Moyen age, 2 Vols.
(Leipzig 1889).

Herzfeld : Ernst

Damascus : Studies in Architecture. Ars Islamica,
Vols. XI - XII.

Hitti : P. K.

The History of the Arabs.
(London 1934).

Howorth : Sir Henry.

History of the Mongols, Vols. I, III.
(London 1876 - 1880).

Joinville : Jean Sire de

— Memoirs of John Lord de Joinville by Thomas Johnes
(2 parts in one vol.)
(Oxford Press 1807).

Memoirs of the Lord of Joinville, by Wedgwood
(London 1906)..

— Histoire de Saint Louis, Par Natalis de Wailly.
(Paris 1874).

— Saint Louis King of France, by James Hutton.
(London 1868).

— The History of Saint Louis, by Joan Evans.
(Oxford 1938.)

Kay : H. Cassels

Yaman, its early medieval History, by Omara.
(London 1892).

King : E. J.

The Knights Hospitallers in the Holy Land.
(London 1931).

Lybyer :

The Ottoman Empire in the time of Suleiman.
(Cambridge 1913).

Lane - Poole : S.

— History of Egypt in the Middle Ages
(London 1925).

— Medieval India under Muhammadan Rule .
(London 1912).

— The Muhammadan Dynasties .
(Paris 1925).

— Saladin and the fall of the Kingdom of Jerusalem.
(New York 1898).

— The Story of Cairo .
(London 1902).

Le Strange : G.

— The Lands of the Eastern Caliphate
(Cambridge 1930).

— Palestine under the Moslems.
(London 1890).

Levi Della Vida

L'Invasione dei Tartari in Syria nel 1260, di un testimone
oculare.

(Orientalia, Vol. IV, Roma 1935).

Lévi Provençal :

— L'Espagne Musulmane aux Xème Siècle
(Paris 1932).

— Histoire de l'Espagne Musulmane, 3 tomes
(Paris 1950).

— La Peninsule Iberique du Moyen Age d'après le Kitab
Ar-Rawd al Mitar de Abd al Munim al Himyari
(Leiden 1938).

Muir : Sir Williams

— The Caliphate, its rise, decline and fall.
(Edinburgh. 1924).

— The Mameluk or Slave Dynasty of Egypt
(London 1896).

Nickolson : Reymond A.

Literary History of the Arabs
(London 1914).

Oman : Sir Charles

A History of the Art of War in the middle ages .
(London 1924).

Poliak A. N.

— Le Caractère Colonial de l'Etat mamelouk dans ses Rap-
ports avec la Horde D'or. Revue des Etudes Islamique
1935, Cahier III.

— Les Revoltes Populaires en Egypte a l'époque de Mame-
louks et leur causes économiques.
(R. E. I. 1934, Cahier III.)

— Le Dialecte des Mamelouks
(R.E.I. 1935).

—Some Notes on the Feudal system of the Mamelouks
(J. R. A. S. 1937 January).

Prieto y Vives : Antonio

Los Reyes de Taifas
(Madrid 1926).

Quatremere : E. T.

Histoire des Sultans Mamlouks de l'Egypte. 2 Vols.
(Paris 1845),.

Ribera : Julian

Disertaciones y Opúsculos. 2 Tomos
(Madrid 1928).

Sauvaget : J.

— Historiens Arabes
(Paris 1946).

--- Introduction a l'Histoire de l'Orient Musulman.
(Paris 1943).

Somogyi : Joseph de

Adh. Dhabi's Tarikh al Islam as an authority on the
Mongol invasion of the Caliphate.
(J.R.A.S. October, 1936).

Sauvaire : H.

Description de Damas :

(Journal Asiatique, Tome IV, 1894.)

Schefer : Charles.

Síaset Nameh par le Vizir Nizam-oul-Mulk.
Traité de gouvernement composé pour le Sultan Melk -
Chah. 2 Vols.
(Paris, 1893).

Stevenson : W. B.

The Crusaders in the East.
(Cambridge 1909).

Vernet : Juan

El Valle del Ebro como nexo entre Oriente y Occidente.
Boletin de la Real Academia de Buenas Letras de Barce-
lona, XXIII, 1950.

Wiet : Gaston,

— Histoire de la Nation Egyptienne. t. IV.
(Paris, 1926).

— Précis de l'Histoire d'Egypte t. II.
(Le Caire, 1932).

— Le Sultan Baibars
(Revue du Caire, t. III, 1939 - 1940.)

Zaki : Hasan

Les Tulunides.
(Paris, 1933).

Zambour : E. K

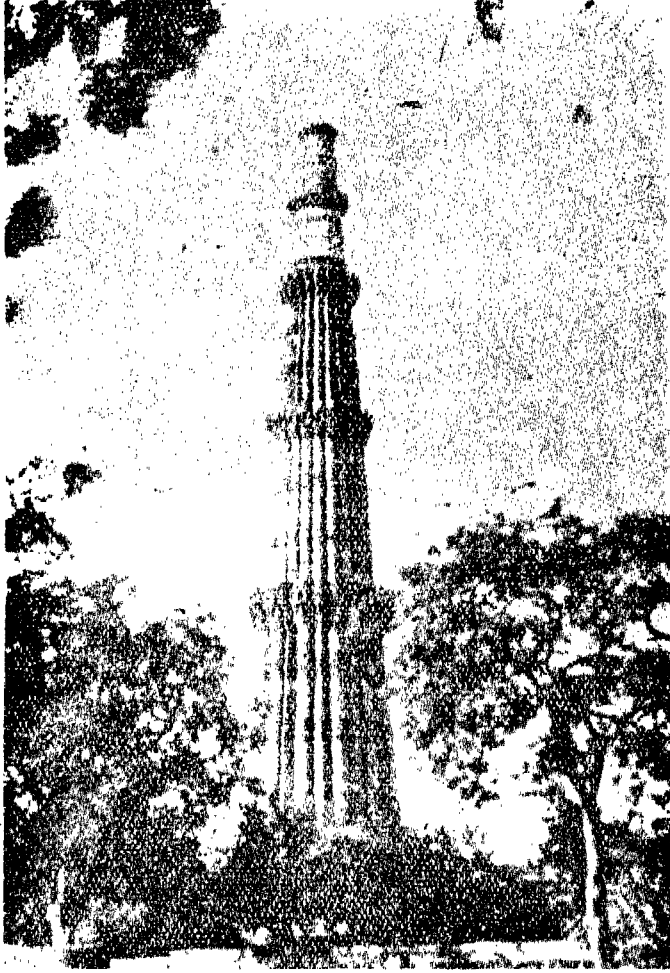
Manuel de Genealogie et de Chronologie pour l'Histoire
de l'Islam, 2 Vols.
(Hanover, 1927)

الخرائط (١) والصور وفهرس الموضوعات

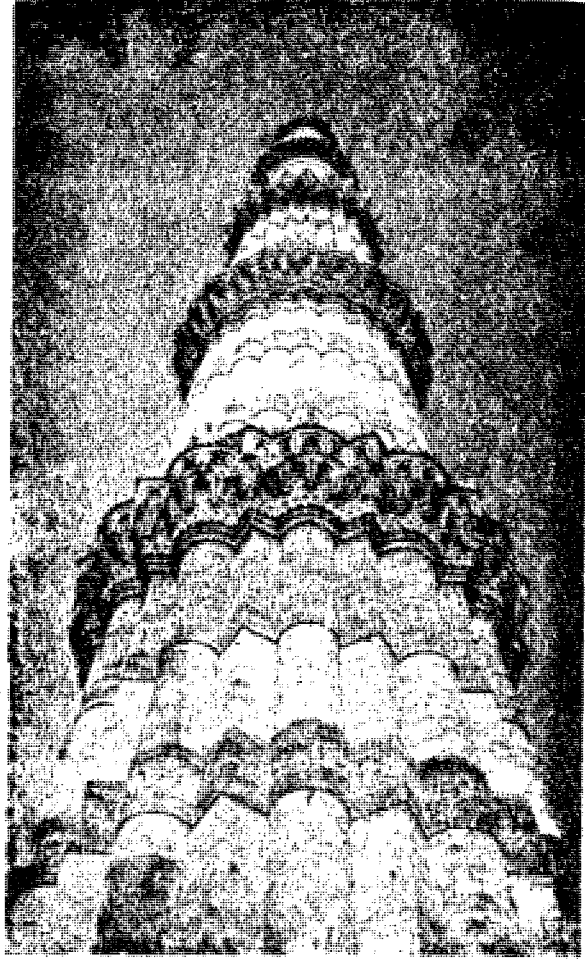
(١) قام بعمل الخرائط مشكورا الدكتور حسن ابو العينين المدرس
كلية الآداب بجامعة الاسكندرية وبيروت .



الهند في عصر دولة سلاطين المماليك بدلهي

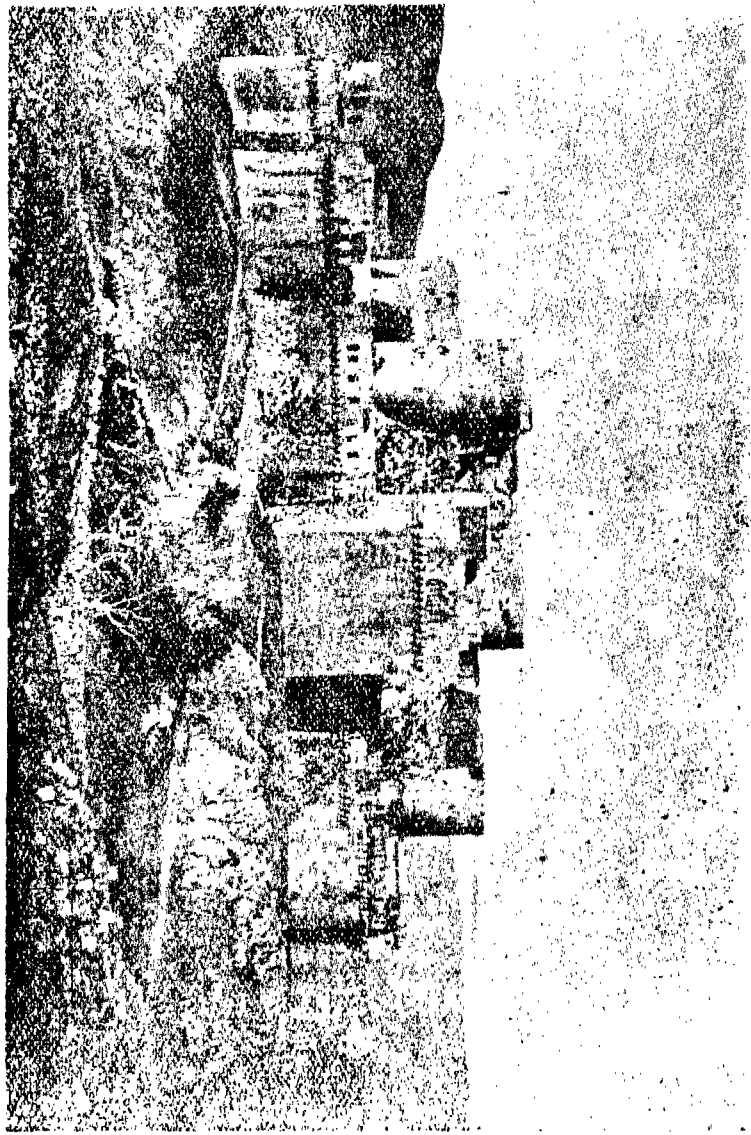


قطب منار أطول مئذنة في العالم بمدينة دلهي



قطب منار

حصن الكرك



فهرس الموضوعات

مقدمة

الباب الاول

الممالك الاتراك والصقالبة في المجتمع الاسلامي

الصفحة

١١

اصل استخدام الممالك في الدولة الاسلامية

٢١

سيطرة الممالك الاتراك على دول الشرق الاسلامي

٣٤

صقالبة الامويين في الاندلس

٤٣

الدويلات الصقلبية في شرق الاندلس

٥٨

صقالبة بنى صالح والاغالبة والفاطميين في المغرب

الباب الثاني

الممالك في مصر

منذ الدولة الطولونية حتى نهاية الدولة الايوبية

٦٥

ممالك الطولونيين والاخشيديين

٦٨

الممالك الاتراك والصقالبة في الجيش الفاطمي

٧٠

فرق الترايبى والصبيان الحجرية في الدولة الفاطمية

٧٣

التوسع في استخدام الممالك زمن السلاجقة والايوبيين

٨٥

دور الممالك في حروب صلاح الدين

٨٨

الفرق المملوكية في الدولة الايوبية

٩٤

الصالح نجم الدين ايوب ومماليكه البحرية

١٠١

دور الممالك البحرية في القضاء على حملة لويس التاسع

١١٠

النزاع بين تورانشاه والممالك البحرية

الصفحة

- ١١٢ مقتل تورانشاه وانهاء الدولة الايوبية
الباب الثالث
انتقال السلطنة الى المماليك البحرية الصالحية
- ١١٧ اقامة شجر الدر سلطنة على مصر
- ١٢٣ تنازلها عن العرش لزوجها الملك المعز أيبك التركماني
العقبات التي واجهت السلطان الجديد :
- ١٢٤ الخطر الايوبي
- ١٢٨ ثورة الاعراب
- ١٣٣ منافسة زملائه المماليك
- ١٣٩ مقتل أيبك وشجر الدر

الباب الرابع

- الخطر المغولي على دولة المماليك الناشئة
- ١٤٥ اجتياح المغول للمشرق الاسلامي
- ١٤٧ سقوط بغداد وتناججه
- ١٥٠ غزو المغول للشام واعتراف الايوبيين بسلطانهم
- ١٥٩ تكتل المماليك للدفاع عن مصر بزعامة السلطان قطز
- ١٦١ واقعة عين جالوت ورواية صارم الدين أربك الاشرقي
- ١٦٧ نتائج الموقعة
- ١٧١ مصرع قطز واعتلاء الظاهر بيبرس عرش مصر والشام

الباب الخامس

- تدعيم أركان دولة المماليك في مصر والشام
(عصر الظاهر بيبرس)
- ١٧٧ القضاء على الثورات الداخلية

الصفحة

- ١٧٩ احياء الخلافة العباسية في القاهرة وما ترتب عليه من نتائج
١٩٩ التخلص من العناصر الايوبية المناوئة
٢٠٢ محالقات بيبرس مع الدول الاوروبية والاسيوية
٢٠٧ تحصين اطراف الدولة وثغورها والعناية بالبريد
٢١٣ تقوية الاسطول والجيش
٢٢١ مكافحة الخطر الصليبي في الشام وأرمينيا الصغرى والنوبه
٢٣٣ حروب بيبرس ضد مغول فارس
٢٣٩ نهاية السلطان بيبرس وتقييم شخصيته
- الضمائم
- ١ - رسالة أبي عامر بن غرسية الشعوبى الى الشاعر ابى عبدالله
٢٤٢ ابن الحداد يعاتبه فيها ويفضل العجم على العرب
٢ - خطاب التهديد الذي أرسله هولاكو خان مغول فارس الى
٢٥٤ سلطان مصر سيف الدين قطز قبيل موقعة عين جالوت •
٣ - رواية صارم الدين ازبك بن عبدالله الاشرفي في وصف
٢٥٦ التتار وعاداتهم وموقعة عين جالوت •
٤ - رسالة السلطان سيف الدين قطز الى ملك اليمن يشره
٢٦٩ فيها بهزيمة التتار •
٥ - نصوص الهدنة التي عقدها الظاهر بيبرس مع ملكة بيروت
٢٧٣ ازابيلا ابلين (الدبونة) •
٢٧٧ قوائم المراجع العربية والاورية
٣٠٦ الخرائط والصور